

جمجمة بابل

الكتاب : جمجة بابل
المؤلف: سعد العبيدي
الصف: سيرة مكان
الطبعة: الأولى
سنة الطبع : ٢٠٢٠
ISBN: 978-9922-9118-8-5
رقم الإيداع في دار الكتب و الوثائق ببغداد (٣٠٧١)
لسنة ٢٠٢٠

تصميم الغلاف و الإخراج الداخلي : علي كاظم الشويلي
الناشر: دار الورشة الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع



عنوان الدار : بغداد – شارع المتنبي – مجمع الميالي – الطابق الاول
الهاتف: 07729247088 \ 009647714343692
alwarsha2018@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة
لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب او أي جزء منه او تخزينه في نطاق استعادة
معلومات او نقله بأي شكل من الاشكال دون اذن خطي مسبق من الناشر
ان الاراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار الورشة الثقافية.

جمجمة بابل

سيرة مكان

سعد العبيدي

إهداء

إلى أرواح أولئك الذين:

شيدوا بجهودهم رغم ضنك العيش هذه القرية.

سعوا بفطنتهم وثمار إصرارهم لبناء مدرسة في القرية.

إلى معلمي الرعيل الأول، وبعدهم معلمون علّموا أبناء القرية.

آباء وأمّهات سهروا لتنشئة أجيال تركت بصماتها في القرية.

أبي وأمي اللذين وقفنا إلى جانبي وأنا أتعلّم لأكتب حرفاً للقرية.

أصل الفكرة

كانت بدايةً سعيدةً في قرية، حياتها تبدو صراعاً بين الريف والمدينة، قديمها يسعى لمسيرة المدينة، وحديثها ينوي التَّمَرُّد على أصلها قرية. نهرها وطوق بساتين وتلال تغطي حضارة؛ أبقتها قرية صامدة، تُعارك الزمن، تتدافع مع أهلٍ لها ينظرون لها مدينة، بوضعٍ صارت طوال حلوله طاردة جاذبة، يوم يكبر أبنائها في سُلَّم الوظيفة والسياسة، يتبعثرون خارج أسوارها، يأملون العودة إليها ليتذكروا الطفولة.

طفولةً، لم يكن الواحد منهم إبانها وحيداً في انتظار عام جديد كي يلبس ثوباً جديداً يغطي عورته، ولم يكن الوحيد قد فاته العشاء، يوم يعود من سمر الليل لينام جائعاً أو يسدّ رمقه بفردة تمر زهدي، ولم يكن الليل مثل هذا الليل يوم كان سيده ظلاماً تملأه الخيالات الناقصة عن الجان.

كانوا جميعاً متساوين عند خط البداية، يأكلون من ناتج زرعهم، يهيئون مستلزمات حرّ القipzig بالطريقة ذاتها، مروحة خوص (مهفّة^(١)) يصنعونها محلياً، وعماريّة^(٢) عاقول من جريد نخيل ميسور بكثرة.

وبنات لهن في حياتها حصة ماءٍ يجلبنه من النهر يومياً، تشدّ الواحدة خصرها بالعباءة محزماً، تضع على الكتف مشربية (البگمة^(١)) تعود بها من النهر واثقة في مشيتها تهرّ الأرض هزّاً.

١. المهفّة، التسمية الشعبية لمروحة يدوية، تصنع من خوص سعف النخيل، يكاد لا يخلو بيت من وجودها قبل وصول الكهرباء وما زالت تستخدم إلى يومنا هذا.

٢. العمارية، عبارة عن مشبكين من جريد النخيل، يعملها صانع الأسيرة، يوضع بينها، نبات العاقول، يُسكب عليها الماء من الأعلى ليبقى العاقول مبتلاً، رطباً وظلماً بقي كذلك يتحوّل الهواء المار عبره إلى بارد نسبياً.

صحنون على ستارة السطح تجاورها جرار فخار. سلالٌ حِگتٌ من
أغصان الصفصاف تغطي ما تبقى من العشاء واللبن الرائب، تحاك عنها
حكايات.

ضوء القمر في الأرجاء ساحر يبدد عتمة ليل تحرقها الجدة عمداً
لإخافة أحفادها بحكايات عن السعلاة.

الأبناء جميع الأبناء راضون عن عيش البساطة، متساوون في درجات
الرضا، حتى صار الشق في خاصرة الثوب وظهور العورة مألوفاً لا يثير
التحسس، وصارت القرية صورة علقّت في الذاكرة، لها صوتٌ، ورائحةٌ
مميّزة، كوّنت لها سلسلة ممتدة من تلك الطفولة التي عاشها سعيد عيشاً
سهلاً، حتى هذا الزمن الرابض وسط الغربة اللندنية صعباً. أضحت
الحياة خلالهما زمنين متجاورين ووعاءً ملاًناً بحكايات وصوراً بالأبيض
والأسود.

الحكايات خزينٌ قديمٌ لشكل الجمجمة القديم، أخذت سعيد صوب
العودة لرسم الصورة مكتوبة، منذ وعى أصحابها تثبيت وقع حياتهم وأنماط
عيشهم وعلاقاتهم على هيئة صور تُحكى عن أبناءٍ لها وطقوس تُؤدى،
تناقلتها الأجيال جيلاً بعد آخر. عن بساتين كانت شاهدةً على وقع
الحياة، وتلالٍ تغطي أتربتها جماجم وعظام صارت شاهداً لعظمة
الأجداد^(٢).

١. البگمة، ترد في اللغة العربية المشربة، وأحياناً المصخنة، كلمة ليست عربية، عبارة عن إناء نحاسي قاعدته مدوّرة، تضيق عند الاتجاه إلى الأعلى تدريجياً، له رقبة وفوهة هي الأضيق، وعروة في الجانب، تستخدم لجلب الماء من النهر، وللتسخين في أحيان قليلة.

٢. عالم الآثار الألماني روبرت كولدفاي (Robert Koldewey)، زار بابل وقرية الجمجمة عام (١٨٨٧) وتحوّل في ربوعها، قال مختزلاً عظمتها بعبارة المشهورة: (إنّها الشاهد الحاضر للعظمة السابقة).

عن سور، انتصبت فوق أساساته بيوت دون انتظام، وباب له شطاني مقوَّس يُشبه قبل اختفائه أبواباً بابلية.

عن حبِّ فتاة قروية كانت سبباً لتغيير مجرى الحياة والهجرة الأبدية.

كلّ شيء في هذه القرية عبر قرن من الزمان قد تغيّر، الا ذكريات سعيد عنها بقيت صوراً شبه ثابتة لم تتغيّر، وفي موقف استنارة صارت فيه الصور تتداعى، تظهر على السطح الناعم للذاكرة على شكل حكايات، وأشخاص كأنهم يتمنون رسمها مكتوبةً كما كانت عبر أزمته، بلا تشويه أو تحريف. حكايات صمدت في عقل سعيد على الرغم من الطيات التي تكونت فيه بحكم الزمن، صارت كأنها سلسلة ممتدة، تربط بين ماضي القرية وبين حاضرها، أضحت من طول فراق وكأنها تتقطّع، وكأنّ العقل يريد العودة إليها، لرتق تلك القطوع، من أيام الطفولة وبعض من سني الشباب التي احتكرتها القرية، إلى سني الاستقرار القسري التي فازت بها لندن، وما تبقى من عمر لا تُراد له نهايةٌ تكتنفها القطوع.

لقد ظلّت قصّة هذه السلسلة ضجيجاً متواصلاً في العقل الباطن من التقطيع والرتق، دفع سعيد لا شعورياً إلى هذا التداعي المتواصل للذكريات في مسعى لتسجيل صورة الماضي البعيد وبعض من الحاضر. التاريخ والأحداث كما كانت تتداول على ألسنة الأجداد والآباء والشهود الباقين على قيد الحياة وذكريات من فارقوا الحياة في هذه القرية التي يرجع البعض أصلها إلى جمجمة بابلية، عاشت ماضياً وكأنّ تاريخها يريد أن يختفي داخل

ثقب إبره، أو يتوارى خلف تلّ أثري من تلال بابل التي جاورتها منذ النشأة الأولى إلى هذا اليوم، نبوءة نوّه عنها (حايط^(١))، بانت وكأنّها ستتحقّق.

هي وحكايات وبعض عادات وكلمات دارجة تعود إلى البابليين الأجداد، شكّلت دافعاً إلى استدعاء الذكريات القديمة والقريبة عنها، قرية لها حصّة في صناعة أحداث وأجيال، بغية وضعها على الورق قبل أن تختفي من عقول كبارها الراغبين في المحافظة على صورتها الأصلية قبل الاختفاء.

لكنّ بعض الأحفاد عند استشارتهم رفضوا وضعها كما هي، ورفض بعضهم نسبة ما قد حصل إلى أجداد افتخروا بفعلها حسب معايير الماضي.

قال أحدهم هذا تشويه، وقال آخر توجب المقاضاة عشائرياً، الأمر الذي دفع إلى الاكتفاء بذكر الاسم الأوّل أحياناً، مع الحفاظ على الوقائع والأحداث حقيقية، حلّ توفيقيّ استُعير من عالم السياسة يساعد على إكمال مشروع الكتاب، كسيرة ذاتية لقرية يرجع ماضيها إلى عصور تمتد آلاف السنين.

سعد خضير العبيدي

لندن ٢٠٢٠

١. حايط، شخصية لها حضور في حياة القرية، يمتلك قدرة على التنبؤ بالمستقبل، عاش منتصف القرن التاسع عشر إلى بدايات القرن العشرين، تنبأ بتحليق الطائرة، وسير القطار على السكة وغيرها الكثير.

يوم مشاهدة التلفاز

صباح العاصمة لندن نديّ برائحة الصفصاف، ذاك النبات الذي استوطن ضفتي نهر الحلة متديلاً على حافته الناعسة منذ اليوم الأول لجريان الماء منساباً إلى الجنوب. صاحبٌ منذ الساعات الأولى، سيارات لم ينم أصحابها الشباب، تمخر عباب شوارعها الرئيسة، وسيقان عاد أصحابها مشياً بوقعٍ سريعٍ كأثهم في سباق الماراثون، يحثّون الخطى نهاية ليل، وآخرون يحلّون محلهم، يبدؤون يومهم كذلك بوقعٍ سريع.

الماكنون في الشقق الخلفية لعمارة البرج وسط لندن بينهم سعيد، لا يسمعون صوتاً من تلك الأصوات المبعثرة في الصباح.

شجرة البلوط العملاقة أمام شقته يغطي إخضرارها الربيعي جهة البناية من الخلف حتى الطابق الثامن، تحولّ دون نفاذ الخيال، تعطي المكان إيحاءً بالسكن إلى جوار بستان الرهيمة^(١) في القرية الجمجمة.

أفاقت يسرى من نومها العميق قبل وقتها المعتاد، قريباً من السابعة صباحاً، نظرت إلى الشجرة البستان، تنفست أملاً، قالت:

يومنا هذا جمعة، سيكون جميلاً.

وما فرق الجمعة في عالمنا اللندني الفسيح هذا عن باقي الأيام، قال سعيد في جواب يريد له أن يكون مختصراً وأضاف:

١. بستان الرهيمة، يحد القرية من جهة الجنوب، كانت بدايته من حافة نهر الحلة حتى نهاية القرية شرقاً عند المدرسة. أخذ اسمه من أصحابه الأول آل الرهيمة قبل انتقال ملكيته إلى آل شهاب.

جمعتهم هنا مثل باقي أيام الأسبوع؛ فيها الشباب يحثون الخطى إلى الدراسة والعمل وقد امتلأت بهم الشوارع والقطارات بعد سويغات الصباح، كأَهم أناس آليون (روبوتات) مبرمجون لدوام الحركة، وفيها الكهول قد خرجوا كعادتهم قبل ساعة من الآن لممارسة التَّسكُّع مشياً في الهواء الطلق، كأَهم يستجدون العودة إلى الشباب، ونحن المحسوبون على الشرق باقون في أماكننا نلتهم التلفاز مثل كلِّ يوم، كأَنا نراه أوَّل مرّة. وكأَنا لم نفارق متعة رؤيته الأولى عام (١٩٦٤) يوم دخل القرية مخلوقاً عجيباً بشكل مفاجئ، يتحرّك، يروي قصصاً، يتشاجر، يقرأ قرآناً.

انتشر الخبر في الأرجاء، زاد عدد الزوّار، المشاهدين إلى بيت غازي محسن في زقاق الوزون، حتى امتلأت مساء ثاني خميس من شهر أيلول غرفة الضيوف، جلس منهم صفٌّ على الأرض، ومن بعدهم صفٌّ جلسوا القرفصاء، وصفوف أخرى وقف أصحابها متراصين حسب الطول كأَهم على مدرجات مسرح بابلي، يقدّم فيه حمورابي شرحاً عن مواد مسلّته، أو يقدّم عرافٌ من ذاك الزمان رؤياه عن مستقبل البلاد لهذا الزمان.

توقّف سعيد قليلاً كمن لا يريد الاستمرار في هذا الحديث، شجّعته يسرى على الاستمرار لكسر الرتابة الصباحية فعاود القول:

كنت من بين الجالسين في الصف الأوّل، وكان البث الذي استمر أربع ساعات قارب على الانتهاء، لم يبق من برامجه إلا نشرة أخبار. بدأت النشرة في الساعة الثامنة مساءً حسب التوقيت المحلي لمدينة بغداد، واستهلقتها المذيعة غلادس يوسف ببيانٍ حكوميٍّ عن اعترافات مشاركين في مؤامرة لحزب البعث كانت نيتها قلب نظام حكم المشير عبد السلام، وكان مخطّطاً

لها التنفيذ كما أشارت يوم الخامس من شهر أيلول. عند هذه النقطة بالذات تعالت أصوات الحضور، بعضها ذمّاً للمشير وأخرى ترشحاً لعبد الكريم، وثالثة تتوعده بثورة ستنتهي حكمه إلى الأبد عن قريب.

هكذا كانت المواقف تعدداً في الآراء وابتعاداً عن احتمال الاتفاق على رأي، والموجودون على مائدة التلفاز في هذه الغرفة خليط من أبناء القرية، مثلهم مثل باقي أبناء البلاد لا يتفقون، وإن كانوا في تلك السويغات لا يتجادلون، وكأنّ التلفاز هذا الجهاز العجيب يمنعهم من إثارة حوارات اختلاف كما كان معتاداً لهم في المقهى التي تشهد تعدداً لمواقف اختلاف زادت كثيراً بعد مقتل الملك فيصل على وجه الخصوص.

.....

أنهت غلادس نشرتها، نوهت عن فيلم عراقي سيتم عرضه في الغد، أعطت عنواناً له، (عليا وعصام)، وقبل إكمال تفاصيل موضوعه، زادت نسبة النمش نقاطاً ملأت الشاشة، أخفت الصورة تماماً، فظهرت حال اختفائها تعليقات من الحضور الغاضب، وهمهمات اختلطت مع بعضها البعض بتوليفة غير متجانسة ضيّعت القصد، ما فهم منها أنّها كانت عتباً على تكرار اختفاء الصورة.

قال جواد الصيّتة وقد اعتاد مشاهدة التلفاز في بغداد: إنّ الصورة هناك واضحة لا تتقلّب، ولا يوجد نمش، لأنّ البث في الأصل لأهل بغداد، هم وحدهم يتمتّعون، وباقي الكادحين من أهل العراق محرومون.

ردّ غفوري جواد: ليس هكذا فالبث التلفزيوني بيضوي، لا يتعدّى الثمانين كيلو متراً عن مصدره وسط بغداد، والحلة خارج حدود البث.

عند هذا سكت الجميع بانتظار عودة الصورة واضحة، وقد تَعَوّدوا الانتظار، وهم هكذا في حالة انتظار، اقتحم البيت مسلحان بمسدسات ظاهرة للعيان، بينما بقي مسلحان آخران يحرسان الباب وأربعة توزعوا على طول الزقاق على أهبة الاستعداد.

قال المسلح الذي دخل أولاً، بلهجة رجل أمن واضحة المخارج: لا تتحركوا، كلٌّ يبقى في مكانه، يضع يديه على رأسه، الجميع موقوفون لمشاركة في اجتماع بعثي، يؤازر المؤامرة.

تعالّت الأصوات من جديد، على شكل زعيق فيه مسحة خوف واضحة، وأثرٌ لمفاجأة غير سارة. نهض عظيم حمزة من مكانه جالساً في الصف الأول، صاح بصوت خشن: التواجد هنا لمشاهدة التلفاز الوحيد في هذه القرية، والحضور جالسون بعضهم وبعضهم واقف. هل يعقل عقد الاجتماعات الحزبية بهذه الطريقة؟

تدخّل غازي كعادته ساعياً إلى طمأنة ضيوف له يشاهدون التلفاز خاطبهم بالقول:

لا ضير من هذا، أنتم هنا لمشاهدة التلفاز، لا علاقة للحزب أو للمؤامرة المزعومة بالموضوع، إنّه تلفيقٌ مقصود. ثم حاول الاستمرار بالكلام، منعه الرجل المسلح، قائلاً بصيغة الأمر الحاسم: قفوا بالدور.

ثم وجه كلامه إلى عظيم بإشارة أن يكون أولهم في الدور.

بعد اتمامه الأمر، أعطى الإشارة واضحة إلى الآخرين في أن يقفوا من بعد عظيم، في صف لشباب وشيوخ، استثنى من كانوا أطفالاً. ومع هذا بلغ طول الصف هذا بحدود العشرين متراً، ساروا طوال الزقاق مذعورين حتى الشارع الرئيس (العجد^(١)) الذي وقفت وسطه سيارتا شرطة انتظاراً لوصول الموقوفين.

حاول جاسم (گويش^(٢)) الخروج من الصف لكنه تعثر في مشيته، اتكأ على عظيم متأرجحاً يتلوى، اقترب منه الرجل المسلح ونهره، فزاد من شدة ارتباكه، سأله:

- ما بك؟

راح بعيداً في تكرار عبارة مفككة بصوت خائف (المجاز أخذ الشرطة، الشرطة أخذت المجاز) وكأنه مريض يهذي.

انتبه الرجل المسلح إلى حالته وهو يحث الخطى في سيره قريباً منه بحدود المتر، أعاد سؤاله:

- من أنت؟.

أجاب بصوت يرتجف، ونفس يكاد ينقطع: (سائق سكن سيارة عبس).

١. العجد، كلمة مستخدمة محلياً للدلالة على شارع القرية الرئيس.

٢. گويش، لقب باللهجة الدارجة، لقب به جاسم أحمد نعيمش، يمكن أن يكون قد اشتق من الكيشة، وهي الوعاء المصنوع من الجلد أو من سعف النخيل (الخصاف أحياناً) لحفظ التمر مضغوطاً. وقد لقب به منذ الطفولة، لاعتبارات قد تتعلق بشكل جسمه المربع وأسه الكبير نسبياً. وهو لقب لا أحد يعرف من أين أتاه. المناداة به لا تستفزوه وكأنه أصبح جزءاً من تركيبة شخصيته البسيطة.

تدخل عظيم من عنده ليُفسّر القصد، إنّه مساعد سائق سيارة السيد عبس المطيري.

سحبه الرجل على الفور بقوة من بين الصف الماشي مرصوفاً إلى الشارع، دفعه جانباً. قال: اذهب وربك، لا أصدق أنك حزبي وأنت في اجتماع، سأصلي لله ركعتين، أدعو أن يكون حزبيو هذا الزمان مثلك في السذاجة، ليجنبونا عناء المراقبة والتدقيق.

مسك جاسم ثوبه الكحلي من حافته السفلى، رفعه قليلاً بقصد تفادي الإعاقة أثناء الركض، وأعطى لقدميه قوة الاحتياط المخزون كلّها كي تنطلق إلى بستان الرهيمية، وكأنّه في سباق عدو لم يتوقف منه، الا وسطها لاهثاً يهرسه القلق، دار دورة كاملة حول نفسه، وجرى ثانية بوقع أسرع، توقّف عند الباب الشطاني، وعاد منها سالكاً الشارع، يتلقّت في مشيه السريع كمن فقد شيئاً حتى بيت والدته في الزقاق المقابل.

انتشر الخبر حالاً مثل نار في كومة قش، بعد التّيقن من أن نصف شباب القرية ورجالها سيمسي ليلة في التوقيف، لا لذنّب ارتكبوه سوى مشاهدة تلفاز.

كان المختار زيدان ومدير المدرسة عباس وآخرون قد جمعهم الحدث في بيت المدير الذي بدا مستغرباً، لعقد اجتماع حزبي بهذه الكثرة وأمام شاشة تلفاز. علّق حينها المختار قائلاً: وهل يعقل أن جاسم كان حزبياً؟.

ومن بعده علّق المعلم علي عمران، المعروف برجاحة عقله، وميوله اليسارية، لا أتفق مع تهمة الاجتماع، إذ لا يمكن عقده بهذه الطريقة الساذجة، والبعثيون بطبعهم حذرون لا يجتمعون هكذا علناً، وأكمل،

حسب ظني أنَّ الحكومة قلقة من البعثيين الذين غادروا الحكم قبل أشهر ويقاثلون من أجل استرداده، لذا باتت حذرة أكثر من اللازم وحذرنا يسحبنا إلى مثل هكذا تصرفات فيها قدر من المبالغة، كما أنَّ جاسم مثلما تعرفون لا علاقة له بالسياسة ولا قدرة لديه على تركيب جملة مفيدة، فكيف يدعوه البعثيون لاجتماع؟. ومع ذلك فإنَّ الموضوع بمجمله قد يكون اعتقاداً لدى الأمن بأنَّ البعثيين قد يستعملون مثل هكذا أساليب للتضليل على اجتماعات يعقدونها في أماكن أخرى أو في غرف أخرى من البيت، وهو اعتقاد إذا ما ورد في عقول رجال الأمن فهو خاطئ.

ضرب المدير بأصابعه طاولة خشبية كانت أمامه، ضربة خفيفة تعوّدها من قبل لجلب انتباه التلاميذ لَمَّا يسرحون بعيداً.

تجاوزها دون الانتباه إليها، وسار باتجاه الاعتراض على هذا الاستنتاج، قائلاً:

لا أتفق معكم، في مخيلتي شيء آخر، أظن وأكاد أكون واثقاً من ظني، ستسمع القرية في القريب حكاية غير التي سمعت عن هذا الاجتماع. كيف لنا تصديق عقد اجتماع في العلن وبحضور عشرات الأشخاص وبينهم شخصية مثل جاسم؟.

لمن لا يعرفه أقول، هو من جيلي وبيت أهله في الزقاق المقابل. نحسبه منذ الطفولة، ابن أمه، يدخل بيوت القرية معها دونما حرج، يتصرّف عند دخوله كمن أسقط جميع الأسوار الاجتماعية بينه وبين من في الدار كباراً أو صغاراً، وهم في المقابل يسقطونها عنه بسبب بساطته، ولما شبَّ استمرَّ يدخل كثيراً من بيوتهم دونما تردّد، حتى لم تتحجب النسوة عند دخوله، يتنمر عليه الأصغر منه

والأكبر، عاش حياة صعبة، بدأها عاملاً يُعِدُّ القهوة في مضيف الحاج عباس ليلًا، ويجلب الماء من النهر إلى العائلة نهارًا، ثم توسَّع في المهنة وصار (سَقًّا) يجلبه إلى عدة عوائل، مستخدمًا عموداً من شجر الصفصاف يعلّق بطرفيه صفيحتين (تنكة)، يضعه على أعلى كتفيه ماسكاً الحبل الرابط لكل صفيحة بيد، ويمشي من النهر إلى البيت المقصود، متذكراً، يشتم النسوة اللواتي يجلب لهن الماء بصوت مسموع (بنات النعل نايمات للظهر وكويش يجب المي ليمهن). يُشاهد جاسم في المناسبات الدينية، والفواتح يُعِدُّ القهوة، وفي الأفراح يرقص كمن في داخله طفل صغير، يرفع سبابته إلى الأعلى، يقلد فيها إشهار مسدس بقصد الرمي، يبدأ بتحريكها، حركات متتالية، ويخرج أصواتاً مع تقليد لصوت الرمي، ولما اشترى عبس (عباس المطيري) سيارته من مزاد الشعبية من مخلفات الجيش الانجليزي عمل معه مساعداً، كان قوِي البنية، يحمل كيس الطحين على ظهره، يصعد به من الأرض على السُلَّم المُثَبَّت على بدن السيارة عمودياً، وقبل وضعه على سطحها، يشتم صاحبه بلغة فيه قدر من التعميم (أولاد الكلب ما عدكم شغل وعمل بس تاكلون).

ولما باع عبس سيارته بعد فتح خط لمصلحة نقل الركاب إلى القرية، أقنعه غازي بتقديم طلب إلى البلدية للعمل كناساً في القرية، لكنّه لم يكن يملك الجنسية، أخذه إلى المحكمة لإخراج الجنسية، سأله القاضي عن عمره، أجاب بعد أن حدّد له غازي عمراً هو الأربعين. سأله ثانية عن عمر أمه، أجابه أربعين، ضحك القاضي وحدّد عمره أربعين.

استلم من بعد تحديد العمر عمله كنّاساً، يتواجد في شارع القرية منذ بداية اليوم حتى نهايته، وتشاهد مستويات النظافة في هذا الشارع الملتوي

على حالها لم تتبدل. كان زاهداً في الحياة، يأتمن على فلسفه العمة كظيمة، تزوّج ولم يتمتّع بزواجه.

مات ولم تكن في البيت زوجته.

ثلاثة أيام بعد وفاته فاحت من جثمانه رائحةً أركمت الجيران فدخلوا عليه ودلّوا على مماته.

أنهى المدير حديثه العرضي عن جاسم، وعاد إلى موضوعهم الأصلي اعتقال شباب القرية، اقترح الذهاب حالاً مع المختار إلى الشعبة الخاصة في الشرطة، للسؤال عن الثلاثين شاباً، فيما إذا احتاجوا محامياً، مؤكداً أنّه من الضروري الضغط على الشرطة لإطلاق سراحهم بكفالات ضامنة.

أخذوا جميعاً سيارة عبس برحلتها الأولى عند الساعة السابعة صباحاً، قصدوا مركز الشرطة، وسألوا عن الشباب، بيّن ضابط المركز عدم الحاجة إلى محام بعد ثبوت التلفيق في وشاية مكتوبة على شكل تقرير بقصد كَيْدِي أرسله رجل من أهل القرية.



عباس المطيري. صاحب سيارة الباص الخشبية



الشارع الرئيسي (العجد)



علي عمران الخفاجي. جيل المعلمين الأول



غفوري جواد شاوردي



غازي محسن جيل المعلمين الثاني



مجاز الوزون

العيد في يومه الأول

الهاتف النقال، سألت يسرى أين هاتفي النقال؟. أجاب سعيد، هو مركون كعادته في الزاوية البعيدة، يشكو هجمة رسائل لم تنقطع منذ ساعات. قفزت من مكانها، ولمست شاشته الناعمة بقدر من العاطفة والعتب. تناثرت عبرها آلاف الرسائل المصممة للتهنئة الباهتة إلكترونياً، مثل غزارة مطر الربيع هنا في لندن، هذه المدينة التي يحاول غُول الضباب ابتلاعها، تحدياً لإله المطر في جهاده لبعث الحياة. وقفت في مكانها، نوهت بصوت خافت طري، إنه العيد.

نعم؟، قال سعيد بصيغة تعجب وكأنه لم يسمع بالعيد، فردت عليه بهدوء: إنَّ الرسائل واللقطات العابرة والفيديوهات المرسله، تؤكد أنه العيد.

نفضَ من مكان جلوس اعتاد احتكاره على كرسي في زاوية الصالة. تقدّم خطوات إلى النافذة، أطلَّ من فتحتها العريضة على شجرة بلوط عملاقة، تأملها بتوّد، وتذكّر البستان الذي جاوره في طفولته. زاغ بنظره إلى حديقة البناية المقابلة، لم يشم رائحة عيد، كما هو العيد الذي تعودّه في القرية، رائحة بخور وخضرة بستان. تنقّل بنظره إلى الأفق الأبعد من الشجرة، إلى غيمة ممسوكة بذراع الإله المرفوعة في سماء لندن طالبة دفعات مطر على حساب يوم جديد.

قال مخاطباً يسرى: عجباً أيقظتي في داخلي، ذلك المكبوت الحلو من عالمي القديم، ثم سكّت وكأنه يريد للمكبوت أن يتداعى خيالات عيد في القرية التي بقيت معالم عيشها واقعاً نفسياً في داخله المقيد بظروف عيش

أخرى وسط لندن العاصمة البريطانية. ذلك العيد الذي تربطه وإياه عاطفة راسخة كجذور نخلة امتدت عميقاً في أرض القرية، تلك القرية التي بقيت غافية على نهر ينساب في أرضها المعطاء، تنعكس على سطح مياهه الفرات نهاراً ظلال نخيل، وفي الليل صورة القمر بدرأً، يوم كانت القرية بلا كهرباء.

تعمّد سعيد السكوت برهة، فازدحمت في عقله كثير من المكبوتات، صارت تتدافع من أجل الخروج الطوعي، استجاب لتدافعها بالقول: إنَّ القرية وحدها من أبقى الذكريات ماثلةً في عقليّ المفتوح سيلاً لم ينقطع. إنّها ومع كل نسمة هواء كانت تمرّ من بين أغصان الصفصاف تحمل عطرًا لم ينضب من خيالاتي حتى يومنا هذا، فباتت هي والنسمة والصفصاف عوامل إثارة لشيء مكبوت من الماضي المليء بمشاعر الحنان.

أدارت يسرى نصف رأسها نحو سعيد، فأحسن برغبة قوية في الاستمرار بالكلام بعد أن تراكم المكبوت كمّاً لا يمكن تحمّل تداعياته، قال ووجهه ناحيتها: كان العيد أيام الطفولة والصبا في القرية مختلفاً عن هذا العيد، وكأنّ زمن التشبيه في حقول أعيادنا قد توقّف عند أحد أعياد الأضحى لذلك الزمان، كان الوقت صيفاً في حمأة قيظ، وكان نصيبي منه ثوبٌ جديدٌ، من قماش (البازة المخطّط بالطول) ما زلت أذكر ألوان مساطره الزرقاء والبيضاء.

.....

عيدٌ كان فيه نصيب الأم محفوظاً، يوم عملٍ شاق يبدأ قبل بزوغ الشمس بقليل، يسبقه يوم، تستيقظ فيه مبكراً تستمر حتى حلول ظهره جائئة، على (الرحى^(١))، ماسكة بيمينها وتدّاً لها مُثبّتاً في قسمها العلوي، تحركه دائرياً، وبكفّ آخر خشن الملمس تغرف من كيس الحنطة حبوباً تضعها في فتحة وسط القرص العلوي، لتنزل متسللة بين القرصين، تتحوّل حال ملامسة الحجر، الدوّار إلى طحين، تجمعها من على قطعة قماش تمدّها تحت الرحى وهي تناجي أمها وقساوة الزمن بغنائٍ لم ينقطع. مسكتِ المنخل، نخلت حاصلها مرتين، ووضعت في إناء العجن النحاسي (النجانة) وصبّت عليه ماءً ووضعت قليلاً من الخمرة والملح، قلبته مراراً ثم غطّته بطبق مصنوع أصلاً من نبات الحلفاء، أشارت إلى أنّ كل شيء بات جاهزاً للعيد.

توجّهت قبل بزوغ الشمس إلى التنور، أوقدته بسعفة جفّت من أشهر خلت وكرب نخيل، وعندما تيقّنت أن عجينة قد اختمر، أكملت المطلوب خبزاً لوجبة فطور حان وقتها، طلبت المساعدة لمد السفارة، واثقة من حسن التنفيذ، كان الخبز الحار أساس السفارة مع شاي سيلاني خليط، يبيعه جواد الشكر في دكانه الصغير في مقابل المقهى.

لم تحفت نار التنور، وقد بدأت وجبة (الكليجة)^(٢) الأولى من التمر أعقبتها أخرى من السمسّم والجوز وآخرها المحلّة بالسكر، أصدرت أوامرهما

١. الرحى، أداة طحن، تتكوّن من قرصين من الحجر الصلد يقل قطرها المتساوي عن الخمسين سنتمتراً، يدار الأعلى بواسطة عصا قصيرة تُثبّت فيه. وأثناء الدوران يتم طحن الحبوب التي تتسرّب بين القرصين من فتحة في جانب القرص العلوي.

٢. الكليجة، نوع من المعجنات، مادتها الطحين، والسمنة، تحشى بالتمر أو الجوز والسمسم، تكاد تكون موجودة في عموم مناطق العراق، عادة ما تصنع الأم لأبنائها الصبية خنجراً من الكليجة، يعتزون به قبل التهامة.

واضحة: املاً هذا الصحن من نماذجها واذهب به إلى بيت الجيران، لكلّ جارٍ منهم صحنٌ، وقبل الوصول إلى أوّل جار بصحن ملآن، تقاطع وجودي مع وجود ابنتهم الصبية، كانت هي الأخرى تحمل صحناً، تُطابقُ محتوياتها محتويات صحننا من الكليجة. ضحكنا معاً وتبادلنا الصحنون دون محتوياتها ثم أعدناها إلى قواعدها كما هي باتفاق صبياني. كان أوّل اتفاق غش أبيض، أعطى الطفولة معنى التحرُّر من القيود.

أنهت وجبة الغداء كانت لذاك اليوم متميزة لا تنسى، فالقدر النحاسي وضعت داخله كمية كافية من الطماطم والباذنجان وربّع كيلو لحم اشتريته بدرهم من راضي القصاب ساعة وصوله القرية على حمار أوتر.

راضي، قصاب متجول، بين القرى، جعل من بردة حماره محلاً لعرض اللحوم، يربط الأوزان بخوص سعف أخضر؛ أكبرها الكيلو وأقلّها نصف الربع، يضعها فوق بعضها تتدلى بانتظام، تتطاير من حولها مجاميع دبابير وذباب، كأنّها في وليمة عرس أو احتفال طهور، يأتي القرية في أيام لا ينحر فيها الشريكان مهدي العيال وعمران الشلال ذبيحة، إذ يقدر ضوابط المنافسة، لا يودّ التّجاوز عليها والدخول في مشاكل كسر الاحتكار.

أضافت إلى موقدها قدر رز مخصوص لهذا اليوم، تبادلت مع الجيران صحنواً مليئةً بالمرق، فغالبيتهم اشتروا في هذا اليوم لحماً، طبخوا شكلاً من المرق، فصارت موائد الجميع متعدّدة الأشكال. وجدت على مائدتها المنصوبة على حصير نقصاً في أرغفة الخبز، نادى جارتها طالبة رغيفين، بادرت الجارة صندل بإرسال ثلاثة أرغفة.

.....

حلّ العصر، عصر يوم سبق حلول العيد، أكدت الوالدة أنّ اليوم هو عرفات، وهي وإن لم تجزم وباقي نسوة القرية وأبنائها بحلول العيد، قالت: اذهب مع باقي الصبية قريباً من الجامع، انتظروا هناك سيعلن عباس الجاسم، إن كان عيداً حال تلقيه الخبر من النجف أو كربلاء. صعد عباس سُلماً من جذوع نخيل أوصله إلى سطح الجامع بسلام، رفع أذان المغرب بصوت شجي غطى مساحة القرية طويلاً وعرضاً، وبعد إتمامه أعلن حلول العيد. خرجت صرخة فرح كلمة (عيد) ممدودة من بين أفواه صبية كانوا بحدود العشرة وبأعمار مختلفة هم نصف عدد الصبية في عموم القرية لذاك الجيل، كنا قد تجمهرنا قريباً من الجامع لغاية التأكد من حلوله وإشهاره بكلمة واحدة عاودتها الألسن تتابعاً من باب القرية الشطاني حتى باب السور. تحوّل جهد الوالدة من بعد المغرب، التفاتة إلى الذات النسوية، حمام في الزاوية البعيدة من الحوش مستور بسعف نخيل مرصوف، معداته (طشت)^(١) من النحاس وقدر ماء ساخن وطاس، والابنة البكر تساعد على غرف الماء وسكبه على شعرها المكسي بطين (الخاوة)، لأغراض التنعيم الموسمي من هذا العيد إلى آخر يلي، بعد حين. وضعت بعد إكماله (الشيلة البريسمية)^(٢) على رأسها وأبقت خصلتين من الشعر ظاهرة على الجانبين، جلست على ذاك الحصير الذي استخدم مائدة طعام من قَبْل، وضعت عليه بساطاً محاكاً من الصوف الملون تخرجه في المناسبات أو للضيوف، دسّت قطعة لحاء من شجرة الجوز (الديرم) في فمها المهياً لهذا اليوم، وحركتها بين شفتيها

١. الطُشَيْثُ، ويقال طُست، كلمة معربة، يقصد بها الإناء المستعمل للاستحمام والغسيل، كان في وقته مصنوعاً من النحاس، وبحسب من معدات الزوجة يحضر معها يوم انتقالها إلى بيت الزوج.

٢. الشيلة، في التراث الشعبي لوسط وجنوب العراق، قطعة قماش منسوج بشكل ناعم، تلفّ بها المرأة الرأس كنوع من الحجاب كان سائداً.

وبطرف لسانها، كمن يتحسّس مذاق طعم حلو، نتج عن حركتها حتى حلول العشاء شفتان حمراوان استمر إحمراهما واضحاً طوال فترة العيد، هي الحدود التي سمحت لنفسها بالتقرب بها من مثيرات الغريزة في الحياة، وهي في قمة نضجها العمري، بان وجهها في تلك اللحظة صافياً، وعيناها تلمعان، وشفاتها نضرتان، أدركت آنذاك أنّها جميلة، حتى حُيِّلَ إِلَيَّ أنّها امرأة أخرى لم تكن هي ذاتها في الأمس. تعطّرت بعد انتهاء العشاء، بالقرنفل وماء الورد، ابتسمت بعد اتّمامها المهمة بحياء، ابتسامة اتذكّرها.. كانت غامضة، أدركُ معناها الآن وكأنّها إشارات إلى الوالد عن بعد، واثقة من عدم تجاوزها الحدود المألوفة ليلة العيد.

أشرّت بيد، أزلت من على راحتها توءاً بقايا طبقة من خليط الحناء، معلنة حلول موعد النوم، طلبت وضع الثياب الجديدة إلى جانب الوسادة، أكدت ضرورة النهوض في صباح الغد قبل بزوغ الشمس استعداداً لأول يوم عيد.

.....

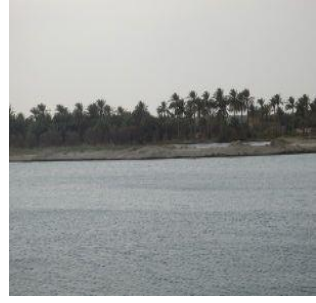
حلّ اليوم الأول للعيد، تسابق الصبية إلى ثياب وضعت تحت المخذة، بانّت في النظرة الأولى وكأنّ مكواة قد داست عليها بانتظام. وقف الوالد ساعتها وأشار مبتهجاً، ويده في طريقها السالك إلى جيب ثوبه الجانبي، أخرج عملة فضية مقدارها (عانة)^(١): قال بثقة عالية هذه عيديتك. كدت

١. العانة، عملة معدنية فضية اللون، سُكّت في العملة العراقية من أول أيام سكها بعد العام ١٩٢١، تعادل أربعة فلوس زمن الحكم الملكي، زادت فلساً لتكون خمسة فلوس زمن الحكم الجمهوري عبد الكريم قاسم، واختفت تدريجياً بعد عام ١٩٨٠.

أطير فرحاً، كانت العيديّة الأولى في الحياة والأعلى قيمة، بقيت لذة تلمسها براحة اليد ودسّها في جيب الثوب الأعلى ماثلة في الذاكرة لا يطويها النسيان. قصدت صينية (الكليجة) نشطاً، التقطت منها أربع قطع، وخامسة أخرى على شكل خنجر، صنعتها الوالدة خصيصاً لتمييزي صبيّاً عن البنات، وَضَعْتُها في الجيب الجانبي، ومشيت باتجاه الباب أتبختر وكأنيّ أحمّل خنجراً عمانياً بالفعل، قصدتُ عليّاً، كان المشي اليه من البيت عبر الزقاق إلى الشارع الرئيس بطيئاً فيه متعة عيد وزهو بالثوب الجديد، وجدت عليّاً في الانتظار، واقفاً أمام دار الأهل، مستعدّاً للعيد، كان ذاك اليوم أول عهدي بالعيد، أخذنا جولة على طول الشارع يتبختر كل منا بثوبه الجديد. عدنا إلى البيت، لتناول الفطور، كان فطور أول يوم العيد سريعاً لا يختلف عن اليوم الذي سبقه، الخبز مع الشاي، لم يزد في هذا العيد بيضة أو قليلاً من الزبد، فالبقرة المهجينة نشف حليبها انتظاراً لمولود جديد، ويبيض الدجاج وَضَعَ جميعه تحت دجاجة مجرّبة بقصد مضاعفة الثروة القائمة من الدجاج. توجهنا بعده بقليل إلى معايده العم في بيته بزقاق آخر، يتقدّمنا الوالد بثوبه الأبيض وعقال فوق كوفية منقّطة بالأبيض والأسود (الشماغ) ومن خلفه الوالدة، تمشي معتدلة بعباءتها السوداء ومن بعدهما نحن الأبناء نتّبع مثل سرب قطا تدب فراخه لالتقاط حبات من بقايا حصاد. عدنا بعد اتمامها أحراراً وعاد الشارع وباب السور ساحة لعب طوال اليوم الأوّل لهذا العيد.



الرحى



النهر (شط الحلة) عند الجمعة



الباب الشطاني قبل الهدم



جواد الشكر. صاحب أقدم دكان



علي حسين العبيدي. جيل الضباط الثالث. خبير تحقيقات



فئة من العملة القديمة (العانة)

ثاني يوم العيد

أخذ سعيد جرعة ماء أحضرته يسرى مخلوطاً بعصير الليمون الطازج لإنعاش الذاكرة. وبعد أن وضع القدرح على الطاولة فارغاً، رجع في الحديث إلى أيام العيد وإلى صباح يومه الثاني على وجه التحديد، منوهاً:

لقد قصدت علياً بعد تناول الفطور، أخذتنا أقدامنا وثقتنا بالمبلغ الذي يحمله كلُّ منا عانة بأربعة فلوس، باتجاه مرقد الإمام عمران، حيث المراسم لهذا اليوم تبدأ وتختتم في باحته لأبناء القرية والقرى المحيطة ولبعض من أهل المدينة الحلة. سرنا رفقةً في الطريق الممتد من باب السور مروراً بمجموعة التلال وصولاً إلى طريق آخر ترابي يفضي مباشرة إلى الإمام، تسلكه سيارات تنقل أشخاصاً من كل الأعمار، وعربات تجرها خيول تحمل صبية فرحين في طريقهم إلى الإمام، كانت العربات قد بدأت سيرها أرتالاً ذاهبة وأخرى آتية وصبية داخلها يلعبون يتحركون حركات تُعَبِّرُ عن الفرح وسعي لقضاء يوم عيد في حضرة الإمام.

كانت الخطوة الأولى عند الوصول إلى الساحة المجاورة للإمام تفقداً للمكان بعد اشتداد الزحام، أشر عليّ بيده ناحية العربة التي حولها (حمدان الطرشجي^(١)) في هذا العيد إلى موقعٍ لإنتاج وبيع الشربت المعمول من الزبيب، وقفتُ بمواجهته واثقاً من نفسي ومن القدرة المالية على الشراء، وقفة تختلف عن تلك الوقفات التي سبقتها ذليلة في أعياد سابقة، تنتهي في العادة بتمنيات شراء، ومتعة شمّ لرائحة الزبيب دون القدرة على الاقتراب،

١. الطرشجي هو بائع الطرشجي.

إذ إنّ بائعه ذا الشكل البهلواني، لا يقبل الوقوف لمجرد الفرجة والشم، ولو كان الأمر بيده لعرض الرائحة التي تخرج من شربته زكية إلى البيع.

طلبْتُ قدحاً من شربته اللذيذ وطلب عليّ مثله قدحاً، سلمت الرصيد عانةً قبل استلام القدح المطلوب من يد له ترك الصبغ المضاف إلى منقوع الزبيب أثراً على أصابعها الخمسة، مصحوبة بنظرة امتدت سهامها قلقة من عينيّ إليه، كأنيّ لم أثق بإعادة ما تبقى ثلاثة لسان، ولربما أسفُتُ في حينها على تجزئة هذا المبلغ الذي أتخيله كبيراً، لكن الرجل المتهم بالجشع أعاد الباقي قطعة نقود حمراء عرفت أنّها لسان مع فلس ثالث كذلك أحمر يصغرها بقليل، شعرت لحظتها براحة لا توصف، مع معاودة تلمس القطعة الأولى الأكبر حجماً من تلك التي سلمتها قبل قليل.

توجهنّا ومذاق الشربت ما زال ملتصقاً بالنهايات العصبية للسان، قصدنا العطار حمزة، بائع الحلويات المتجوّل، طلب كلانا قطعة من (العسلية)^(١) قال: ثمنها فلسٌ واحد، أخذتها، متمتّعاً بمضغها ومشاهدة رقصة الجوبي (الدبكة) التي عادة ما تقام في الأعياد، على الساحة الرئيسة جنوب الحرم من شباب أغلبهم من القرى المحيطة بمرقد الإمام.

وقف السيد منخي بكوفيته المرقّطة وبحزام من جلد أحمر في بداية صف للوقوف، لم يكتمل العدد اللازم لشروعه بالدبكة.

دقّق في وجوه الرجال، لا سيما الشباب.

نادى على من يعرفه منهم وعلى من يشاهده لأوّل مرّة، في أن يلتحق بالصف راقصاً، فالحاجة ما زالت قائمة إلى المزيد.

١. العسلية، نوع من الحلوى، يدخل الدبس مادة رئيسة في صناعتها.

اكتمل العدد أو هكذا حُيِّل لي قد اكتمل، عشرون رجلاً في أعمار الوسط وبداية الشباب، انتظموا صفّاً على شكل نصف هلال، كأثَم في حظيرة مشاة اصطفت بهذا الشكل لتأخذ درساً في السير بانتظام.

عدّل منحي هيئة وقوفه قبل الشروع بالدبكة، واثقاً من نفسه ومن حركات يؤديها بتواتر وانتظام تتكرّر في كل عيد، جعلته أحد أركانها وجعلتها طقساً من الطقوس الشعبية في العيد، وأبقته بتعاقب السنين في أول الصف، بيده مسبحة كهرب صفراء توقّر لها أشعة الشمس الساقطة على حباتها المشاهدة من بعيد. ويوقّر هو بحركته وإثارته الحماس نشاطاً وصل حدّاً باتت الضربة الواحدة من أرجل الدابكين تسقط منتظمة على الأرض، لها صوت ارتطام، يشبه وقع أقدام جنود يستعرضون في يومهم الوطني، ويحسّ باهتزازها القريبون منهم والأبعد عنهم بقليل.

بمواجهة هذا الصف أو نصف الدائرة، الهلال، وبعض خطوات إلى الأمام يتحرّك عاصي حافي القدمين بجسم نحيف يتمايل والمزمار (المطبگ)^(١)، في فمه، دفاق لم يتنفس خلالها ولم يرمش له جفن عين، كأنّه أحد تماثيل آلهة بابل الصامتة، ترتفع من جهة فكيه فقاعتان تشبهان تلك التي يكونها الضفدع أسفل الحنك أثناء النقيق.

ينفث منهما هواءً في آلهة التي لا يفارقها، يُقسّم الصوت الناتج عن مخارج الهواء لحناً يثير الدابكين، يزيد ضرب الأرجل على الأرض بإيقاع خاص،

١. المطبگ، قصبتان أسطوانيتان متساويتان بالطول والقطر، تلصقان معاً بمادة «القيز» وتثقب كل قصبّة بعدة ثقوب متقابلة ومتوازية وتكون القصبتان مفتوحتين من الجهتين، وتدخل في الجزء الملامس للقم قصبتان صغيرتان تسميان «الزمارتين»، مصنوعتان من القصب الرفيع، متساويتان أيضاً في الطول والقطر. يخرج الهواء المار من الاسطوانتين صوتاً موسيقياً يتحكّم به النافع لحناً كما يريد من خلال الفتحات الموجودة في الأسطوانة.

ويتطاير من شدتها التراب أكواماً، يختلط بالعسلية التي أمسك بها فيعطيهما نكهة خاصة، ومن جانبها تسهم الشمس في جعلها ليّنة تسيل مادتها بين أصابع تحاول الحفاظ عليها حتى آخر المشوار.

.....

سألت يسرى عن عاصي ومزمارة، وكأَنَّ الاسم قد استهواها أو إنّ أداءه الفطري قد جلب لها الاهتمام. ردّ سعيد بالقول إنّهُ يتذكره جيداً، شخصية، لا تحسب على البشر، كان أقرب إلى رجل أسطوري منه إلى إنسان، يشبه أنكيديو السومري، في ابتعاده عن التَّمذُّن، وحبّه للحيوانات وميله للأطعمة التي تنتجها الأرض نيئة. هيئته وشكل بشرته السمراء وقصر قامته ونحافتها، وسباحته مع الجاموس في أماكن سباحتها، كادت تجعلني أصدق أنّه رجل أسطوري مثل أنكيديو وإن غاب الاغواء في حياته على العكس من ذاك الذي أغوته الخادمة شامات.

أما لبسه المميز رداءً مصنوعاً من وبر الجمال (البشت^(١)) شتاءً وفي الصيف، وحلاقة شعر رأسه واللحية، بقطعة زجاج يهيئها بنفسه، جاعلاً الماء الراكد في السواقي مرآةً لمشروع الحلاقة، تجعلني أفكر جدياً أنّه ينتمي إلى عالم آخر غير عالمنا الملموس.

اعتاد عاصي، أو هذا الغريب عن عالمنا الواقعي، الخروج مبكراً إلى بستان العائلة المجاور لآثار بابل، بعد أذان الفجر بقليل، يُسمَع صوت عزفه يتلوّى داخلاً في إيقاعات حزن، ليخرج منها بحزن، كذلك يفعل

١. البشت، كلمة دارجة في اللهجات العربية، وهو أقرب إلى العباءة الرجالية، مصنوع من وبر الجمال أو شعر الماعز.

عصراً في طريق العودة، وكأن سَلَوَتِهِ في الحياة أو اتصاله بالعالم الآخر من حوله يتم عن طريق العزف.

لو أن أحداً يلتقط صوت مزماره في تباين لحنه صعوداً وخفوفاً وجزاًه إلى جزيئات صغيرة لرأى بوضوح مقادير الأسى والحزن في نفسه العميقة. يكلم نفسه بين عزف وعزف بطريقة وكأنه يكلم أحداً في عالم افتراضي يراه ويسمعه هو فقط، دون غيره من القريين.

عاش حياة زهد آمنة، لا يستطيع النوم الا على السطح حتى في أيام الشتاء، إذ إنّه ومنذ أن كان صبياً لا يغفو الا بعد التمتع بالنجوم المتناثرة في السماء يحسبها واحدة تلو الأخرى، يتفقدوها كما لو كانت خاصته، يتحمل البرد أو بالأحرى لا يشعر بحصوله عندما يغوص في متعة النظر إلى نجمة متوهجة يحسبها وطناً، يتخيّل وكأنّ له سكناً فيها وأهلاً منها، وحياةً عاشها من قبل على سطح لها تغمره مياه تحفّ بها أشجار، حتى أنّه وبعد صحوة من نوبة تشبه الصرع ألمت به أول مرّة وهو يعزف أثناء عودته من البستان، قال لجواد الشاوردي كلاماً مسموعاً بلغة غريبة، سأله عندما كان قريباً منه بالصدفة؛ عن معناها فلم يجب، لكنّه ولما غادر النوبة بوحي منقوص قَرَبَ فمه من أذن جواد وهمس:

أنّه عاش حياة أخرى في عالم بعيد آخر غير عالمنا هذا، كانت له هناك عائلة تحسب من عليّة القوم، أحبّ فتاة جميلة لم يتزوجها بسبب حرب مات فيها مقتولاً، أشّر على ندبة في صدره يعتقد أنّها أثراً لإصابته في تلك الحرب التي مات فيها. تدخلت يسرى في مجرى الحديث وقد انسجمت مع التفاصيل، سألت:

- ماذا يفعل في أيام الشتاء عندما يكون الجو مائطراً.

أجاب سعيد:

يستمر في النوم، يسحب حصيره ويدخل تحت سلة كبيرة مصنوعة من عيدان الصفصاف، موجودة على السطح، مغطاة بقطعة قماش لتقليل المطر النافذ إلى داخلها، يلفّ جسده (بالبشت) الذي لا يفارقه، ينظر من طرف لم تطله قطعة القماش إلى نجمة محدّدة ثم ينام وكأنّه سلطان.

كان عاصي الانسان يعيش عيشة كفاف بسيطة، راضياً بها مقتنعاً بوقعها، عاد مرّة من بستان العائلة فرحاً، يعزف لحناً سارّاً لأول مرّة، ولما استفسر منه شقيقه حبيب عن السبب، أكد أنّه سعيد جداً هذا اليوم، لكثرة السيارات التي شاهدها مرّة من أمامه على طريق (حلة - بغداد) أثناء جلوسه على الربوة يعزف ويتفرّج.

بيّن أن متعته الفرجة على السيارات، عندما لا يكون له عمل في الحقل غير الفرجة.

لم يمرض عاصي طوال حياته، ولم يشكّ الماء، وربّما لم يفصح عن شكواه الا للنجوم عندما يكون وإياها في خلوة حياة.

مات سريعاً ميتة غريبة.

وكيف مات سألت يسرى؟.

قال سعيد: ذهب إلى شقيقته في زيارة بمناسبة زواج كانت قد نحرت فيها عجل جاموس بالغاً، جلس على طابوقة عليها نقش بابلي جوار القدر الذي يحوي نصف لحم العجل المذبوح، وبحار يتصاعد من وسطه

ممزوج برائحة اللحم نصف المطبوخ، عزف لحناً مميزاً فتجمّع حوله صبية وشباب أثارهم منظر العزف واللحن الحزين.

قطع العزف فجأة وضع آله في حزام له، حبل مفتول من الصوف، نظر إلى القدر ولحمة هبر تغطس مرّة وتطفو مرّة أخرى أعلى نافورة الماء وهو يغلي، راقبها مثل صياد صقور بارع، مدّ يده حال ظهورها طافية، التقطها سريعاً بيده اليمين قبل اكتمال طبخها، نقلها وهي تغلي إلى يده الشمال، كرّر الفعل مرتين وفي الثالثة وضعها في فمه الخالي من الأسنان، حاول بلعها كلقمة واحدة، لصقت في بلعومه، عجز عن دفعها أو إخراجها فقطعت مجرى التنفس، وأماتته في الحال.

تناقلت القرية أخبار موته، بكت عليه بحرقه، لفّ جثمانه بالبشت، وشيع تشييعاً مهيباً من بيت العائلة إلى باب السور.

تقدّم المشيعون المؤذن عباس، سار خطوات أمام النعش، رفع صوته قائلاً: (لا إله الا الله، وحده لا شريك له، له الحمد وهو على كل شيء قدير). بات يكرّرها حال الانتهاء منها وصولاً إلى باب السور.

أنزل حاملبي النعش نعشه وضعوه على الأرض، التفت من حوله النسوة حلقة بكاء ولطم بشباب السواد، دقائق وصدع صوت المؤذن (ما يدوم الا وجه الكريم) إيداناً بوضع النعش على سيارة عبس، التي امتلأت بالمشيعين ومن بعدها سيارة هادي سعيد وحبیب كذلك امتلأت بالمشيعين، سارت الثلاثة برتل حزين إلى المثوى الأخير في وادي السلام، كأنّ الأهل فقدوا رمز بساطتهم في قرية لهم نشأت في الأصل بسيطة، قيل بعد سنين من

دفنه أن قبره أصبح من الدوارس، وكأنته قد عاد إلى عالمه البعيد ليدفن هناك.

.....

عروض اليوم الثاني للعيد في ساحة الإمام كثيرة وشيقة. في الركن الغربي، أراجيح نصبها محترفون قَدِمُوا من مركز المدينة؛ الحلة ليكسبوا رزقاً مضموناً منها، أعمدتها جذوع نخيل، وحبال لها تتدلى من الأعلى مادتها ليف نخيل، وكذلك قاعدة الركوب جزءٌ من جذع نخلة ماتت أو أميتت عمداً بقصد تحويلها إلى قاعدة ركوب.

إلى جوارهم أصحاب حمير قدموا من القرى المجاورة (كويرش وسنجر وبرنون وعنّانة^(١)) أعدوها لركوب الأطفال، انتقلاً بين الساحة المتربة، وأسفل التل.

أشار سعيد إلى أنّها لم تستهوه وغالبية أطفال القرية آنذاك، فصار يريدو ركوب الحمير بعض أطفال من مركز المدينة الحلة، إلى جوارها خيول سُرجت، للصبيّة الأكبر عمراً.

في الركن الشرقي من باحة المقام وضعَ شخص ثلاثيني حوضاً معدنياً مملوءاً بزجاجات مشروب السيْفون^(٢)، مغطّاة على آخرها بقطع من الثلج، لا يتوقف عن المناداة بأعلى الصوت، (بارد السيْفون)، التف حوله فتية

١. القرى الأربعة القريبة من قرية الجمجمة هي: سنجر وعنّانة في الجانب الثاني من النهر وكويرش وبرنون في جهة القرية ذاتها.

٢. السيْفون، مشروب غازي ظهر قبل عصر الكوكاكولا والبيسي كولا، عبارة عن ماء وصبغة لون في الغالب أصفر مع مادة الصودا، اختفى حال ظهور المشروبين المذكورين.

بالعشرات، يسلّمه الواحد منهم فلساً لقاء الزجاجة الواحدة، ليتجه إلى آخر يتفاصل معه في رهان على المسافة التي سيصلها السيفون (المحتوى) سيحاً على الأرض عند فتح الزجاجة بعد خضّها بسرعة واستمرارية لشوان معدودات في لعبة يسمونها (الفايح)، منظرها ممتع، وتحدي المقابل في ساحتها مثير. طلب علي بقدر من الإصرار أن نلعبها ومن يخسر يعطي من رصيده فلساً واحداً.

ربح هو الرهان، جرى بعدها تقاسم ما تبقى في الزجاجة من سيفون يقلّ عن الربع، شربناه مناصفة أثناء التجوال بين جمهور اختلط فيه البائعون مع الزائرين، وقبل العودة إلى البيت كانت الوجهة هذه المرة بائع العنب لفة واحدة بفلس واحد، استغرق قضمها متعة ما يقارب الخمس دقائق حتى الوصول مشياً إلى ساحة (المنطرد)^(١) بين التلول القريبة من الإمام ونهر البدعة.

وقف في الساحة شباب من القرية والقرى الأخرى مع أحصنة لهم أعدوها لسباق بين القرى، مادة تفاخر بينهم، يذكرونها كلّ سنة في تحدٍ ودي قبل بداية السباق. تركناها وفي طريق العودة تفقدنا الرصيد لكلينا حال الوصول إلى باب السور، كان الباقي منه فلساً عند علي، صار من نصيب حفنة مخلّط، اشتريت من محل إبراهيم العزيز كوّنّت متاعاً لما تبقى من الشارع إلى البيت، آخر ما فيه قطعة حلوى (حلقوم) تمّ الاحتفاظ بها حصّة إلى الجدّة سويدة هدية عيد.

١. المنطرد، ساحة للمطاردة والتسابق.

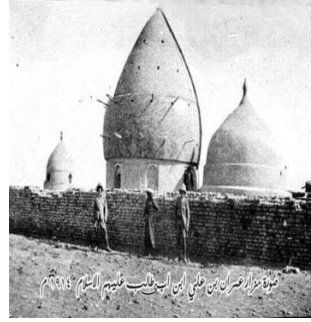
انفض اليوم الثاني للعيد وعادت مفرزة الشرطة الخيالة أدراجها ظهراً، سجّل أمرها ياسين الباغي وزميلاه عباس العداي ورميزان، (عبد الظاهر) تقريرهم الشفوي، كان العيد لهذا الموسم خالياً من مشاكل عادة ما تحدث بين شباب القرى، اتجهوا بملابس الخيالة المميزة إلى النهر، سقوا خيولهم منه ماءً عذباً. عاد الشرطي الأول رميزان وحصانه في طريقهما إلى المركز خبياً، قطعاً الشارع بزهو كأنه قائد تركي.

حصل بعد أسبوع على ترفيع لرتبة أعلى مكّمة لعموم الشرطة من الرئيس، عاد إلى القرية وعلى ردي بدلتة الشتوية شريطان، جلس في المقهى، قبل تغيير لباسه الرسمي، وضع ساقه اليمين على الأخرى الشمال، اعترض لأول مرّة على شباب ينتقدون الحكومة، خاطبهم باللهجة الدارجة:

(الذي يتكلّم ضد الحكومة من الآن فصاعداً أشعل أبوه).



الناعور



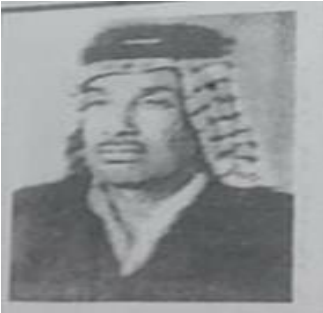
الإمام عمران عام ١٩١٤^١



باص هادي سعيد الخشبية موديل ١٩٥٨



ندوة ثقافية في المدرسة عام ١٩٧٠



هادي سعيد الباوي



منخي عباس المعموري

^١ . الإمام عمران بن علي دفن حسب الحكايات الدارجة في تل من تلال بابل الأثري، قبل أن التل يغطي معبدًا بابليًا. أعيد بناء المرقد بعد ٢٠٠٣ دون موافقة من الآثار.

حفلة مقام في لندن

رمت يسرى هاتفها النقال على المنضدة الزجاجية، حال الانتهاء من حكاية العيد أيام زمان، عتبت بالقول، أي عيد هذا الذي لم نتأمل منه فطوراً من الكاهي وقيمر السدة في بغداد صباح أول أيامه؟.

وأي عيد لا تتحقق فيه زيارة يجتمع فيها الأولاد مهنيين عند دار العائلة الكبير؟. يلعب في باحته الأحفاد، يرتفع الصراخ والشكوى واستعراض الملابس الزاهية، ساعات قبل تناول وجبة غداء عمادها (الدولة) الأكلة المفضلة لأهل الموصل وبغداد.

نعم قال سعيد، لكنّه عيد، جاء في هذا الوقت الذي تتدافع فيه الأيام من حولنا باهتة، فجعلته مجرد عيد، أو بالأحرى لا يحمل معنى عيد. قالها بحسرة فيها قدر واضح من الحدة وقليل من الاستهزاء، وحال إكمال القول، تضاعف عنده الشعور بالغربة وزادت في نفسه الرغبة بالغوص في دهايز الماضي البعيد، ثم العودة هرولة إلى وقع الحاضر القريب، ورتابة عيش لندني تتشابه فيه الأزمنة والأحداث، يومه هذا مثل أمسه متساويان، مساؤه مثل الصباح، ليله بعيداً عن المصاييح، داكن بلا طعم، شمس غائبة، لم تشرق عمداً لعدة أسابيع.

لا معنى فيه إلى عيد سوى الرّدد على تلك التهاني التي لا تنقطع، صوراً ولقطات مستنسخة من بعضها البعض، خالية من دفء المشاعر المكتوبة بلغة بسيطة وبأنامل يد تمدّها القلوب بدفعات حب دافئ. مدّ أصابع يده

برفق على كتفها الحنون وهي جالسة في مكانها على كرسي في صالة الاستقبال صغيرة الحجم، ليخفف عنها وتخفف عنه، قال:

تصوري لم أجد طوال هذه السنين التي عشتها بعيداً عن القرية ما يضيفي على مكاننا هذا الذي نعيشه صفة الوطن، ولا معنى معقولاً للعيد. رَدْتُ مبتسمة ابتسامة متفائلة رقيقة مثل وجهها الجميل: لقد وجدتُ الحل سهرة مع فريدة، سيدة المقام العراقي تقيمها الجالية في فندق الهلتون وسط لندن مساء اليوم، يمكن الشعور في محيط حفلتها ببهجة قد نجد فيها معنى للعيد، يوصل حاضرننا بالماضي، يعيد إلى الذاكرة قديمها قبل النضوب.

أعادت العرض ثانية بلغة ملأت مفرداتها مرحاً ورغبة جادة في صياغة فعل يجلب العيد إلى ذاكرة الحاضر، فكان العرض حلاً معقولاً، بل ملائماً، والسير في طريقه جاء في الوقت المناسب، وكأنَّ المبتغى في إنعاش الذاكرة، وقتل الاكتئاب قد تأمن بالقدر المقبول، وقبل أن تنهي مقترحها الذي تحوّل إلى مشروع قائم، قالت: سأتصل بفؤاد وزينب، وأدعوها إلى الحفلة، سيكونان خير رفيقين لنا في هذا العيد، نتذكر وإياهم أيام زمان.

دخل سعيد ويسرى القاعة المخصّصة للحفل في فندق الهلتون ذي النجوم الخمسة، بانت مزخرفة بزخارف قديمة تنم عن ذوق فيكتوري رفيع، حافظ عليه البريطانيون اعتزازاً برفعته.

شبابيكها المغطاة بستائر وردية، تبدأ قريباً من الأرض لتنتهي عند سقف منقوش يحسب عالياً، لا يشبه سقوف بيوت لندن في عصر حديث

تميّزت الارتفاعات خلاله بالانحسار تحسباً للتدفئة أيام الشتاء. الأضواء الخجلة في أركانها أضفت عليها نوعاً من الهيبة.

تقدّم أحد العاملين للدلالة على الطاولة المحجوزة بالرقم ثمانية، وحال الاقتراب منها، سلّمنا على من سبقهما في الجلوس، بينهم فؤاد وزينب، وفقاً في أماكنهما أولاً، قدّم الآخرون بعد فؤاد أنفسهم، قال الأقرب مسافة إنّه عاصم إعلامي، وزوجته بلقيس، وقال الذي من بعده بلهجة تقترب من اللهجة الموصلية فيها حرف القاف غالباً، لكنّها ليست موصلية، فقدت من نصوصها بعض كلمات، إنه داؤد، يهودي، يحتفظ بعراقيته ويعتزّ بها، وإلى جانبه زوجته سارة هي الأخرى عراقية، رافقته مثل ظلّه لحظة زواجهما حتى اليوم الذي صار يتكئ فيه عليها وتكئ عليه، لم يتخلّفا عن أي حفل عراقي يقام في لندن منذ وصولهما إليها عام ١٩٥٠ وحتى الآن، والجالس إلى يساره، صديقهم نصير وزوجته سهير، مسيحيان من بغداد، غادرا العراق عام ٢٠٠٥.

مدّ سعيد يده لمصافحة الموجودين تباعاً، وعرفّ عن نفسه وزوجته، ومثله فعلت يسرى، فجلس الجميع، وعبارة مرّت سريعاً على لسانهم (مساكم الله بالخير). عند هذا الحدّ دخلت المطربة فريدة إلى القاعة فعمّ الهدوء حال دخولها. سكت جميع الراغبين في إيجاد حلّ لغربة عيدهم.

قطع عشاق المقام، نقاشات كانت ساخنة عن أحابيل السياسة وشيوخ آخر زمان ووضع للبلاد يقيّمونه مضطرباً لا ينفع معه الخلاص سوى بالقلع من الجذور، وسؤال على أطراف الشفاه يفتش أصحابه ببعض كلمات عن الحل. أدار الجالسون حول الطاولات العشرين المتناثرة في ربوع القاعة

وجوههم صوبها وهي تتجّه إلى موقع الفرقة شمال القاعة المألّنة بالحاضرين،
لم يكن بينهم شباب كثير.

الشباب هنا، من ولد هنا، ومن جاء صغيراً إلى هنا، يفكّر باللغة
الإنجليزية، يحلم بوقع لغة الإنجليزية بفتاة شقراء، وسيارة رياضية توصله بسرعة
التماع البرق إلى موعد لقاء، يجمعه مع حبيبة تطربها أغان إنجليزية.

الشيوخ المهاجرون إلى هنا أو الذين شاخوا هنا، وحدهم يفكرون،
يدندنون، يسمعون باللغة العربية، يحلمون بعبوة ناسفة وإطلاقة بندقية وحلّ
القضية الفلسطينية، وشرطي شاهراً سلاحه يطلب الهوية، بلهجة عربية
محلية، هم من صقّق تواءً بحدّة وكأنّ الواحد منهم قد انتشى حتى الثمالة
بفك عقد الغربة، أو حصل البشارة نصراً في حروب بلاد، كثرت معاركها
وخسائرها من ذاك اليوم الذي بادر فيه قادة الحرب قتل ملكهم وسنّ سنن
حروب داخلية لم تنته بعد حتى هذا اليوم.

.....

أبطأت فريدة في مشيتها واثقة من قدرتها المساهمة في تفكيك
مصفوفات الغربة، ابتسمت هذه المرة بنكهة عراقية رافعة يديها تحية تقدير
إلى جمهور ظلّ يصفق ما بعد فض النقاش عن القضية، حتى جلوسها على
كرسي في مقدمة عازفين تميّزهم السدادة الفيصلية، فتكوّن مشهدٌ لو جازت
العودة فيه سنتين عاماً إلى الوراء، والتصوير لبعض جوانبه بتقنيات الأبيض
والأسود لانعكست على أحاديذ الذاكرة صورة عملاق المقام العراقي
يوسف عمر، جالساً يشدو مقام الرست في ستينيات القرن الماضي.

مرت بصوتها الرخيم أولاً على أغنية ناظم الغزالي (أي شيء في العيد أهدي اليك).

انتقلت إلى أخرى تراثية مشهورة (يا حادي العيس) كانت قد أخذتها عن عملاق مقام آخر هو محمد القبانجي.

وبين هذه الأغنية وتلك عرّجت على أغنية موصلية يطرب لها عراقيو ذاك الزمان وبعض من عراقيي هذا الزمان، هي (أشكان الدلال) ومن بعدها أغنية يردها البغداديون في جميع حفلاتهم (أويلاه يابه) واسترسلت متوددةً مثل نسمة هواء عليل في ربيع العراق العليل إلى أغاني محفورة في الذاكرة الجمعية، لا تقل الواحدة منها متعة عن الأخرى، إلا في حلاوة الشدو، والتنقل بينها وسط جمهور كأنه ذاك الجمهور الجالس على مدرجات المسرح البابلي بكامل قيافته العصرية وحسن هندامه الآدمي، يوم كان أهل الفن ومريديه يتربعون على مقاعد الصف الأول.

نظرت إلى الجمهور، في شدة تصفيقه، ظننت أنه لم يرتو من عطش الغربة أو لم يفك طلاسمها الشائكة بعد.

شخصته بفطرتها من أيادٍ ترتفع وموج تصفيق مصحوب بزفرات وأنين كأنها تأخذ الواحد إلى بغداد أيام تألقها نجمة ساطعة في سماء الدنيا الفسيحة، وحفلات تقيمها نوادي الصيد والعلوية، ومراكز الترفيه العسكرية، وإلى القرية وبساتينها الجميلة، يوم يخيم الغجر بين نخيلها، قريباً من النهر وبأبها الشطاني، لتقديم فنههم غناءً ورقصاً يُشبع حاجة أهل القرية للاحتفال بأبنائهم عرساً لحبيب أو ختانا لحفيد يضفي البهجة فرحاً على الجميع دوغما استثناء.

تأوّه سعيد لما صدع صوت فريدة بمقدم آخر أغنية لها (أم العباية)،
وضع يده اليمنى على خده الشمال، سرح بعيداً في التفكير إلى قريته
الجمجمة ورحل بذكرياته إلى وقت كانت فيه العباة لباساً يتغنى بها الشعراء
وتتفنن الشابات في إبراز معالم جمالهن من عباءة تلف كل الجسد الغضّ،
وكأنّها تتحايل عليها في اللبس وقال:

كانت مياه النهر في صيف سبق مقتل الملك فيصل بسنتين على وجه
التقريب، غزيرة تداعب حافاته المكسية بنبات (السلهو^(١))، وكانت بعض
بنات القرية في مقتبل العمر يحملن قدوراً وصحوناً وأباريق شاي، يجلسن
على حافة الماء، يغسلنها بترؤٍ، يُعَمِّنُ النظر بامرأة تبعد أمتاراً لفت جسدها
بعباة جزية داكنة السواد كأنّها الليل، وضعت توءاً صينية المنيوم ربت
وسطها باقات أغصان من شجر الياس وشموع أوقدتها بمناسبة زكريا،
ودفعت بها لتساير مجرى الماء، رفعت يديها إلى السماء متأملة عودة زوجها
جندياً يقاتل في حرب الشمال، لم يعد في إجازة منذ شهور، وأخريات
شمرت أذيال عباءتهن على كتوفهن ليغفرن ماءً صافياً من داخل النهر، تمد
بعضهن سيقانها عمداً في أعماقه أمتاراً لتأتي به زللاً تؤشر لصاحبة لها
تسايرها في مد السيقان؛ إنّه ماء العروس.

منظر المشربة (البگمة) على الاكتاف وهن عائدات إلى البيت وقليل
من مائها يتبدّد حياءً على الرقبة المغطاة بالعباءة يعطي الحياة معنى محلياً
جميلاً.

١. السلهو، نبات يكثر في الأهوار وعلى شطآن الأنهار المغمورة بالمياه، يتمدّد ويتكاثر بسرعة، تقتات عليه الأبقار والأغنام.

شباب انقسموا إلى ماشين على الشاطئ يتأملون وإلى متسابقين لعبور
النهر سباحة شرط أن يبدأ المتسابق من نقطة ليصل إلى أخرى في الضفة
الثانية تقابلها على نحو دقيق.

قليل هم الواصلون، فتيار الماء قوي يدفع المتسابقين المبتدئين جنوباً
عشرات الأمتار، ومن يصل يحصل على تصفيق حار من الشباب، وعلى
تحية من فتاة تعبر عنها بتعديل وضع العباءة على رأسها بحركة سريعة مع
ابتسامة تضيء على الأجواء استثارة غريزية تتناغم وآخر أغنية ختمت بها
فريدة حفلها لهذا اليوم بعبارة (حلوة عباءتك).

.....

في استراحة العشاء وجبة طعام غلبت عليها النكهة العراقية، وجه
بدايتها عاصم الذي قدّم نفسه أول الحفل إعلامي في شبكة (البي بي سي)
البريطانية قال: يبدو أنّ الجالسين جنباً إلى جنب أصدقاء من زمن طويل،
ويبدو أنّهم على صلة ببغداد وكأنّهم لم يتركوها لوقت طويل، بودي أسمع عن
العراق، لأنيّ أعمل تحقيقاً صحفياً عن البلاد وأحوال أهلها، وما جرى لهم
في حاضر الزمان، وغابره.

ردّ فؤاد:

نعم صديقان، وصداقة سعيد تمتد إلى أيام الدراسة الثانوية، التي
أكملناها معاً في إعدادية الحلة، وتفرقا من بعدها، إذ قصد سعيد العسكرية
ضابطاً يشق طريقه في ثكناتها، وتوجّه هو صوب الآداب في جامعة بغداد،
ليشبع ولعه في التاريخ وعشقه لمدينة بابل، أمّا عن مشاهدة بغداد، فإنّه لم

يشاهدها منذ غادرها هارباً قبيل الحرب مع إيران بشهرين، لم يجرؤ؛ لا هو ولا وزوجته على اتخاذ خطوة الزيارة على الرغم من سنوح الفرصة بعد عام ٢٠٠٣، إذ يحسّ كلاهما بثلم في مشاعرهما الوطنية، كما وجدا نفسيهما فجأة خارج الحدود بلا وطن. أما سعيد فمن جانبه قال:

أنا وكما أشرت قبل قليل، وبعد تركي العراق هارباً من أهل السياسة، عملت في مشاريعها المعارضة لأهل السياسة، حال وصولي لندن لاجئاً بعد حرب الخليج الثانية، وبسببها وتعلقي بالبلد والقرية التي ولدت فيها وعشت طفولتي بين أزقتها، كنت كمن يقف على خط الشروع متأهباً، فما إن دخلت أرتال الدبابات بغداد محتلةً في نيسان عام ٢٠٠٣، وقذفت بالنظام الحاكم خارج أسوار الرئاسة، حزمت أمتعتي، وزعت أشياءي، ركبت الطائرة إلى عمان، ومنها، أخذت البر سبيلاً إلى بغداد، وكانت أول وخزة ألم ألقاها، منظر دبابات التحالف تتمترس على الحدود، وقد فتحت أبوابها مشرعة، وكأن أصحابها ينادون من هبّ ودبّ إلى دخول البلاد دون قيود، ولا إجراءات سفر كما هو معمول في بلدانهم.

ألم ظلّ يحفر في خاصرتي ست ساعات، هو الوقت القائم لإتمام قطع الطريق حتى أطراف بغداد، وما إن خفّ قليلاً عند ظهور تلك الأطراف تجددّ ثانية، فقد كان الزحام على أشده في الطريق الرابط بين حي المنصور وعلاوي الحلة التي قصدتها نهاية مشوار، وبداية آخر باتجاه بابل، إذ نزل شاب من سيارة حديثة لا تحمل رقماً، وكان كمن تأخر على ميعاد أو احتجّ على أصل الزحام. أخرج، من جيب ثوبه الأبيض النظيف مسدساً بقبضة عاجية، أطلق عدة عيارات، هرع بعض أصحاب السيارات عند

سماعها إلى سياراتهم، وصعدوا بها على الرصيف الجانبي ليفتحوا له الطريق.
التفتُ لحظتها إلى السائق الذي يقلني، ودار حوار بيننا:

- نحن مقبلون على سبع سنين عجاف.

- وهل يعقل هذا فالسبع كثر علينا وقد تضورنا من قبلها سبعات
وسبعة.

- صل إلى الله قرباناً كي تبقى السنين سبعاً، فهي إن لم ندرك خلالها
محتتنا بسبع، فقد تمتد إلى السبعين.

ردّ وهو غير مقتنع بما قلت:

- إنك متشائم وربما مرعوب.

- آمل هذا.

ومن ذاك اليوم وقبل اكتمال السبع بسبع أخرى وأنا في دوامة الذهاب
إلى بغداد وبابل، أحمل في حقائي ألماً يتجدّد كل سبع، حاولت يسرى
تخفيف حدّته مؤقتاً بهذه الصحبة وبهذا الحفل الذي أقامته السيدة فريدة.



مطرب المقام يوسف عمر



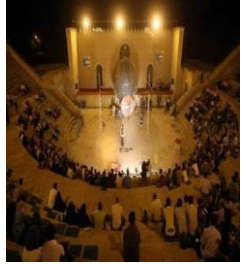
كاهي وقيمر^١



مطربة المقام فريدة



شموع زكريا



المسرح البابلي^٣



ناظم الغزالي^٢



بنات القرى قبل عصر الاسالة



زحام بغداد



البجمة

^١ . الكاهي البغدادي وقيمر الحلة أكلة مشهورة في بغداد صباح العيد.

^٢ . يوسف عمر وناظم الغزالي ومحمد القبانجي من أشهر مطربي المقام العراقي منذ بداية التسجيل الإذاعي حتى الآن ٢٠٢٠.

^٣ . المسرح البابلي. اعيد بناءه في سبعينات القرن الماضي على أسس كانت موجودة آثارياً.

العجربة الشقراء

ألحّت الذكريات على سعيد طوال أغاني قدمتها فريدة بصوتها الجميل، أبقتة راكداً في بركة خيال كوّنّها لنفسه، ظلّت عيناه خلالها سارحتين في خلالي عقله، وكأنّ بعض الأغاني جاءت دافعاً لنبش الماضي، وإظهار بعض ركام قال عنه: كنت وأصحاب لي صبية بعمر يقترب من الحادية عشرة عاماً نمشي على شاطئ النهر، لاح لنا من بعيد رتل غجر (كاولية^(١)) آت من بين التلال، في مقدمته حميرٌ تحمل أثقالاً بينها طبول، ومن بعدها خيول رزمت على ظهورها خياماً ودفوفاً. توقّف الرتل عند الشاطئ المقابل لبستان (المومنين^(٢)).

بدأ الرجال إنزال أحمال دوابهم، ونسأؤهم تنصب خياماً، لم تمض ساعات حتى اكتمل النصب بانتظام، بات منظرها من بعيد مثل ثكنة لوحدة مشاة عسكرية أعدته لأغراض التدريب على قتال عدو مجهول، اختلفت بينهما معسكران إشارة إلى اكتمال النصب، كانت عند الوحدة العسكرية نفخ بوقٍ بنغم خاص، وكانت عندهم، ضرباً على الطبلّة بوقع خاص.

كنّا أول من حام حول المخيم، معجبين أصلاً بأصحابه، نتعاطف معهم غريزياً.

أتذكر ساعة ذهابي مساءً مع الوالد لزيارة عمّ، يستعد لتزويج ولده البكر، والرغبة التي أفصح عنها لإقامة حفل عرس مُميّز، تتكلّم عنه العوائل

١. الكاولية أو الكيولية، التسمية الشعبية للعجر، والشائع استخدامها في عموم العراق.

٢. المومنين، البستان التي تحد القرية من الشمال تنتهي عند حافة التل التي أنشئ عليه المغتسل. يقول كبار القرية إنّها سمّيت بالمومنين، لأن فلاحיה الأوائل كانوا متدينين أي (موامنه) باللهجة المحلية.

والشبان، اقترح أن يحويه الغجر الذين خيّموا في ربوع القرية عصر اليوم، أيدته بحماس أثار الانتباه، وأشرت على الوالد أن يسهم في دفع أجور الغجر، مشاركة في تكاليف العرس، تقديرًا لابن عم استحق الزواج.

كان ذاك اليوم مشهوداً، وكان الحفل ممتعاً كما هو حفل فريدة الذي أقامته أخيراً، بل وأكثر متعة لإقامته في الهواء الطلق، إذ وعند اقتراب الغسق نُصبتْ تحوت المقهى في الباحة المواجهة إلى باب السور، ركنين متعامدين لجلوس الكبار، وثمة ركن ثالث مُدَّتْ له حصران من سعف النخيل، جلس عليها القوم صفوفاً، وركن رابع لشيخ الغجر عواد وعازف الرابابة، وطبال وأربع غجريات في ريعان الشباب.

مسك عواد طبلته إيداناً بالبدء، راح يضرب عليها بأصابع صنعت للضرب، منتقلاً من واحد إلى آخر على نحو محموم وكأنّ مسّ الطبل قد تلبسه.

وقفت الغجريات، تقدمن من الساحة الترابية وقد اكتظت أركانها الثلاثة بالحضور شيئاً وشباباً، وبعض أطفال، ونسوة تجتمعن فوق سقوف بيوت تشرف من بعيد على الساحة. وصبية، أخذ البعض له مكاناً على سطح سيارة العبوسي وعبود، أوقفها أعلى التل المواجه إلى المدرسة، تحوطاً لاحتمالات عدم اشتغالها آلياً في الصباح، وأخذ البعض الآخر مكانه واقفاً خلف التخوت.

علت وجه سعيد ابتسامة وهو يتذكّر وقوف هذه السيارة على التل، إذ قفرت على سطح ذاكرته قصة صاحبها، اللذين تشاركا في شرائها، لتشغيلها معاً لنقل حجاج القرية في مواسم الحج، وتشغيلها في الأيام

العادية على خط حلة - محاويل، وبشأنها ذكر بعض التفاصيل قال: كان هذا الخط نشطاً، ينتقل عبره الجنود المتدربون في معسكر الريفية، يمتلئ داخل السيارة بهم وعلى السطح العلوي بعد انتهاء الدوام على وجه الخصوص.

بدأ عبود في يوم سبق عيد الجيش جمع أجور من ركب على السطح مخفضة، عشرة فلوس في الرواح، ومثلها في المجيء.

رفض بعض الجنود الموجودين على السطح، دفعها كاملة، قالوا إنّها لا تستحق غير خمسة فلوس بل ولا تستحق فلساً فالبرد شديد.

تجادل معهم، تطوّر الجدل إلى امتناع عن الدفع، خاطبه أحدهم، مصرّاً على عدم الدفع منه خادماً العَلَم. وهَدَّده آخر بالاعتداء ضرباً بالحزام (النطاق).

دقّ عبود بعضاً يحملها سلاحاً دفاعياً (التوتية) على الزجاج الأمامي للسيارة، طلب من شريكه العبوسي، التوقّف لحسم الموقف وتفادي تطور التهديد إلى الضرب. أجابه مكفهاً: أنا مساهم معك في السيارة، وليس شريكاً لك في تلقي الضربات.

.....

مرّت حادثة السيارة هذه عابرة في مخيلة سعيد، وعادت به الذكريات لا إرادياً إلى حفلة الغجر، مبيناً أنّ البداية كانت غجرية نزلت رشيقة القوام، بردفين كاملي الاستدارة، وصدرٍ ناهد، وشعر طويل غطى ظهرها العامد، خجلاً من مسّ الردفين، كان يتهاوى في حركته مع حركتها في السير وهي

تدخل الساحة المعدّة للحفل، تتبعها غجريتان اثنتان، وثالثة تنتظر جانباً، يحاولن تقليدها في المشي والغناجة، يضعن وشاحاً (الشيلة) على رؤوسهن، لا يغطي الا قليلاً من خصل الشعر داكنة السواد. أما هي فمن فرط إعجابها بشعرها الأشقر الطويل وضعت الوشاح على كتف لها يتدلى من جانب الصدر منساباً إلى وسطها الممشوق.

رقصت بحدوء في سعي لمعرفة جمهور بات ينظر إليها بعيون مفتوحة على أشدها، من فوق تخوت وحصران، ومن أعلى بيوت، نظرات تفيض بالشهوة والكبت.

وقف جواد في مكانه عند التخت الذي يحتله مع أصدقاء.

أخذ رشفة من قدح لعرق العصرية وضعت زجاجة منه على طاولتهم، ثم خطا باتجاهها، دندن بعبارات لم يسمعها أحدٌ سواها، لم تعرها اهتماماً بالقدر الذي تريد إثبات ذاتها غجرية جميلة. أخذ الوشاح من على كتفها بحركة لا تخلو من الاستعراضية، وكأنّه يريد القول لباقي الرجال محذراً:

لقد حجزت بطاقة الجلوس مع فاتنة الحفل.

تأملته بتأنٍ وهو في وضع يكاد فيه التهامها بنظرات مليئة بالشهوة الجامحة، ابتسمت قليلاً لحركته المميزة، فسَرَّتها استلطافاً، دفعته إلى التلويح بالوشاح إلى أعلى في إشارة ناهية من كلتا يديه، كمن كسب قلبها الولهان.

عاد إلى مكانه واضعاً الوشاح بينه وبين صاحب يلازمه طوال الوقت، أما هي التي استمرت بالرقص، فقد أكتفت بنظرة لمكان الجلوس، لازمة للاستدلال على وجهتها بعد الانتهاء من وصلتها الراقصة.

ربع ساعة هي وصلتها الراقصة، تمايل الشباب خلالها ملوّحين بأياديهم، هزّ الشيوخ رؤوسهم على حفيف الربابة، تذكروا أيام الشباب عندما كانوا يلوّحون، كسروا هذا اليوم عادات لهم في أن لا يظهروا وهم يلوّحون على هذا النحو المكشوف، في نهايتها اتّجهت صوب جواد، نهض واقفاً، لم تجلس حتى أوسع لها وصديق يشاركه الجلوس على هذا التخت الأثري، في الركن الشمالي من الساحة. ابتسمت بحياء مقصود، ابتسامة واثقة بنفسها ثم جلست.

قدّم لها كأساً من العرق، قرّبه من فمها، ردّت بيدها، وابتسامة فسرت من الحضور أنّها لا تشرب.

أخذت الاستراحة زمناً كان خمس دقائق حسبها لحظات، انتشى طواها بلامسة الجسد، وكلمات غزل بسيطة، مقبولة بأعراف الغجر، حاول مد أصابع يده اليمين، منعه بلمسة يد، قائلة: مد الأصابع وقرص الأفخاذ غير وارد في الأعراف الغجرية.

التفت إلى الصبية الواقفين خلفه وهم محشورون يسمعون ما يريدون سماعه لاكتساب خبرات متاحة عن طريق التلصّص والتقليد، حيث لا يتكلّم الكبار عن تجاربهم ومعلوماتهم في هذا المجال. عاود الالتفات منزعجاً حاول الظهور بمظهر من يريد زجر المتطفلين، ليس رغبة في الزجر وتفادي عبور بعض خطوط الحياء، بل تأكيد لوضعه المتميّز، ورجولة حاول تعزيزها علناً بمغازلة غجرية شقراء، كأنّ سلوكه الدعيّ في واقع الحال، اشتها التلصّص على فحولة يود إظهارها بينة من خلال الهمس مع الغجرية

والتحرش بها على الخفيف. قامت من مكانها، وضع في يدها درهماً، هي التسعيرة الدارجة لأخذ الوشاح (التفريعة)^(١) كما هو وارد في لغة الغجر.

في الوصلة الثانية استأنفت غناءً تصاعدت حرارته عند الشباب حدّاً بلغت حرارة الحمى، وانتقل عواد في ضربه الطبلية من أغنية إلى أخرى تزيد من حرارة الحمى، بدأ صوتها ظاهراً من حنجرتها جذلاً بطبقات عالية تقترب من طبقات صوت فريدة التي بقي صوتها يملأ المكان، مع فارق أن صوت الغجرية يغطي الأرجاء دون وسائل بث مساعدة لم تكن ميسورة في ذاك الزمان.

كان صوتها يرتفع تدريجياً وكانت أنفاس جواد تتأرجح بين هفتٍ وارتفاع، كأنّه في سباق عدوٍ سريع، سمعته يقول لصاحبه ومن شاركه الجلوس على التخت بعد أخذ الوشاح من على كتفها ثانية، إنّها ليست غجرية الأصل، لقد سرقها الغجر من أهلها، حاول تأكيد استنتاجه حال الجلوس في مكانه وقد تكاثر من حوله الصبية، بالقول، إنّ لون شعر الغجر أسود، بينما شعرها ذهبي.

تذكر سعيد تفاصيل ذاك الحفل بتمتعه في هذا الحفل كمن يراه الآن وتذكر كيف كانت الأذان صاغية لصوتها الجدل، والعيون ثابتة على جاسم كويش الذي نزل إلى الساحة حاملاً خنجرين معقوفين ليرقص بهما ويراقصها رقصة (الهمجع)^(٢). قابلته في الرقص، أثارت غرائزه عن آخرها،

١. التفريعة، كلمة تعني قيام شخص بأخذ الوشاح من على رأس الغجرية بعد دخولها ساحة الرقص وخلالها، فتصبح حاسرة الرأس، ومدانة له بالجلوس إلى جانبه طوال فترة الاستراحة، لقاء مبلغ محدد.

٢. الهمجع، كلمة دارجة باللهجة الشعبية العراقية، وهي طريقة رقص خاصة بالنساء الريفيات جنوب العراق، رقصة تحتفظ بالكثير من بقايا عناصر وأصول الرقص السومري، وأثناء تأديتها تحل الراقصة شعرها وتطوح به في الهواء من

بات بعد الاستشارة يقفز في المكان والخنجران في يديه يتحركان مثل حصان جامح، دار وإياها من أمام الجالسين على التخوت يرقصان، توقف أمام جواد، مدّ يده إلى القدح المملوء بالعرق، عبّاه في جوفه مرّة واحدة، التفت إلى جواد الذي كان مشغولاً بحركات العجربة الشقراء، خاطبه بصوت عالٍ:

(ألن أبوك).

.....

نزلت فريدة من موقعها راضية عن إداء كان رائعاً، درجت ماشية بين الطاولات، تُسلّم على معجبيها ومن خلفها مشى بعضهم، فتوالت على ذاكرة سعيد صورٌ لنهاية الحفل الذي أبدعت فيه أربع عجريات كانت أجسادهن بعد انتهاء الوصلة الأخيرة تلتمع بالعرق.

كان الجزء الأول من الليل قد تناهى، وكان الجو المشحون بالفوران الغريزي قد تراخى، عندها نهض العم أعطى إشارة بدء الزفاف، ونهض الجالسون من على الأرائك والحصران، وتقدّم أصدقاء العريس، (السراديج^(١)) الذين رافقوه إلى حمام عمر أغا في مركز مدينة الحلة صباحاً بشياهم البيضاء، مشوا إلى جانبه، صفّاً نظامياً، ومشت أمامهم العجريات صفّاً آخر بعدّة خطوات، ومن حولهن صاحب الطبلّة؛ كبيرهن عوّاد، أمّا الصبية وسطهم، فكانت أعينهم شاخصة على تلك الشقراء لم تفارقها، يتخيّل الواحد منهم لحظتها أنّه العريس وهي عروس جاهزة للزفاف.

حولها يمينا ويساراً بقوة على إيقاع الطبلّة. ثم تفتي ركبتيها لتنزل إلى الأرض وترك لتسدل شعرها، ثم تنهض وهي تركز الأرض بقدميها بقوة، وتعيد هذه الحركة أكثر مرة.

١ . سردوح، كلمة عامية، أصلها تركي، وتعني جليس العريس من أصحابه القريبين ليلة زفافه.

توجّه أربعة شباب أقرب عمراً إلى الصبا، رفعوا (اللوكسات^(١)) التي كانت تضيء المكان، من على أعمدة علّقت عليها، وضعوها على أكتافهم، تحمّلوا حرارتها والحشرات التي تتطاير من حولها برغشاً في محيط المكان، أدار الجمع وجهته صوب الشارع.

ضرب الشيخ عوّاد على جلد طبلته بأصابع يديه الرشيقتين، فاهتزت أجساد العجريات طرباً، وصدحت الشقراء بصوتها المميز غناءً أجادت به في إظهار رجولة العريس وتسخينه خطوة باتجاه الزواج، ثم سارت إلى الأمام مشياً راقصاً، وسار الجمع من بعدها بطيئاً طوال الشارع مع وقفات أو نوبات رقص، وبعض وخز من قبل الشباب لأماكن في جسم العريس، إمعاناً في عملية التسخين التي بدأتها العجرية قبل قليل.

زغاريد (هلاهل) من على سطوح بيوت تطلّ على الشارع لنسوة القرية وقفن عليها بانتظار الزفة، وأخريات من العائلة اقتربن منها نثرن على رأس العريس (الويهلية^(٢))، ومن امتلك سلاحاً، بندقية كانت أو مسدساً أو حتى بندقية صيد، أخرجها اليوم، وفتح أقسامها ليرمي ما تيسّر من عتاد، حتى وصول الزفة إلى البيت. وصلت عتبة البيت، تفرّق الشباب، سلّم

١. اللوكس، استخدمت الكلمة في عموم العراق، كما هي في اللغة الإنجليزية، (Lux) التي تعني في الأصل وحدة الإضاءة في النظام الدولي. ويتكوّن من وعاء معدني يوضع فيه النفط، على جانبه مضخة يدوية بسيطة (الپمپ) وفي أعلاه أنبوب يوصل النفط رذاذاً إلى فتيل حريري حوله زجاجة على شكل اسطوانة، عند استخدام الفتيل أول مرة يبقى منتفخاً يتحول إلى رماد حال مسه، تولع هذه الفتيلة عن طريق إيقاد قليل من مادة الكحول المثيلي (السيبرنو) حتى تسخن فيضخ لها النفط إلى أن تنقذ، ويجسم الزجاج من حولها الضوء فينير منطقة واسعة، امتلكته عائلة أو اثنتان من القرية في البداية، يوضع في المضيف، ثم كثر استخدامه بالتدريج، بات يوضع في المقهى، وعلى السطوح، وفي باحات البيوت.

٢. الويهلية، كم من الحلويات المتنوعة تشتري من البقال، تنثر في المناسبات فرحاً على رؤوس الأطفال عند الختان (الظهور) وعلى رؤوس الشباب في الأعراس، وأحياناً في المناسبات، والنجاح، وقد تنذر المرأة نذراً أن تنثر الويهلية إذا تحقّق لها مراد ما.

الوالد، لعود أجره عشرة دنانير، وأضاف إليها ديناراً إكرامية له، وأمل يملأ خاطري أن تتخيل الشقراء هذا الدينار لأجلها.

دخل (السراديح) خلف العريس، قَبَلوه في باب غرفته، قال الوالد:
- هذا يومك، ارفع رأسنا عالياً.

أوماً برأسه إيماءة إيجاب، ليست جازمة، تؤشر أنه خجل، وأن أفكاراً بالنتائج وأباً ما فتئ يلح عليه بضرورة الاستعجال قد سيطرت عليه.

جلس المقربون في باحة البيت بانتظار النتائج. الأب قريب منهم يتحرك جيئةً وذهاباً تتلبسه حزمة قلق صار بسببها لا يهدأ، ولما هدأ سأل قريب له:

- ألا تعتقد أنه تأخر؟.

لكنه لم ينتظر الجواب، إذ التفت صوب آخر من الأصدقاء كان قد حضر زواجه قبل شهر، سأل بصيغة مختلفة:

- هل يعرف كيف يتزوج؟.

- ألم تعلمه كيف يتزوج وأنت الذي سبقته بشهر؟.

وحسماً للموضوع وسعيًا لتهذئة أب يُفتش عن رجولته في صورة الابن، ردَّ عليه الصديق أنه لم يتأخر، وأنَّ الوقت عند من في الغرفة عريساً غير الوقت عند من ينتظر، ثم الزمن قد تغير، وهناك حسب الظن من علم العروس أيضاً كيف تتزوج، فالجدة قد خرجت من غرفتها، وقدمت يقيناً درساً عن كيفية الزواج.

ردَّ بعصبية، غير معهودة:

- إنّه هراء، دخول العريس على عروسه وإتمام المهمة سريعاً عرف في التقاليد، كان سارياً عند الأجداد والآباء، ويفترض أن يكون عند الأولاد، ثم ختم الردّ بجملة قصيرة:
- السرعة رجولة.

وهكذا كان القريون يتناوبون التهذئة، وقبل أن يتوجّه الأب إلى الباب ليطلقها، خرج العريس حاملاً بيده قطعة قماش موشّحة بدماء مائلة إلى الصفرة، إعلاناً بإتمام الزواج، وعقّة العروس، ابنة عمّه العذراء. سحب الأب مسدساً اقترضه من صديق خصيصاً لهذه اللحظة.

أفرغ مشطاً هو استيعابه كاملاً في هواء الفناء المفتوح لبيتته، قائلاً:

مشكورين أولاد عمران، والله معاكم.

.....

نُحْض سعيد، من مكانه ليلقي التحية على المطربة فريدة، ألقاها مع ابتسامة وإشادة بفنّها الرفيع، ثم عاد إلى وضعه الأول، نظر إلى شركائه في الطاولة، كانوا جميعاً مشغولين بالكلام عن حياة أيام زمان، فعادته الذكرى عن غجر غير أولئك الغجر الذين أسهموا في زفاف ابن عمه، كانوا يسمون بالغجر العجم، وهم ميالون إلى الشراسة أكثر من باقي الغجر المسلمين، يصنعون الخناجر، وبعض المستلزمات البيتية مثل (المنخل والسرد) يبيعونها في تنقلهم وترحالهم بين القرى والأرياف، خيم منهم في بستان المختار زيدان في الربيع، حضر اليهم في اليوم الثاني أبناء المختار، وصار جدال بينهم، تطوّر بعد قليل إلى عراك، حاول فيه الشباب اقتحام الخيم كنوع من التحدي ورفض البقاء في البستان. خلع رجال الغجر أعمدة خيمهم، ومسك الواحد

منهم في يده الشمال عموداً جعله درعاً يحمي جسده من العصي التي تكاثرت، وفي يده اليمين آخر جعله سلاحاً هجومياً للضرب والانقضاض. تفوّقوا على الشباب أولاد المختار وأبناء عمومته في الجولة الأولى، لكن خبر العراك قد تسرّب إلى وسط القرية، فجاءت التعزيزات فزعة من شباب آخرين خارج عائلة المختار وعشيرته، شنّوا جميعهم هجمات متواصلة، بعصي ومگاوير وحدرات^(١) وخناجر، اكتسحوا مواقع دفاع الغجر. تعالى الصياح، تبعثر رجالهم، هربت النساء الغجريات، باتجاه واحات البردي القائمة على طول الشاطئ الممتد حتى بساتين البعودة، لغرض الاختباء بين تلك النباتات تفادياً للأذى الذي كثر فوق الرؤوس. حضر قبل النهاية كبار القرية والمختار شخصياً، هدّؤوا من روع الشباب، وأعادوا النساء إلى أماكنهن، طلبوا إعادة نصب الخيم المبعثرة، والمبيت ليلة واحدة ومن ثم الرحيل.

١. الحدرة، عصا بطول يصل إلى المتر أحياناً، توضع في أحد طرفيها كتلة معدنية غالباً من الرصاص الأصفر، وجاءت بعد المگاوار الذي يشبهها مع فارق يتمثّل في أنّ الكتلة في أحد طرفي العصا في حالته من القير وفي حالة الحدرة من المعدن.



سيارة باص خشبية عملت على خط المحاوليل



عبود الكتاب/ صاحب باص/ مختار



رقص غجري^١



اللوكس



حفل عرس بحيه الغجر



رقصة الهجع

^١. الغجر في العراق رحل يعيشون في خيم تنصب وترفع حسب الحاجة. ينتقلون بين القرى والأرياف لإحياء الأعراس أو الطهور. بدأ حالهم يتجه صوب التغير حيث التوطين في أماكن محددة مثل الكمالية في بغداد بعد عام ١٩٦٨، فتغيرت الكثير من عاداتهم وطباعهم وتغير فنهم محدود تقترب من الانقراض.

البعثة الألمانية

التفت فؤاد ناحية سعيد، مبتسماً، وكأنه وجد موضوعاً يهمه، فأكد أن الغجر العجم يتجولون في كل القرى القريبة من بابل، يدخلون الآثار خلسة في بعض الأحيان ويفتشون عن قطع أثرية يتاجرون بها، وكانوا يحيمون في قرية كويرش وقتاً أطول من بقائهم في القرى الأخرى بسبب قربها من الآثار وإقامتها على أرض بابلية أثرية. توقف فؤاد عن الكلام ليستجمع أفكاره وأكمل حديثه، من أن كويرش والجمجمة قريتان تحسبان جزءاً من بابل الأثرية، ولو تمت العودة إلى الخرائط القديمة سيجد المتبع أنهن يدخلن ضمن أسوار بابل القديمة. أيده سعيد في قوله هذا وقال: نعم أنفق، لقد نُقِلَ على لسان الأجداد أنّ بعضهم وجد في أسس بيوتهم القديمة جراباً فخارية تشبه تلك التي يعثر عليها الآثاريون تحت أتربة التلال المحيطة، بها من جهة الشرق، ثم أن عادات قد امتدت على ما يبدو من البابليين إلى القرية، فلزمن ليس ببعيد كان من بيني بيتاً يذبح جدياً، يدفن جمجمته بقرونها في الأساس، والجدي من القرابين التي تُقدّم أيام البابليين، والقرون كما يقول ترمز عندهم إلى الشيطان. نعم قال فؤاد وأضاف: أنّه كآثاري عمل في بابل لفترة طويلة يستطيع القول بوجود مصادر تؤكد أنّ للقريتين امتدادات مع بابل وتفاعلتا معها باتجاهين؛ يمثّل أحدهما قطب الهدم حيث الاستغلال المقنن لطابوقها في بناء بيوتهم، ويمثّل الآخر مجال الدعم بعمال وموظفين كان لهم باع طويلة في إتمام عمليات الحفر والتنقيب.

عاد سعيد مؤيداً لما قاله فؤاد، مع تأكيد أنّ جدّه قد عمل في الآثار زمن العثمانيين، ولعمله هذا قصّة لا تخلو من الغرابة خلاصتها، أنّ جدّه كان عائداً من بستان في قرية أبو عجاج، يعمل والده في أرضٍ هناك فلاحاً، وكان الوقت ظهراً، يتصبّب خلاله عرقاً حتى إن كان راكباً فوق (شبيجة)^(١) مليئة بالحشائش على ظهر حمار حساوي أبيض ضخّم، هي وجبة ما تبقى من النهار وصباح اليوم الذي يلي لبقرتين، هن ثروتهنّ المكنوزة.

بلغ التلال المطلة على واحة (بقجة)^(٢) عند مدخل القرية، خارج السور، أبطاً حركة الحمار حتى توقّف تماماً، ليميّز مشهداً، لم يعد قادراً على تمييزه من بعيد والعرق ما زال ينزف نافذاً من بين جفنيه إلى جوف العينين بغزارة زادت من الغشاوة وصعوبة التمييز.

اقترّب إلى المكان بخطوات بطيئة، تبيّن له ستة رجال، ثلاثة منهم أجانِب تميّزهم ألوان عيون زرق وبشرة بيضاء واحمرار وجنات من هول الشمس، وملابس اقتصرت على بناطيل قماش خاكية اللون، وقمصان نصف كم من النوع نفسه، تغطي رؤوسهم خوذةً فلينية، جعلتهم أقرب إلى دورية عسكرية، ظنّها تركية تنفذ أوامر جمع المجنّدين الشباب من أهل القرية لزجهم بحرب في القوقاز كانت قائمة آنذاك، يصحبهم عراقيان بملابسهم العربية التقليدية؛ أحدهم مترجم من قرية كويرش، والآخر عرفه في ما بعد،

١. الشبيجة، وتلفظ محلياً (اشبيجة) مشتقة من كلمة الشبكة، وهي عبارة عن شبكة من حبال ليف النخيل تربط مع بعضها أو تحاك بفتحات تقارب العشرين سنتمتراً أو أقل أحياناً لكل فتحة، لتكوّن مع بعضها شبكة يصل طولها إلى ما يقارب المتر والنصف، مناسبة لنقل الحشائش والنباتات التي تقدّم غذاء للحيوانات، تنقل على الحمير وفي أحيان نادرة على الأبقار.

٢. بقجة، كلمة فارسية تعني الصرة التي توضع فيها حاجيات، وتعني بستاناً صغيراً.

إسماعيل جاسم من مركز مدينة الحلة. لما اقترب منهم أكثر واثقاً من عدم شموله بالتجنيد لصغر سنه، ظهر أنهم ليسوا أتراكاً، ووجودهم لا علاقة له بالإجراءات العسكرية، وتبيّن أيضاً أنهم يتفحصون تربة التلال وقحوف جرار متناثرة فوقها، يأخذون منها عينات، يضعونها في أكياس قماش عليها علامات خاصّة لم يفهمها. أشّر أحدهم كأنّه كبيرهم أو الرئيس، باتجاه نخيل وأشجار هذه الواحة، ومدّ نظره وإشاراته صوب القرية، وصار يتكلّم. وهو كذلك منهمك يتكلّم تقدّمت إحدى خيولهم الدهماء، مدّت رأسها بشراسة في (الشبجة)، وأخذت بين فكّيها القويين حزمة حشيش من بين الحبال، وهو ما زال راكباً أعلاها، وحماره الحساوي واقفٌ في المكان، هادئ لا يتحرّك، كأنّه استلطف هذه الشراسة من فرس ذات أصول عربية أو حَسِبَ الوقفة استراحة طريق.

رَبّت بيديه على رقبة حماره علامة القبول، والتقدير على موقفه الجمال لفرس جريئة. ترجّل من على ظهره بخفة فارس، وأخرج كماً من الحشائش يكفي لسد رمقها، تحسّس مقدمة رأسها، فصهلت بصوت عالٍ كأنّها ممتنة.

التفت إليه كبيرهم، كان رجلاً خمسينياً أشقر، طويل القامة. سأل عدة أسئلة بلغة لم يفهمها، ترجمها المترجم: من هو صاحب هذه الواحة؟، وكيف نشأت؟.

وقبل انتظار الجواب أكمل حديثه بطريقة تضعه امتداداً للسؤال الذي سألّه، من أنّ هذه الواحة جزءٌ من المدينة الأثرية وكذلك قسم كبير من القرية، مثبتٌ في خرائط الألمان والعثمانيين أنّها واقعة داخل سور بابل الأثري؟.

أجاب الجد: إنها عائدة إلى أبو عبد الغنام، ونشأتها، كانت في البداية مقلعاً لتراب يحول إلى طابوق مفخور لبناء بيوت القرية، ولما أصبحت الأرض بمستوى جريان مياه النهر تمت زراعتها نخيلاً وأشجاراً مثمرة.

بدأ ذلك الخمسيني الأشقر وكأنه أمتعض، تجهّم وجهه، وتمتم بكلمات تنم عن انفعال وغضب، أشعرت الجد لحظتها بالحرج وقليلًا من الخوف، لأن فكرته وباقي أبناء القرية عن الأجانب سلبية لا تخلو من الخشية والرغبة في التّجنّب، اكتسبوها عن احتكاك غير مباشر مع الأتراك، ولمدارة خوفه، أثناء توجيههم لرزم حاجياتهم والتحرك من المكان، سارع بمعاونتهم في وضع أكياس التراب التي أخذت عيّنة، على بغلتين مهيأتين لهذا الغرض، ثم وقف ماسكاً حبل حماره، بانتظار رحيلهم لإكمال مشوار طريقه إلى البيت. عند هذا أشرّ الرجل الخمسيني الغاضب ناحيته بإشارة من يده فهمها أن يتقدّم نحوه.

تقدّم متردّداً كمن يتقدّم صوب شرطي يتحقّق من سلوك ارتياب. ترجم المترجم قائلاً: إنّ المستر روبرت كولدفاي Robert Koldewey، رئيس البعثة الألمانية للتنقيب في بابل أعجب بنشاطه وسرعة ردود فعله، يسأل عن العمر، أجابه بلباقة وثقة عالية في النفس: يظنّه خمسة عشر عاماً، حسب قول لا ينسى لأبيه من أنّه ولد مع نشاف النهر.

.....

عاود سعيد الكلام مبتسماً، قال عن جده إنّ المستر روبرت لم يعر العمر اهتماماً، بل وزاد إعجاباً بجرأته، ونشاطه الجسماني، فسأله مباشرة

عن طريق المترجم، فيما إذا يعجبه أن يعمل في البعثة لقاء عشرة قروش في اليوم؟. أجابه، قبل استشارة والده، بالإيجاب وكأنّ بإجابته هذه قد وجد مبتغاه وحقق أحلامه كلها في عالم يتخيّل نهايته عند أطلال جنائن بابل المعلقة. عاد إلى البيت حكى الحكاية إلى والدته أولاً. أصرّت من جانبها على أخذ الاستخارة، فهي لا تقبل لعائلتها عملاً جديداً إلا بعد الاستخارة. قصدت قبل المغيب سيد وادي، صلى بحضورها ركعتين، ردّد أدعية لا تفهمها، ثم فتح من بعدها القرآن الكريم، نظر في آيات، قرأها، قال: اتكلي على الله.

مرّ على عمله في البعثة شهران، شرب صنعتهم، وتعلّم لغتهم، صار مُنقّباً بدرجة أسطة ومترجماً لهم في حال غياب المترجم الرسمي، فضعف روبرت أجره ليكون عشرين قرشاً. وعن روبرت رئيس البعثة قال: أصله مهندس معماري، استهوته بابل وحضارتها المدفونة لما زارها عام (١٨٨٧)، قرّر العمل في نبش ماضيها فصار أشهر علماء الآثار في العالم. نشطاً لم يهدأ في تنقله نهاراً بين موقع وآخر، ولا ينام قبل انتصاف الليل، اكتشف بوابة عشتار التي بناها الملك نبوخذ نصر ونقل مئات الآلاف من أحجارها الملونة إلى برلين بعد تفكيكها وفرزها وتعبئتها في صناديق، ثم أعاد بناءها في متحف هناك ليزيد من حسرة البابليين على مجدهم الضائع، كما أنّه حدّد مكان الزقورة والجنان المعلقة، تراه منشغلاً في مقر له بقرية كويرش تحت ضوء الفانوس، يقرأ كتاباً، يؤشر على خارطة وبعض رسومات موجودة على طاولته الخشبية، تسمعه بين الحين والآخر يتكلّم مع زملائه في البعثة عن بئر في معبد الإله، وعن نيته الوصول إلى حقيقة ارتباطه بممر

إلى الجنائن المعلقة، أو كونه مكاناً لاحتجاز الملكين هاروت وماروت حسب الأساطير الدينية المعروفة، يؤكد في نقاشاته شكّه في مسألة الاحتجاز أسفل هذه البئر لآلاف السنين، يريد إثبات شكوكه بالدليل القاطع، وبصدده قال: كان الوقت صباحاً والجو فيه رذاذ مطر خفيف، خرج الجدّ من القرية إلى بابل المدينة الأثرية عبر طريق المغتسل (المغسل^(١))، يمتطي حماره وإن شاخ وأصبحت حركته بطيئة لكنّه يبقى واسطة نقله في الذهاب والإياب، وجد روبرت وزملاؤه إلى جانب خيمة نصبوها قريباً من شارع الموكب الذي اكتشفه قبل أيام بكامل عُددِهِم، أوماً له من بعيد في أن يكون معهم. ترَجَّل من حماره، تركه طليقاً، وسار وسطهم وهم في الطريق إلى المعبد الذي أكد وجوده. بات طواله يتكلّم عن بئر وأنفاق وسحر وما يظنّه موجوداً في قاعٍ لم يصلها أحد بعد.

١. المغتسل، باللهجة الشعبية المغيسل، مكان على شكل غرفة لا تزيد طولاً عن الثلاثة أمتار، وسطها دكة من الطابوق، لغسل الموتى، يقع شمال القرية قريباً من حافة النهر، كانت تحتم عليه في ذاك الزمان شجرة سدر ضخمة، ولا يبعد كثيراً عن مقبرة الإمام عمران.



رئيس البعثة الألمانية روبرت كولدفاي



قديم قرية كويرش^١



مدينة بابل الأثرية عام ٢٠٢٠



أعمال التنقيب للبعثة الألمانية



بوابة عشتار المنقولة الى متحف برلين



شواطئ النهر في المنطقة بعد تجريف البساتين

^١ . قرية كويرش المجاورة لآثار بابل أزيلت وأقيم على أرضها تل شيد فوقه قصر للرئيس صدام.

بئر المعبد

جلس روبرت على حافة البئر الذي كان قد أزاح أغطية لفوهته من الصخور والتراب في الأمس، ومن حوله جلس طاقمه الخاص بالتنقيب. أشعل لفافة، ولفّ أخرى قدّمها للجد باحترام، أخذ منها نفسين على استعجال، تركها جانباً ليسمع الأوامر، فكان الأمر الأول:

- سننفذ اليوم خطوة جريئة للنزول إلى أسفل البئر، ومن بعد المشاهدة سيكون قرار الخطوة التالية.

- مطلوب نزول رجلين.

وقبل إتمام كلامه في تحديد الرجلين، قال عن نفسه واحد منهم.

أمر روبرت طاقمه بإحضار حبل من القنب وعدّة التنقيب مع فانوس، قال للجد شدّ الحبل في وسطك، انزل وقدماك على محيط البئر، مؤكداً أنّه سيتبعه مباشرة. أكد في حكاياته، أنّه نزل بطيئاً يتدلّى بحبل ممسوك في الأعلى من شخصين قويين، وفقاً بثبات قرب فوهة البئر، وقد خفق قلبه خوفاً أثناء النزول مثل طفل فقد نقطة ارتكاز وقوفه المتأرجح.

وبعد نحو ثلاثين ذراعاً من التبدلي لامست قدماه قاع البئر، جال بنظره في المكان مستعيناً بضوء الفانوس وسط ظلام أسود.

تأكد من استواء المكان وعدم غرابته، نادى بصوت مسموع يرجع البئر صده، أنّه وصل، عندها نزل روبرت يتبع خطواته حتى وطئت قدماه هو أيضاً هذه القاع. قال بقدر من المزاح:

عسانا نعر على دليل ندحض فيه الأساطير القائلة باحتجاز ملكين كانا يُعَلِّمان السحر.

مسك روبرت الفانوس بيده اليمين، دار دورة كاملة حول القاع، وقبل أن يشرع بخطوة أخرى، جلس على التراب المشبع بالرطوبة والعفن، أخرج من جعبته خريطة تبدو قديمة، قارنها بجدران البئر، تحسّس الطابوق بيده، أكد أنّه البئر المقصودة، ثمّ أشّر على طابوقة كانت ناتئة، تلمّسها مرة ثانية، وقال له مخاطباً بصيغة أمر:

- احفر بتآنٍ، ضع التراب الناتج عن الحفر في هذا الزنبيل المربوط بالحبل، وأعطِ إشارة السحب كلّما امتلأ عن آخره.

بدأ الجدّ تنقيبه تحت الطابوقة التي ظهرت ناتئة أسفل البئر، كان بطيئاً متأنياً كمن يزيل بقايا تراب من على فقّع يلامس منبته الأرض. وروبرت من جانبه أعطى إشارة سحب الحبل، مبيناً أنّه سيترك له المجال ليعمل بحرية، وأنّه من الضرورة الإخبار عن أي شك يراه.

ساعتان متواصلتان، في دقائقها الأخيرة ضربت فأسه حجراً، توقّف عنده، زاد من سرعته في إزالة التراب بيدين خشتين، بانّت الصخرة مرّعة، بطول يقترب من الخمسين سنتمتراً ومثله في العرض، عليها نقشٌ وكتابات. قرّب الفانوس منها، لم يفهم شيئاً ممّا مكتوب، لأنّه ليس خبيراً باللغة الأكاديمية، كرّر محاولة رفعها من مكانها، لم ينجح، ولما يئس، وخشي تجاوز صلاحياته فكّر في أن يطلب من روبرت ذلك، فهو القادر وحده على التدخّل في طريقة تحريك هذه الصخرة من مكانها. وقف على قدميه،

صَوَّبَ عينيه إلى أعلى وطلب منه النزول، فنزل مسرعاً وكأنّه في سباق مع الزمن.

قال روبرت: تنحّي جانباً. ثم جلس مقابل الصخرة، مسح عنها ما تبقى من التراب بفرشاة ناعمة، قرَّبَ الفانوس، قرأ المكتوب، لم يشأ إخباره عن معنى المكتوب، ولم يتعود السؤال عن أمر مكتوب أو غير مكتوب، واستمرّ بتلك الفرشاة وبأصابع يده التي يمسك بها سكيناً مدبّية بإزالة ما حول الصخرة من رواسب، كَوَّنَ بالنتيجة شقاً، كبر الشق، سأله أن يكون بالمواجهة كي يحركاها معاً، فاستجابت من جانبها بصعوبة، أزاوها جانباً، دَقَّقُوا في الفتحة التي كانت وراءها، بان تحويّفاتٌ يفضي إلى بئر أخرى، شكَّ روبرت أنّه مدفّنٌ أو سجنٌ لم يثبت في الخرائط التي أمتلكها، عاود النظر إلى خرائطه وأكمل توجيهاته:

- اربط الفانوس بحبل آخر، ثم أنزله إلى الهوّة لنرى ما بها وبأي عمق تكون.

استمر الفانوس نزولاً دون عقبات، وعند انتهاء الحبل طويلاً، أمرَ بسحبه لدراسة الأمر، طالباً حبلأً آخر، ومؤكدأً الاقتراب من نهاية اللغز، الذي يمكن الوصول اليه بعد عجزٍ دام عشرة أعوام قضاها في التنقيب قريباً من هذه البئر اللعينة، كما لم يستطع الغير من الوصول، عثمانيين كانوا أم إنجليز أو أمريكيان. اقترح التوقُّف عند هذا الحدّ في هذا اليوم، قال: لقد أخذ التعب منهم مأخذاً، وتجاوزوا استراحة الغداء.

قال الجد: لقد فتح الله لهم فتحاً هذا اليوم، ليستثمروه قبل أن ينغلق، عسى أن يعثروا على معلم لوجودهما أو دحض فكرة الوجود، سيشدّ الحبل بوتد ثبته في الزاوية، ويربطه إلى وسطه من جديد، وسينزل حتى أسفله.

مدّ يده إلى الوند، حاول تحريكه، تأكّد من ثباته، فوجده مستقراً بين الطابوق المرصوف لجدار البئر. أكّد روبرت بتوجيهات سريعة ضرورة مسك الحبل بيد ومسك الفانوس باليد الأخرى، وعدم نسيان السحب لمرتين متتاليتين عند التّيقّن من فقدان الاتصال بالصوت، أو العجز عن اتخاذ القرار، ومن جهته سيرسل في طلب إسماعيل وشخص آخر إلى هذا المكان ليكونا على أهبة الاستعداد لتقديم العون عند الطلب، وغادر إلى الأعلى معطياً المجال لنزول الرجلين.

نزل الجد عدّة أمتار لم يذكر طولها، لكنّها ليست قليلة، قال من مكانه: لقد انتهى الحبل وما زال في الطريق معلّقاً في هواء البئر المشبّع برائحة القبور، طلب ربطه بآخر مثله في الطول. وبعد أن نفّذوا ما أراد، استمر بالنزول، ما يقارب الخمسين ذراعاً. وصل أسفل الهوة مذهولاً وقد انفتح محيطها قبة مدوّرة تشبه مقام ملائكة عظام، تفقّد بفانوسه الناعس كل أركان المكان، طابوق مفخور يتراصّف على أرضية مستوية بانتظام، بقايا عظام وجماجم مبعثرة بغير انتظام، لا يشبه بعضها عظام إنسان، اعتراه خوفٌ شديدٌ ناشف، حتى لم يعد يجرّو على مسّها بفأس أخرجها من وسط حزامه، ظنّها عظام حيوانات استخدمها السحرة في طقوسهم، أو بقايا هياكل مخلوقات حاولت فضّ حرمة هذا المكان، وعندما زاد يباس الخوف في نفسه الخائرة، عدّل ظنّه وقال في نفسه: إنّها عظام أبقاها أولئك

السحرة التي يتداول قصص عنها أبناء القرية وعن مأمونة أشهر ساحرة فيها وأخريات مثلها، قيل إنها كانت تركب رحماً من جريد النخيل، تنثر شعرها، تضع نقاباً على الوجه، كي لا يعرفها أحد بالصدفة، تركض، تصهل كالخيل بين القبور في الظلام، تخيف عمداً من يمرّ على طريقها من الرجال لاعتقادهم أنّها من الجن أتباع هاروت وماروت المحجوزين في مكان ما من هذه القبة. ظنّ أنّها كانت في علاقة معهما.

.....

عاد من الدهول والتكلم مع الذات الخائفة، نصف عقله يدفعه لمناداة إسماعيل وصاحبه الواقفين في الأعلى، والنصف الثاني يتمنّع، تفادياً لإهانة الذات القروية، وأخيراً استمر في الحفاظ على وعيه مجهداً بين خوفين.

ترك العظام والجماجم ومسألة الحفر وجلس على القاع جاعلاً من سيقانه المغطاة بثوب رثّ ممدودة إلى الأمام، وجد صعوبة في استنشاق ما تبقى من هواء ثقيل عفن أسفل هذا المكان، عاد من بعد إلى حالة الوقوف، وضع أذنه اليسرى على طابوق الجدار، بادلها باليمنى وتبادر إلى سمعه أنينٌ لوقع أقدام على الطابوق المرصوف، ومن بعده مباشرة تحيّل صوت صرير سيوف تخرج من أعمادها. تحرّك الهوينى نصف واعٍ، حواسه أشبه بالغافية، تستثار فقط عندما تصطدم بخيال غريب.

غطّى وجهه بكلتا يديه وانتظر ما سيحدث، ولما لم يحدث شيء زحف على بطنه مثل أفعى الشواطئ، عندها سمع صوت قوّي تبدّد فيه رنين مغناطيسي في فضاء القبة. نظر إلى الطابوق من حوله، رأى هيئة رجل بلا

رأس يتسلّق البئر ويداه إلى أسفل ورجلاه إلى الأعلى يشبه العنكبوت. تحيّل ضوءاً كان قد بدّد العتمة، أدرك في الضوء رعباً أقسى من الظلام ومخلوقات بأشكال مختلفة، تبدلها مع دورة الضياء. تحيّل من بعده الموت وحيداً في جزيرة أشباح، وتحيّل تلك المخلوقات تزحف نحوه مقيّدة بسلاسل حديد، تنن. لم يعد يميّز بشكل واضح بين الخيال والحقيقة بعد أن اضطربت في نفسه قدرة الإدراك بسبب الخوف. أخذ فسحة هدوء لم تدم سوى ثوانٍ معدودات، تحوّل إثرها الشكّ بالأنين فجأة إلى شكّ بعويل، يشبه رغاء الإبل وسط عاصفة صحراء رملية، ترافقه أصوات تشبه تلك الناتجة عن فتح أغطية توابيت وغلقها. قطرات ماء ساخن تصوّرها تنزل من أعلى، تقع ثقيلة على فروة رأسه، أحسّ بضربتها كمطرقة حديد على سندان مرصوص. كاد يفقد وعيه، لكنّه لم يفقده، وبدلاً من أن يفقده شعر وقتها وكأنّ أحداً يريد إبقائه يقظاً على وهن ليزيد من رعبه.

اقترب من أن يبكي ليستعيد كامل وعيه، لكنّه لم يتمكن، فبقي في مكانه جامداً تتمزّق أحشاؤه من الداخل.

أتعبه الوقوف مشدوداً، فجلس على الأرض ثانية، سرت في جسمه الهشّ دفقة خوف غامضة أحسّ إثرها برأسه يتضخّم، ومدّ ساقيه المرهقتين إلى الأمام فزاد التشوش في عقله حدّ الاحساس باندفاع عشرات الأشباح القبيحة نحو جسمه العاطل، كأنّها تطوّقه من كل الجهات:

ترقص تارة، تضحك تارة، وتارة أخرى تنتظم في صفوف قتال حربية، تمتطي خيولاً سوداء لها أجنحة، زادت من حالة التشوش في عقله حتى لم

يعد يميّز حقيقة تلك الأصوات عن صوت أنفاس له بات يسمعها كفحيح حديد حام لحظة غمره في الماء.

حاول الصراخ من مكان جلوسه سعيّاً للمحافظة على ديمومة وعيه وتفادي الإيغال في حالة الهوس، وأملاً في أن يسمعه الرجلان في الأعلى؛ عساهما يتدخلان لإنقاذه من هذا الهلاك، لكنّ صوته المكتوم عاد إلى حنجرتِه راجعاً، ابتلعه مع جرعة هواء ثقيل حتى اختفى تماماً.

حاول جرّ الحبل مرتين حسب الاتفاق ليسحباه إلى الأعلى، أو يخرجاه من غيبوبة الموت الخشنة، لكن ذراعه لم تقوَ على السحب، كانت ذابلة لا طاقة تكفي لتحريكها، وكأنّها يد تسعيني، استجمع كل طاقته لينطق الشهادة. نخض موجوعاً، تقدّم خطوة واحدة، أحسنّ وكأنّه عملاق ثمل يسير بساقي ذبابة، وأحسنّ بصياح أشباح يتعالى بامتعاض، فيهتّر جسده مثل شخص ثقلَ عليه البرد وهو بملابس صيفية. كان جسمه رخواً يمزّقه الخوف، وضع يديه على جهة صدره اليسرى، سمع ضربات قلبه النابض كالنقر على صفحات طبل أجوف. انطفأ ضوء الفانوس الخافت أو تحيله انطفأ فتكوّنت في باحة القبة غمامة ظلام وهمية كظلمة قبر في أول ليلة دفن قبيل حضور الملكين منكر ونكير بقليل. وقبل ترديد الشهادة، صار يرى بقعة ضوء قد انزلقت من أعلى، بدأت تتحرّك على حافات المكان وعلى طابوق الجدران كأنّها تبحث عن شخص ما بإصرار عجيب.

الطابوق تواييت خشب سوداء، بقعة الضوء تتحوّل من مكانها لتنساب من خلال جماجم مبعثرة أضحت كؤوساً لشرب الماء أو أشياء أخرى لا يعرفها، تحيّل لحظتها أن من يدخل هذه البئر تتحوّل مجتمه

كأساً لشرب ماء مسحور، وبتخيله هذا تجمّد في مكانه كتمثال صبّ
فنان قدير في وجهه لعنة. جرّب ضرب الأرض بقدمه اليمين ليصحو، ولما
ضربها إنساب النور وهاجاً من باقي العظام المتناثرة، وتطايّر العرق من
مسامات جلده مصحوباً بالخوف وبعض نحيب مكتوم. أيقن ساعتها أنّها
النهاية، صدق إحساسه الواهم قال لنفسه، نعم من يدخل هذه القبة
المسحورة يتحوّل إلى جمجمة وكأس شراب.

لكنّه لم يفقد وعيه تماماً، حاول النهوض وقطع هذه القيود غير المرئية
أكثر من مرة، ومع كلّ مرّة تمتلئ الجماجم المتناثرة ماءً يفيض من حوله،
فيزيد من قلقه ومن تصلّب جسده وكأنّه دُسّ بين أكوام من الثلج، وقبل
أن يهدأ جسده، المنفصل عن عقله نصف الواعي، تحيّل أحد الملكين
عملاقاً، والصراط المستقيم أضيق من خرم إبرة، قال، إنّّه يوم الحساب وإنّ
اجتياز الصراط المستقيم سبيل إلى الجنة لكن بوضعية الخدر هذه يبدو أمراً
مستحيلاً، فزاد في داخله اليأس واعتزته رجفة موت، وتفجّرت من
مسامات وجهه العابس حبات عرق بارد مصحوبة بنوبات بكاء خرساء.

مع كلّ هذا الذي أحسّه سمعاً وبصراً، سعى لإعادة التركيز على الوضع
من حوله، معتقداً القدرة على تحطيم الجدار الذي ظلّ أنّه قد شيده
الملك من حوله ليبقياه معهم إلى الأبد، متأملاً النجاح باجتياز الصراط
المستقيم جسراً إلى الضفة الأخرى ولضمان الخلاص من هذا العذاب،
لكنّه مع كلّ محاولة فشل، يتراجع، ينتهي إلى العدم وإلى الشعور بأنّ البئر
حزمة نيران وفوضى وهياج تتحكّم بها روح شريرة تبحث عن سبب يحول
دون عبوره الصراط المستقيم.

استجمع قواه الخائرة لمخاطبة الضوء، وتلك المسوخ التي تتحرّك، وجد في المحيط طاقة أقوى منه حالت دون إتمام المخاطبة، وجعلت الهوة موقداً من النيران، ملعباً يغطيه الهياج، وتعمّه الفوضى.

فكّر في الاستسلام، قائلاً لنفسه، لتكن النهاية هكذا مسخاً، وحال نطقها بلغة سليمة عاد الضوء ينزل على الطابوق والقاع والجماجم المليئة بالماء، وعاد اليأس من استحالة العبور، والرغبة في مسك يد أحد ما، ولما لم يجد في هذه الهوة يد أحد يمسكها، زاد الخوف في داخله من مستوى فقدان الوعي هذه المرة.

فاق من إغماءته، مُدّداً على حافة البئر، وقطرات ماء ترشّ على وجهه له بات ساجماً في بحيرة عرق بارد وروبرت جالس عند رأسه يحركه بتواصل كي يستفيق.

سأل عن كيفية خروجه من هذا القبر قبل اكتمال الحساب، قصّ روبرت حكاية القلق الذي انتابهم عند سحبهم الحبل ومجيئه خالياً، وكيف ربط وسطه في نهاية الحبل ونزل إلى أسفله على الفور، والدم يغلي في عروقه، واصفاً شعوره بالخوف، كمن شاهد مخلوقات غريبة، خيالات عابرة. لكنّه ولما وصل قعر القبة لم يلتفت إلى ما في القاع من جماجم وعظام، شدّ الجسم المغشي عليه من وسطه وشدّ نفسه من بعده ثم سحب الحبل سحبتين، بدأ عندها الرجال بجرحهم إلى أعلى.

قال الجد:

لقد تنبّه إلى من حوله مذهباً، وشاهد الفضاء القائم في دائرة البئر،
ووجوه المتجمهرين، عندها أيقن أنّ يوم الحساب قد تأجل وأنّ عمراً
جديداً قد كتب له.

طلب العودة إلى البيت، وحرّم الاقتراب من هذه البئر اللعينة.

لم يتحدّث عن الموضوع وكلما تحدّث أحسّ بالدم يجري في عروقه بارداً،
أعطاه روبرت إجازة لستة شهور مدفوعة الأجر مقدماً، وطلب منه عدم
التحدّث عن الموضوع ولا التطرّق إلى مسألة القبة ومشاهداته أو خيالاته
لما جرى في داخلها، علّه يوثقها ليستنتج منها شيئاً أو يحصل من موقعها
خيلاً يوصله بالحقيقة التي يفتش عنها بطريقته الخاصة.



تخيّل ساحرة تطير على مقشّة^١



التنقيب قبل ١٩٠٠



فخري مهدي عيال الربيعي



بعثة آثارية قديمة



حجر منقوش عليه باللغة الأكادية



بئر يشاع وجود هاروت وماروت داخله

^١. يشاع بالقرية في الأربعينات والخمسينات أن أحد نساها أسميت كناية (ساحورة) تخرج ليلاً لأغراض السحر وتطير راكبة على سعة أو مقشّة، لكن لم يشاهدها أحد.

واقعة (دغة) عاكف

بين وصلة غناء وأخرى يكثر الحديث. سرعان ما تنشغل النسوة بكلام عن الفن والموضة وذكريات العيد، وينشغل الرجال الأربعة بالماضي وحال السياسة، وعالم القرية ومدينة الحلة التي أعاد سعيد فتح أبوابها ثانية بالقول، حتى أحلامي العابرة في الفترة الأخيرة صارت تدور حول القرية وبعض شخوصها وأحداث مرت، وآخر حلم كان بالأمس، كان حلماً مكتمل الصورة وغريباً بعض الشيء. انتبه الثلاثة الآخرون إلى ما نوه اليه سعيد. ورد فؤاد بالقول: خيراً إن شاء الله، وما هو الحلم الذي اكتمل في الوقت الذي لا تكتمل فيه صور غالبية الأحلام؟.

أجاب بثقة عالية: رأيت العمّة كظيمة بكامل وقارها جالسة في الزاوية الشمالية لبيت العائلة في القرية، تلك الزاوية التي اعتادت الجلوس على ناصيتها، محتلية بذاتها، منذ النهوض المبكر لصلاة الفجر حتى الاستسلام إلى النوم بعد صلاة العشاء، لكن ملابسها هذه المرة لم تكن سوداء كما في دنياها وتغطيها من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين، بانت بيضاء مطرّزة بأشرطة فضية ذات وهج لماع. عيناها سوداوان واسعتان يختلط فيهما الحياء بالأمل، غير العينين التي عُرفت بتوقفهما عن الإبصار نتيجة رمد أصابهما بعمر الصبا، نادى بالاسم من بعيد حال ظهوري في الطرف القريب من باحة البيت، وتكلّمت بصوت قوي ذي نبرة عادية، كمن يحاول فتح أبواب الحديث، وابتسمت على غير عادتها، شكّلها تغيّر قليلاً عن ذاك الشكل الذي عُرفت به، صارماً طوال وجودها بوصفها كبيرة العائلة ومرجع

سلطتها الاقتصادية والنفسية، لعدة أجيال بينها جيلنا الذي بدأ مشواره في أربعينيات القرن العشرين. تجلس القرفصاء على حصيرٍ من سعف النخيل، فوقه بساط من صوف بألوان زاهية. وفي ترحاب تهدج به صوتها، سكنت من بعده وكأنّ الأسرار الكامنة لثمانين عاماً من عمرها علقت في قاع فمها، ثم عاودت الكلام وأمرت بالجلوس إلى جانبها.

تقدّمت خطوات، قبل الجلوس، وشممت رائحة كانت تميّز ذاك البيت وهي قريبة من رائحة خبز، رغيفه خليطٌ من الشعير والحنطة، أحسّت لحظتها بقدر من الراحة وشدّ قوي إلى المكان.

أخرجت من تحت عباؤها البيضاء صندوقاً صغيراً، من خشب الزان مدعمة زواياه بدعامات معدنية، قالت: هذه (صندوقجة)^(١)، الوالد ورثها عن أبيه، وورثتها عنه، ثم وضعتها جانباً. نزعَتْ من على رقبتها خيطاً، أخضر اللون، فيه مفتاح فضّي لم يطله الصدأ. فتحت به قفلاً بترٍ شديد، ومن بعد هذا أعادت المفتاح والخيط إلى مكانه حول الرقبة، تأكّدت من وجوده بإمعان، ثم تحوّلت إلى الصندوق أخرجت من داخله طاساً، فضّي اللون، منقوشاً عليه آيات من القرآن الكريم، في داخله أختام، مع ورقتين مكتوبتين بخط اليد. سألت:

- ما هو المكتوب في هاتين الورقتين؟.

أجابت والابتسامة تعلو شفيتها، إنهما وصيتان للملا إسماعيل وأخيه إبراهيم، غريبان عن القرية جاؤوا إليها من خارجها، تبرعا بفتح كتابين

١. الصندوقجة، كلمة غير عربية، فارسية على الأغلب، تعني الصندوق الخشبي الصغير نسبياً توضع فيه حاجيات النسوة الكبار خاصة، ومجوهراتهن والأشياء الثمينة والأوراق المهمة، وتغلق بقفل.

لتعليم صبيتها القراءة والكتابة، اختفيا معاً بعد هجوم القائد التركي عاكف على مدينة الحلة، وبقيت وصيتاهما محفوظتين لديها، لم تجد لهما وريثاً بعد اختفائهما بسنين كي تسلمهما فباتا عبئاً عليها.

سألت: وما قصتهما؟. أجابت: أن إسماعيل قد أكمل حصته التعليمية في كتاتيب الجامع عصر يوم من أيام شهر آب سنة ١٩١٦، مشى بعدها في شارع القرية ينادي بصوت مميز في نبرته حماس، قال: لقد أعطى القائد عاكف أهل مدينتنا الحلة مهلة قوامها أربع وعشرون ساعة، كي يسلموا الهاربين وغير الملتحقين بالخدمة العسكرية، أو يستريح المدينة.

طاف إسماعيل من بعد ذلك يرافقه إبراهيم على بيوت القرية بيتاً، بيتاً، شرح تبعات طلب القائد عاكف وضرورة عدم الاستجابة له، وفي المساء ذهبوا إلى المدينة والتحقوا بقوات شكّلها أهل الحلة، لكلّ محلة سكنية قوّة يرأسها وجيه من وجهاء المحلة له إلمام بالشأن القتالي، شجاع. تحشّدت معظم التشكيلات في منطقة تل الرماد (الجل) بمواجهة الموقع الذي فتحت فيه القوات التركية موقراً لها، استعداداً لمعركة كسب جولتها الحليون في اليوم الأول.

.....

عاد إسماعيل وأخوه إبراهيم في اليوم الخامس يحكيان مشاركتهما في قتال بدأ من باب المشهد وانتهى عند القشلة (مقر الشرطة)، قالوا عنه: تقابلنا مع جنود أترك وجهاً لوجه، شاهدنا فرار مئات منهم صوب معسكرهم في سدة الهندية وشاهدنا أيضاً مقتل مئات آخرين، واربناهم الثرى جوار السور، ودفناهم على الشريعة الاسلامية. غير أنّ إسماعيل أدار الحديث

عائياً على عمليات فرهود حصلت، قال: لما فُتِحَتْ باب النجف القائمة على السور، دخل منها مئات من أفراد العشائر التي تقيم حول المدينة، يمتطي بعضهم خيولاً وآخرين يركبون حميراً والغالب مشياً، مسلحين بأسلحة مختلفة تتدرج من البندقية نزولاً إلى السيف فالحدرة والمكوار إلى العصي والسكاكين، وحال دخولهم انفرط عقدهم وفقدت سيطرة الشيوخ على سلوكهم، تفرّقوا أفراداً وجماعات بين الشوارع والأزقة، كأهمّ في غزوة جاهلية، كان الواحد منهم يقصد جندياً تركياً ينزعه بدلته، يسلبه نقوده وملابسه الداخلية، يخلع خاتمه، وإذا ما تأخر خلعه، يقطع الإصبع قريباً من مستقر الخاتم بخنجر بتار، وإذا وصل اثنان من عشيرتين مختلفتين إلى جثة، يجلسان متناحرين على موروثها بانتظار الثالث من إحدى العشيرتين لتكوين غلبة، وإذا كانا من فخذين مختلفين ينتظران الثالث من فخذ لأحدهما لنفس السبب، وهكذا امتد التصارع والاتفاق إلى مستوى العائلة وأبناء العمومة سبيلاً لترجيح فرض الأغلبية والقوة في عملية النهب.

كانت للبندقية التركية وعتادها أولوية في النهب، وأكثرها إثارة للتنازع بين النّهابة، وكان هو والسيد محمد القزويني وآخرون حاولوا منع هكذا عمليات وإلزام أبناء العشائر بالتوقف عنها وحثهم على جمع البنادق للاستفادة منها في المعركة التي لم تنته مع الأتراك بعد، لكنهم فشلوا تماماً.

لقد كان إسماعيل بعد عودته ممتلئاً بالخيبة لما حصل من أعمال نهب، كذلك بنشوة نصر مما تحقّق من هزيمة للأتراك طالما عدّهم محتلين، وتكلّم لتلامذته عن فظاعاتهم. جال على مضائف القرية والمقهى ووصف شجاعة أهل القرية، وكيف قاد خمسين رجلاً في الهجوم على نقطة الأتراك الغربية،

والانتقال بعد سقوطها مهاجمين نقطة ظلت صامدة عند باب النجف، قال إنهم باغتها بهجوم خاطف أسفر عن سقوطها ومقتل جميع أفرادها، ومن بعدها إنهار الأتراك وانسحبوا هزيمة إلى سدة الهندية.

.....

بث أنصت إليها في الحلم، وهي تتكلم على هذين الرجلين أصحاب الوصيتين، قال سعيد، فأشارت إلى أنهما قد عادا من المعركة بنشاط قوي، يقولان لا بد من نشأة جيل جديد يعقب العثمانيين في حكمهم البلاد، إنهم راحلون حتماً. فتحا صفوفاً أخرى لكتائب أخرى، صارا يتواصلان مع كبار رجالات مدينة الحلة مثل السيد القزويني، ينتقدون في مجالسهم الخاصة سلوك قائممقام مصطفى بيك الذي نسبته والي بغداد إلى الحلة، واستمرا هكذا منتقدين محرّضين طوال الوقت. ولما أخرج الحليون القائم مقام من بيته مكسوراً وطرده إلى بغداد بعد ثلاثة أشهر من تلك المعركة، نوه إسماعيل بأن الأتراك سوف لن يسكتوا عن هذه الإهانة، عندها ترك إسماعيل وأخوه القرية، وذهبا إلى مركز المدينة، يساعدان للتحضير إلى يوم تيقنوا سيكون حاسماً. صادف وصولهم إليها في اليوم الذي وصل فيه القائد التركي عاكف وقوات له عسكرت في أحد البساتين عند أسوار المدينة، داعياً إلى مفاوضات صلح واستعداد للاعتذار من أهلها. حضر إسماعيل جانباً من تلك المفاوضات مع بعض الوجهاء حول الاعتذار المزعوم، والرجاء بالسماح بمرور قواته على الطريق المار من داخلها إلى مدينة السماوة لدعم قوات تركية تقاتل هناك. انحاز إسماعيل إلى فريق الحاج علي الشيخ حسن ومحمد سعيد، الناصحين بعدم الموافقة، المخذرين من

احتمالات أن يكون الأمر برمته خدعة، في مقابل فريق آخر لرفعة الجادرجي وعبد السلام الحافظ ارتأوا الوثوق بوعده أعطاه القائد مقترناً بالشرف، ومع أنّ الكثيرين كانوا إلى جانب الفريق الأول لكن رأي الفريق الثاني هو الذي تغلب أخيراً.

كان الوقت ليلاً لحظة حصول الاتفاق على مرور القوات التركية، نام الناس مطمئنين لوعده قطعه القائد التركي، لكنّه لم يفِ بوعده، احتجز الوجهاء رهائن. انتظر حتى انتصاف الليل وأدخل فوج مشاة مدعوماً بخيالة إلى داخل المدينة، احتل الأبنية الحكومية ومراكز الشرطة، والجوامع، وضرب طوقاً على جميع بوابات السور. أرسل سرية مشاة وأخرى خيالة إلى الصوب الصغير، عبروا جسراً محمولاً على قوارب، هو الوحيد في المدينة، شقوا طريقهم في الصوب الصغير بهدوء وحذر، وتخذلوا في بساتين الوردية.

انتظر عاكف كتيبة أخرى وصلته بعد ساعة، أخذت استراحة في البستان ذاته الذي أقام فيه مقره، صار الوقت فجراً ورفع المؤذن صوته عالياً لصلاة الفجر، من على منبذة الجامع الكبير، وبتوقيت واحد عند انتهاء الأذان هاجم رتلان المدينة من كلا الصوبين، تغلغلوا في أزقتها يصحبهم مخاتير المحال، مسكوا الأماكن الحاكمة فيها، حنثوا بالوعد الذي أعطوه مروراً عابراً إلى السماوة. نادى منادٍ من طرفهم قبل الظهر في أن يتجمع الرجال عند السراي. تجمع ألفا رجل، انقض عليهم الجنود انتقاماً، أمضوا برقابهم قطعاً في واقعة سميت شعيباً (دكة عاكف). كان الملا إسماعيل قد فُقد في هذه الواقعة. ظلّ أهل القرية أنّه من بين الوجهاء الذين احتجزوا وقطعت رقابهم، لكنّ أحداً لم يشاهد مقتله، ولم يعثر أحد على جثته أو

رأسه مفصولاً عن الجسد، وكان أخوه إبراهيم قد اختفى من ذاك اليوم أيضاً، لم يُعرف له مكانٌ. تشير بعض الروايات إلى أنّه من بين الألفين الذين قطعت رؤوسهم. وتشير أخرى، إلى أنّه لم يلبِ نداء التجمع عند القشلة، واستطاع من بعدها الهرب متخفياً إلى مدينة السماوة ومنها توجه إلى الحجاز مع قوافل البدو ليستقر هناك. وتشير ثالثة إلى أنّه قد أخبر أحد طلابه من أهل القرية بنيته الذهاب إلى مصر دون رجعة.

وفي نهاية المطاف لم يستطع أحد إثبات الحقيقة التي بقيت مجرد تكهنات تتقاذفها الألسن مثلها مثل كثير من الأمور التي تحدث في مجتمع المدينة والقرية وتكثر من حولها الأقاويل، لنتهي دون أن يثبت أحدٌ صحتها أو يدحض الصحة. روت العمّة واقعة عاكف، كأثما عاشت تفاصيلها، أفرغت ما يجعبتها، ثم عاودت الحديث عن الأختام، مؤكدة أنّ الرجل من ذاك الزمان كان في حاجة الى التعريف عن شخصيته، وإلى إكمال معاملات تخصّه في الزواج والتجنيد والتّمكك، فصار لبعض رجال القرية ختمٌ باسمه، ولأنّ القرية آنذاك لم تكن آمنة من السطو أو حتى الغزو، ولأنّ الأمية سائدة بين الأبناء، فكان الواحد من الرجال يخاف على ختمه، يخشى استخدامه من الغير، فأصبح البعض يأتون اليها كي تحفظها لهم في صندوقها، يقيونها أمانة، وكذلك سندات البساتين، وأحياناً بعض النقود لقليل من الأشخاص.



القوات التركية التي استهدفت الحلة عام ١٩١٦



عمر باي والي بغداد ١٩١٦



منطقة الجبل وسط الحلة حديثاً^١



كتاتيب الملا



الصندوقية



اللكن

^١. صورة حديثة لمنطقة الجبل وسط الحلة التي تحشدت فيها القوات المتقابلة ودارت فيها معارك مع القوات التركية عام ١٩٦١.

بغلة الانجليز

أنهت سيدة المقام وصلتها الغنائية الثانية بتألق كما بدأت، همتْ مُلَوَّحَةً بتحية الجمهور وتقديم الشكر لحضوره. أنعشها التصفيق فعاودت الغناء، سلطنة طرب حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ثم لَوَّحت مرة أخرى لتنتهي الحفل مبتسمة سيدة مقام بحق. نهض عاصم وفؤاد وزوجاتهم من أماكنهم، مصحوبين بنشوة عيد. قال فؤاد:

لنذهب إذن، كانت سهرة عراقية مميزة بحق، علينا الآن أخذ سيارة أجرة توصلنا إلى البيت، أشعر أن الوقت متأخر على ركوب الباص. تدخلت يسرى بالقول: لنتجه وإياكم مع السيد عاصم وحرمة إلى سيارتنا المركونة في الشارع الموازي لشارع الفندق حيث لم أجد مكاناً مسموحاً سواه، سنوصلكم إلى بيوتكم لنسمع بقايا حكايات أشعر وكأنّها رويت منقوصة عن وقع الحياة في قرية وعن بعض أحداث مدينة الحلة والعراق. ردّ عاصم مؤيداً بشدة، قال عن نفسه قد وجد ضالته، فالأحاديث التي وردت عن القرية وامتداداتها إلى المدينة والعراق، وقرّ له جهد الذهاب إلى هناك والبقاء أسابيع وربما أشهر كي ينجز تحقيقاً مهنيّاً كما هو مطلوب، والمصاحبة المقترحة في طريق العودة فرصة لإكمال الصورة، ومثل هذه الصدف لا تعوض. التفت فؤاد، صوب يسرى صاحبة الدعوة، قال: أخشى أن يكون الوقت قد تأخر، ويتسببوا في إحداث تعب لا مبرر له، والمواصلات في لندن سالكة إلى الصباح.

ابتسمت يسرى ابتسامة رضا، قالت: تعبكم راحة، تفضلوا الآن.

ردّ الابتسامة بواحدة مثلها، وأشار إلى أن تسير هي أولاً سيدة نشطة، ومن بعدها الشيوخ يتبعون، فالقدرات حسب رأيه باتت تتناقص كل يوم.

قالت وهي تفتح باب السيارة جالسة خلف المقود: إن فكرة الرفقة هذه وبالإضافة إلى أنّها ستديم تحسّن المزاج بعد هذه السهرة الجميلة، فإنّها ستخفف أيضاً من ألم فقدان العائلي الذي أحسسته في أعياد توالى هنا في لندن، كأنّها خالية من معنى العيد، حيث لا أطفال يمرحون، ولا أولاد يهنئون، ولا جيران يتبادلون صحون الكليجة. ولما تأكّدت من صعودهم جميعاً إلى السيارة، قالت وكلتا يديها ثابتة على مقودها المغطّى بغلاف جلدي: الكلام عن بابل وقرية الجمجمة التي عاشت هي البغدادية أعياداً حلوة بين جدران بيوتها التراثية القديمة ممتع، والجو في هذا الليل المطر جميل، ستتجول في شوارع لندن المضاءة بطريقة تقرّبها من النهار، ستذهب إلى نهر التايمز (اللندي)، ومن هناك تتجه إلى البيوت تسلسلاً من الأبعد إلى الأقرب، جولة يكتمل خلالها المشوار الذي بدأ في القاعة وعلى نفس المنوال.

أيّد سعيد الفكرة قال: اتفق معك، إذ إنّ وقائع القرية وأحداثها لم تفارقي ولم أفارقها إذ وبعد خروجي من القرية مهاجراً إلى هذه البلاد بعد ثورات تكرّرت، وثوريون يشعلون النار في هشيم البلاد، بقيت وكأنّها محفورة في أحاديذ الذاكرة لا تطاها عوامل النسيان، احتفظت بها تاريخاً غير مكتوب للقرية وشواهد من ذاك اليوم إلى هذا اليوم، كأنّي أعيش هناك وفي بيت العائلة ذاته أتمّي من يسمعها قبل أن تُطمّر في تلك الأحاديذ.

درجت يسرى كعادتها في السياقة هادئة، ملتزمة بقوانين المرور، وجّهتها نهر التايمز، وكأنّها تريد الربط بين هذا النهر ونهر الحلة أيام شبابه. أشارت إلى سعيد أن يدير عتلة الكرسي قليلاً إلى الراء، ليمتّع بليل ممطر جميل، ويدع الخزين يخرج من مكانه، لينطلق في هذا الليل الجميل.

.....

أدار سعيد العتلة المقصودة، أرجع الكرسي قليلاً إلى الراء، أخذَ وضعية نصف النائم، وعاود الحديث عن جده، قال: بعد حكاية الجد عن بئر المعبد الذي حسبه مسحوراً، تصرّف معه الانجليز بطريقة شكّ غريبة، اتّهموه بكونه طرفاً مشاركاً في التجاسر على معسكرهم، لما يتعلق بسرقة بغلة تعمد عبد الأمير سرقته تحدياً لهم، إبان بوارد ظهور ثورة عام (١٩٢٠)، وقصة هذه البغلة بدأت ليل الأول من شهر شباط عام ١٩٢٠، حلّ فيه على القرية ثلاثة رجال ضيوفاً من عشائر مدينة الديوانية، تنقلوا بين مضائف وجهائها يحثّون على الثورة، وفي آخر جلسة لهم كان بضع شباب بينهم سبهان وعبد الأمير موجودين، وشباب بدأ شعر لحاهم ينبت أخيراً، نوه سبهان عن نفسه، سيحط من قدر الانجليز وسيمرّغ وجوهم في الوحل. ونوّه عبد الأمير بأنّه سيكسر مهابتهم. سأل الرجل الأكبر عمراً من بين الثلاثة: كيف؟.

لم يفصحوا، وقد اكتفوا بالقول معاً: هذا شأنهم وسيسمع الجميع ما سيحصل قريباً. كان سبهان شاباً يمتلك ذكاءً فطرياً معروفاً، وكان خفيفاً في حركته وتحركه، حتى يقارنه أبناء جيله بعبد الأمير ويفضلونه في بعض الأحيان لما يتعلق بخفة اليد والحركة. في اليوم الذي تلي مغادرة دعاة الثورة

الثلاثة القرية، قصد سبهان محطة قطار الحلة التي يديرها ضابط إنجليزي، اقترب من صديق رافقه في الطريق إليها، قال: هذا اليوم سأكسر عين الإنجليز. لا تسأل كيف ولا تتدخل. كان الضابط واقفاً ومن حوله جنود، وعمال يهيئون الرصيف وينتظرون تجريب مرور القطار على السكة، اقترب منه سبهان، تعثر في مشيته عمداً، مال خلالها بجسمه النحيل حتى لامس جسم الضابط، وأثناء ملازمة لم تدم ثواني معدودات، فتح زر الجيب العلوي لبدلة الضابط العسكرية بإصبعين، وبإصبعين آخرين استل محفظته، وبعض أوراق شخصية بينها هويته العسكرية، وبحركة خفيفة أخرى مثلها أخرج محتويات المحفظة من العملة الورقية وسلمها إلى صديقه الذي كان ماشياً خلفه، معقباً ببعض خطوات.

قال بصوت لم يسمعه غيره من القريين: اترك المحطة وعد إلى القرية. وقف أمام الضابط ملوحاً بالمحفظة الجلدية الحمراء، وهو يضحك. تفاجأ الضابط، انفعل غاضباً، قال لجنوده: امسكوه.

لم يبد مقاومة، وهم بمسكونه، استمر بالضحك مستهزئاً أمام جمع غفير أخذت أعداده في التزايد، وأخذ اللغط والكلام بينهم يكثر.

أسقطوه أرضاً، كتفوا يديه، أخذوا المحفظة، فتحوها فلم يجدوا ما كان في داخلها من العملات الورقية والهوية العسكرية. قال الضابط مخاطباً باقحام واضح والمترجم يترجم: لقد سرقت ضابطاً إنجليزياً.

ردّ سبهان وكأته يكلم الجمهور عبر المترجم: إنّه لم يسرق، وإنّ الضابط لم يستطع المحافظة على أشياءه. قال الضابط في مسعى لمداراة الحرج:

ارسلوه إلى الشرطة، وسيحضر هو للمتابعة. وجّه حاكم التحقيق إلى سبهان، تهمة السرقة. سأله:

- لماذا سرت الضابط الانجليزي؟.

أجاب: إنّه لم يسرق، وطلب منه سؤال الضابط عن محتويات محفظته، فذكرها نقوداً ورقية، وهوية، وبعض المستمسكات.

أجاب بثقة عالية: لكنّهم وحال انتزاع المحفظة التي وجدها على الأرض من يده، دققوا في محتوياتها، وفَتَّشوه من بعدها فلم يكن فيها سوى أربع قطع عملات معدنية، وهذا دليل على الاتهام الباطل. عاد الحاكم ليسأله ثانية:

- وماذا تظنّ؟.

أجاب: أظنّ أن الضابط أضاع هويته العسكرية في مكان ما وحاول برميهِ المحفظة التي وجدتها قريبة منه مداراة الموقف بافتعال موضوع السرقة وتوجيه الاتهام الباطل.

طلب الحاكم شهود إثبات، فلم يجد أحداً يثبت فعل السرقة، فأطلق سراحه. عاد هو إلى القرية متفاخراً بفعلته، وعاد الضابط إلى المحطة يلحق جراحه وشاع في الحلة وقتها أن شاباً جمعهاوياً كسر عين الضابط الإنجليزي.

.....

في مساء اليوم الذي سخر فيه سبهان من الضابط الإنجليزي، وقبل انتصاف الليل بمقدار ساعة، قصد عبد الأمير معسكر البريطانيين القريب من مدينة بابل الأثرية، كمنّ في حفرة بين جدارين أثريين، حتى أطفأ الجنود

أنوار فوانيسهم وخلدوا إلى الراحة، قفز من الحفرة كأثَّه شبح في سرعة تحركه وجراته، دخل المعسكر من جهة الجنوب، صادفته حظيرة بغال، لم تكن حراستها مشدّدة، فكّ رباط جميعها، وفتح باب الحظيرة المواجهة لشكنات الجنود، اقتاد إحداها شهباء اللون وامتطاها وسار بها خبيلاً باتجاه الشمال، لمسافة قطعها بوقت دام ربع ساعة، عاد من بعده شرقاً حتى بلوغه الشارع الترابي بغداد حلة، أخذه عائداً إلى بيته وسط القرية الجمجمة.

شاع صباح اليوم التالي، خبر اقتحام عبد الأمير معسكر البريطانيين، حطّ من قدرهم، سرق عنوة بغلة من بغالهم. حضر كبار القرية ووجهاءها إلى المضيف بينهم حايط للتأكد من صحة الخبر، وربما لمناقشة تبعاته.

حاول حايط التخمين وهو مستقل على مداد مضيف الحاج عباس عبد الحسين والتنبؤ بما يمكن أن يحصل. خاطب عبد الأمير مباشرة بالقول: إن ما فعلته وإن كان شجاعة لا يمتلكها أحد غيرك، عمل فأله سيئ، أعدها إلى المكان، أو اتركها قريباً منه ليحسبوها تاهت في ظلام الليل، أرى في قادم الأيام سحابة سوداء تظلل سماء القرية، وأرى صقوراً تحوم في السماء، نذير شؤم لا يحتاج تأكيده إلى دليل.

لكن عبد الأمير الشاب لم يمتثل إلى التحذير البين في قول حايط، ولا إلى نصيحته الواضحة، كان شخصاً عنيداً يتحرّك في الليل والنهار مثل فحول الجان، يتسلّل إلى المكان، ينسحب من أي مكان يدخله مثل الريح، وبسبب عناده هذا تركه غالبية الرجال وفي مقدمتهم حايط، يهذي بكلام فهم منه: (استعدوا أولاد عمران، سيسقط على رؤوس الأشهاد،

دان^(١) من السماء، تسيل دماء من شقوق في الرؤوس بأمر من السماء، حديد يطير في الأجواء ترونه أول مرة، وحديد ينفث ناراً أول مرة، وموتى لا يدفنون في وادي السلام، لقد دخل الابن وكر الشيطان، اقترب منه حداً أيقظ فيه الشيطان).

قال سبهان: لكنّه مرَّغ أنوف الانجليز في الأرض، وهكذا عملٌ مع غيره سيثير التعاطف وسيزيد من أوار الثورة.

لا اتفق قال حايط، هذه أساليب تثير ردود فعل غاضبة، ستعكس سلباً علينا أهل القرية، أكرّر القول إنّ فألها سيّئ، وإن السلامة تقتضي إعادتها فوراً. أشّر عاصم بيده، كأنّه يريد الاستفسار من أمر ما، أو التعليق على الموضوع، وأخيراً قال: الغريب في الأمر إصرار هذا الشاب اليافع على تحدي معسكر دولة عظمى، تمتلك قوة لا تضاهي، وبعد إكمال تعليقه سأل:

- ما هو السر في الأمر؟.

أجاب سعيد: لقد أثار اهتمامي موضوع البغلة هذه في حكايات الجد، الذي كان جالساً في المضيف، وتكلّم عنها وأعاد الكلام حولها مراراً، تبين لي أن لا سرّ في الأمر كله، أعتقد أن عبد الأمير الشاب، المشبع بتقاليد تحبّد التحدي وتعلي شأن العمل الفردي، كان شجاعاً وعنيداً

حتى أنه ويوم رفع جميع الجالسين في المضيف عقيرتهم احتجاجاً على سرقته البغلة لم يعر اهتماماً، وأنّ لسان حايط القادر على تحويل وقود النار

١. دان، والمفردة دانة أي قنبلة، وهي على الأغلب كلمة تركية وتعني القنبلة، وكانت دارجة باللهجة الشعبية العراقية.

إلى رماد لم يستطع ثنيه عن تنفيذ النية. وهو على هذا لم يحسب يقيناً وهو الشاب الأمي معايير الاختلاف في القوة بين الانجليز وأهل القرية، ولم يقدر التبعات وهو الذي يريد أن يكون رجل ليل تتفاخر به العشيرة والقرية فعمل بأسلوب (الحايف^(١)) الذي كان التفاخر بامتهانه موجوداً، بل وعالياً، ووجد في المعسكر البريطاني مجالاً لتحقيق رغبته هذه والايفاء بوعده قطعه لرجال يدعون إلى قيام الثورة كما أن طبيعته التي دفعته لهذا الفعل تحدياً، وتأكيداً للذات أمام نفسه وأمام أهل القرية، لا تسمح بالتراجع وتنفيذ مقترحات حايط في إعادة البغلة، والأعراف السائدة في القرية وعموم المنطقة لا تفسح المجال لرجل ليل أن يعيد دابة كان قد سرقها خوفاً من صاحبها أو خشية من الله. توقّف سعيد قليلاً ليعلق بالقول، كذلك فعل الثوار في تلك السنة الذين لم يزنوا قوتهم ويقارنوها بقوة البريطانيين، واعتمدوا على الشجاعة، فكانت النتيجة خسارة كبيرة.

المهم أنّ قصة البغلة هذه لم تنته، فالجد فقد وظيفته في الآثار شكاً بتزويد عبد الأمير بالمعلومات عن المعسكر، وهي غير صحيحة، وتطوّر الموقف لتكون له تبعات تسجّلت أحداثاً في سجل القرية، غيرت من معالم العيش في ربوعها.

١. الحايف، كلمة باللهجة الشعبية الدارجة تطلق على اللص الذي يقوم بالسرقة ليلاً على الأغلب، ويقال إن فلاناً حاف فلان أي سرقه ليلاً. وكان ذا قيمة عليا في مجتمع بداية القرن العشرين إلى منتصفه، حتى أن فتى أحلام فتيات ذاك الزمان حايف.



بغلة انجليزية



جسر البرج وسط لندن ليلاً



قطار في محطة الحلة قديماً



قوات بريطانية في حالة قتال



صاحب المضيف الحاج عباس عبد الحسين



معسكر بريطاني بعد الحرب الأولى

هجوم بريطاني على القرية

طاف في اليوم الثالث على طول القرية وعرضها منادٍ يخرق صوته جو الصباح الهادئ، تحفّ به مفرزة جنود انجليز، أصابعهم على الزناد، نادى: (يا سامعين الصوت صلوا على النبي، سُرِقَت للبريطانيين بغلة، سرقها واحد من أهل القرية، عليه إعادتها اليوم قبل مغيب الشمس، وتسليم نفسه، لمحاكمته عن جريمة ارتكبتها بحق التاج البريطاني). لم يترك المنادي زقافاً دون أن يطرقه، وقبل مغادرته سورها ساد الجمجمة هرج صامت، مروع، زاده ترديد متعاقب لأصوات مبعثرة من عشرات الأطفال يسألون عن المآل. اجتمع الوجهاء في جامعها ثانية، كانوا على وشك الطلب من عبد الأمير أن يحضر، حين شاهدوه مقبلاً من تلقاء ذاته. أدلى كل من عاود المضيف برأيه، وتقرّر في النهاية ترك البغلة خارج السور. ضحك عبد الأمير ضحكة شبيهة بقرعة المعدن النقي، صرّ بأسنانه القوية بقرف. فراح الجميع يتكلمون؛ كلّ على حدة حتى أضحت أصواتهم مثل ضجيج ناشز في سوق هرج. فتح حسين البديوي، حارس السور بابه بعد انسحاب الدورية البريطانية مباشرة، أخرج البغلة منها، وأعاد غلقها بمزلاج خشبي. اقتادتها تلك المفرزة التي كانت تنتظر خارج الباب كأن أمرها يعلم بما سيقرره الوجهاء، ومن بعد مغادرته والجنود، عاد البديوي إلى نوبة حراسته في المفتول^(١)، صعد معه لقضاء

١. المفتول، بناء على شكل دائرة أو نصف دائرة، يقام على بوابات السور أو على أركانه أو بين مسافات على طوله، ليكون مكاناً للحراسة والدفاع، فيه مزاغل على شكل ثقبو دائرية للنظر منها أو للرمي من خلالها على المقابل.

الوقت صديقه حسين الشهد، وبدأ الحديث بينهما عن البغلة والبريطانيين.
قال البديوي: لست مطمئناً لما جرى، وسأل:

- ألم تلحظ الجندي البريطاني كيف تصرف بعصبية، عندما مسك لجام
البغلة، وتلفظ بكلمات، لم اسمع منها واضحة سوى (شت): أتعرف معنى
(شت)؟. أجابه: ومن أين لي معرفة لسان البريطانيين.

ساعة هو الوقت القائم بين مغادرة الدورية، وأول قنبرة هاون (دانة)
سقطت على بعد خمسين متراً أمام السور، وثانية اقتربت منه أكثر والثالثة
جاءت في المفتول، سقطت على رأس الحارس مباشرة.

صاح حسين الشهد: قتل البديوي. حمله على كتف قوي، يساعده
حمزة الداخ نزلًا سوياً من أعلى المفتول. وضعاه إلى جانب السور، وقنابر
الهاون تتساقط موزعة على أركان القرية. فضربت موجة هلع عموم النسوة
والأطفال وتبعثر الفرع إلى جميع الجهات. بان صوت الانفجارات آلة تمزق
سقف السماء فزاد الضجيج عويلاً وكأن رسالة عقاب نزلت على القرية.
وكان كلما سقطت قنبرة على بقعة أرض قريبة يرتفع صوت الندب لحظ
عاثر ويتحوّل إلى عويل.

جلس المختار مع الرجال يسمع العويل ودوي الانفجارات. لم يكن العويل
ساعتها قد وصل مسامع البريطانيين، لكنّه سُمِعَ بوضوح في ربوع القرى المجاورة.
منع المختار النسوة من التجمع والعويل، خلافاً لمجريات العادة. قال: ادخلن
بيوتكن، سننقل المرحوم إلى بيته، وفي الداخل اصرخن، كما هو مطلوب، أما
الخروج خطر قاتل، أما ترون، (دان) يسقط مطراً فوق الرؤوس. كان المختار
حسن السحاب محقّقاً، أدرك بخبرته يوم كان جندياً في الجيش العثماني، أنّ

هناك هجوماً سيحصل، والقنابر التي سقطت، كانت تمهيداً للهجوم، وهم سيهجمون ليس بسبب البغلة، بل لعقاب التجاوز على معسكرهم، وسعياً منهم لتكوين عامل ردع في نفوس أهل المنطقة لتطويق مسارب ثورة يتحسسون قيامها، يريدون أن يبقوا معسكراتهم بعيدة عن الاستهداف (الجسرة) كما قال في وقته.

خرج الرجال من بيوتهم إلى الشارع مذعورين، صعدت النسوة إلى السطوح، سار أطفال مرعوبين وسط الأزقة، كلاً في اتجاه، صارت القرية مخلوقاً أُوقِعَ في كمين صار يشمّ هواءً ينذر بالخطر. لم يعرف الكبار ولا الصغار كيف يتصرّفون في موقف حرب لم يألّفوه من قبل، الا المختار الذي ما زال يركض، يصرخ بأعلى صوته: (ادخلوا بيوتكم. احتموا تحت سقوفها. لا تبقون في العراء. البقاء يعرضكم إلى الهلاك. دان عدوكم مهلك).

استمر هكذا يصرخ، دون أن يسمعه أحد أو ينفذ أياً من اقتراحاته أحد، فمشاعر الهلع قد عمّت أهلها من باب السور إلى بابها الشطاني. دام القصف وقتاً قدره الجدّ فيما بعد بحدود النصف ساعة، لم يناموا ليلتها إلا لماماً. تجدد في اليوم الثاني كذلك نصف ساعة فدقت بتجدده روح الفرار نفوسهم الخائفة، سرت شائعات عن هجوم بريطاني وشيك، بانت طلائعه بين التلال الأثرية، فزاد الهلع في النفوس وتحت تأثيره خرجوا أفواجاً وجدوا أنفسهم في رتل مسير كأنه منظم، لكنّه غريزي غير منظم، في سعيٍّ لترك القرية إلى مكان آخر، لا يعلمونه.

.....

كان الجدّ خلف مهموماً، يعرف البريطانيين أكثر من غيره، صاح من قريب: (اجمعوا حاجياتكم واتبعوني). مرّ على ابن عمه داؤد وتوجّها معاً إلى بيت الحاج حمد كبير أبناء عشيرته، وجدوه يحفر حفرة بمجرّفة، وضع فيها (الصندوقجة)، مقفلة وغطاها بطبقة سميكة من التراب، ثم عاد يبحث أهل بيته على الاستعجال، قال ليقف جميع أبناء العشيرة أمام البيت، دعونا نخرج معاً، ومثله فعل كبار العشائر الأخرى، وضع بعض أحمال عدّها ثمينة على حمارين، وركب هو على فرسه، وكذلك فعل داؤد وخلف، وبعد دقائق وزّعوا الأدوار بينهم ثلاثة وبين أبنائهم الشباب، وساروا رتلاً، عبر النهر، مروراً بقرية سنجار، متجهين إلى شط مله، وصلوها منتصف الليل، قصدوا نساء الحاج حمد إذ سبق له أن زوّج ابنه شهاب امرأة منهم إبان الهجرة الأولى، رحّبوا به ومن معه، وأقاموا لهم خياماً في الجوار. أوّماً عاصم بيده طالباً فرصة في أن يسأل، فتوقّف سعيد عن الكلام، عندها سأل:

- وكيف عبروا النهر؟.

قال سعيد: حسب حكايات الجد أن مياه النهر آنذاك كانت ضحلة، تم خوضها مشياً، وبعض كبار السن امتطوا حميراً، قليل جداً فضّل البقاء على الخروج بينهم حايط. أجاب سعيد عن السؤال وعاد إلى أصل القصّة، موضحاً أنّ الجميع سار صوب قرية سنجار، ومنها تفرّقوا بعدة اتجاهات. سلكت حمزية الاتجاه ذاته الذي سلكه الحاج حمد ومجموعة العشيرة، مشت نشطة إلى جوار فرسه، كأثما واحدة من نساء العشيرة، وهو يحسبها كذلك لأثما جارة في السكن، وزوجها قبل وفاته كان صديقاً لابنه. كانت، حمزية

الأرملة، منهكة تنوء بحمل ثقيل، رضيعان توأمان لا يزيد عمرهما عن ستة أشهر، على كتفها الولد علي، وفي شوال على ظهرها وضعت فيه الشقيقة عليّة، مع متاع طريق وبعض مصوغات من ذهب مهرها، زاغت عن المجموعة برهة بعد اجتياز النهر بنصف ساعة، ثم عادت تتبّع خطاه مسرعة، لحقت به تلهث، وقد أوقفت جريان دموع كانت تنهمر من عينها. ظنّ الجميع أنّها كانت تقضي حاجة، فلم يسألها أحد من الماشين، ولم يظهر على هيئتها أي تغيير أو ارتباك. خمس ساعات من السير المتواصل، وقريباً من خط النهاية، اكتشفت الجدة سويدة أمرها، وبعد اكْتِشافه، سألتها الجد عن الحقيقة.

قالت: لقد اعتراها الخوف فالإنجليز دخلوا القرية وقد لا يخرجون منها، تخيلتهم سيلحقون بها ومن معها في الطريق، انتقاماً لما حصل، فكّرت في يومها وفي الغد، شعرت بخواء في داخلها، لم تعد تقوى على حمل رضيعين. تركت عليّة تحت نخلّة على خط السير يرعاها الله، نظرت إليها قبل مغادرة المكان، وبكت على حالها بجرقة لما بادلتها النظر. أكدت أنّها تعرف ملياً أن قطعة من جسمها قد اقتطعت، وسوف لن يشفى مكان اقتطاعها، لكنّها تجرأت مضطرة. رجّت أن لا يلومها أحدٌ وقد عهدت عليّة إلى الله، وأبقت علي ذخراً في هذه الدنيا الفانية، سارت مع الركب تحمل أوجاعها، تكفكف دموعها خشية اكتشاف أمرها. حاولت يسرى وإلى جانبها زينب التعليق على الموضوع وقد بان الأسى على وجهيهما. ردّ سعيد: لا تحكمان على المرأة من موقعكما الحالي وظرفكما القائم على فعل فعلته

أرملة، وحيدة في ظرف خاص، تخلّت فيه عن وليدها البنت، وأبقت آخر هو الولد.

قال فؤاد: لقد أدركت صعوبة الموقف، ويئست من أي عون، لما نظرت من حولها ووجدت أن الجميع مشغولون بحالهم، وربما كانت مرعوبة من قصف تعرّضت له القرية لم تألفه من قبل، والرعب انفعال يشلّ القدرة على التفكير الصحيح، وهكذا كان ناتج تفكيرها المنقوص.

أما عاصم فكان له رأي آخر: أن الثورة التي دعا إليها الرجال الثلاثة قبل يومين من هجوم الانجليز، كانت مشاعر أثّرت سريعاً على حياة الناس، أحدثت قدراً من الهيجان في عموم المنطقة وصل بعضه القرية، قلب كيان امرأة ريفية ربما أرادت أن تتحسّب لقادم أيام تطول فيها الحروب كما هي من قبل، تعتقد أنّ الولد خلالها هو القادر وحده لأن يكون عوناً لها. كما أنّ المفاضلة بين الذكر وبين الأنثى في الريف إبان تلك الأيام كانت انحيازاً لجانب الذكر بشكل كبير، والتقاليد العشائرية والدينية آنذاك تسهل التضحية بالأنثى.

قالت زينب: مهما يكن الأمر، لا يمكنها استيعاب كيف تخلّت أمّ عن فلذة كبدها؟.

أجاب سعيد: قال الجد في إحدى حكاياته عن الموضوع أنّها طوال ما تبقى من زمن الهجرة عزلت نفسها عن النسوة، ظلت تتحب لساعات يومياً كأنّها في عزاء، وبعد الرجوع إلى القرية، وعودة الاستقرار إلى حالها، عاودت المشي على نفس الطريق من الجمجمة إلى شط ملة طوال سنين، ولأكثر من مرة في السنة، عرفت بعد خمس عشر سنة، أن راعياً للغنم، بعد

اجتياز رتل الماشين مكان رعي أغنامه، سمع بكاء طفل، قصده، فوجدها في المكان، سكنت حال اقترابه منها، أخذها إلى عائلته فرحاً فتنباها، ووجدتها هي في آخر رحلة لها على الطريق، قريباً من النخلة إياها ترعى قطع غنم، لعائلتها الجديدة، أكدت أنّها قد عرفت من رائحة كانت تنبعث منها وكأنّها الرائحة ذاتها يوم كانت طفلة، لقد خفق قلبها، سريعاً عند الاقتراب منها والسؤال عن قصتها، حاولت بعد التيقن أنّها ابنتها عليّة اقناعها بالعودة معها، وعدتها عيشاً فيه يسر، وحياة أفضل. رفضت عليّة أو (تسواهن) الاسم الذي أسمتها به العائلة الجديدة ذاك العرض المغربي. قالت، موجهة الكلام إلى والدتها الأصلية، وبقدر من الاستخفاف: إنّ الأم التي استرخصتها يوم شدّتها، لا يمكنها الاطمئنان لها يوم رخائها، ثم أنّ هذه العائلة التي أنقذتها، وعاملتها ابنة لها ماذا تقول لها، هل تخون عشرتها، لا لن تخون. من بعدها قطع الوصال، وكانت تلك فعلاً آخر محاولة اتصال.

.....

إنّ هجرة القرية هذه ليست الأولى في تاريخها كما كان يقصّ علينا خالي أشار فؤاد، مؤكداً أنّ هجرة سبقتها بسنين، هي الأولى بعد يأس أصابهم من عودة مياه نهرهم إلى مجاريها، وعدم تصديق وعود قائممقام الحلة بعودتها غزيرة كما كانت، بعد أن علموا بانحيار السدة التي وعد بإصلاحها لرفع مناسيب الفرات قدراً، يدفع الماء المحجوز باتجاه نهرهم الناشف، وتيقنوا موت نهرهم ميتة أبدية. ولما وجد الأذان صاغية أكمل قائلاً: لقد جفّت آبار حفروها في البيوت، يبست نباتات كانت قد نمت

وسط مجرى النهر تأملوها مرتعاً لحيوانات أهلكها الجوع والعطش. توقّف عطاء الأرض، ولم يعد التمر محصولاً يفي بالغرض، نفقت أبقار لهم والغنم، وصار الماء طواها سلعة هي الأعلى، والأخطر، كاد عباس أن يُقتل بطعنة خنجر على ذنب اقتطفه بغرف دلو ماء من بئر لم ينشف، وتفادى الجيران مواجهة كادت تكبر، إثر إسقاط صبي حجراً في بئر اقتربت من أن تنشف. تمّعت أبقار عن الحركة عجزاً حال الخروج من حظائرها، فأبقوها الأصحاب طليقة تسرح. قصد وجهائوها ومالك بساينها رفعت الجادرجي القائممقام، قدّموا شكوى لحال عطشهم، ولم يقدّم لهم سوى وعد ببناء سد جديد، يحتاج مساهمتهم في بنائه تبرعات من عندهم والغير من أبناء الحلة. رجعوا إلى قريتهم يائسين، جلس كل منهم مع كبار قومه، وقرّر أغلبهم ترك القرية، الهجرة منها حتى عودة مياه النهر إلى مجاريها بمعجزة. لم يحدّد أغلبهم وجهته في الهجرة. في صباح اليوم الثاني، انكبّت القرية على مجرى النهر اليابس، على أكتاف الرجال أحمال وعلى ظهور حميرهم أحمال، يمشون خلفها يحملون عصياً، ونساء من خلفهم جعلت الواحدة منهن عباءتها شوالاً لما بقي من جهازها، حملته على الظهر. تفرّقوا على ديار عشائر لهم في أطراف مدينة الحلة، وصل أغلبهم إلى منطقة الرجبية في شط مله. نصب بعضهم خياماً وبنى بعضهم الآخر أكواخاً، أقاموا فيها حتى جاءهم خبر أن الوالي أكمل بناء السدة، وأنّ مياه النهر أعادت الحياة إلى نهرهم الميت.



حزرة الداخ الجميلي



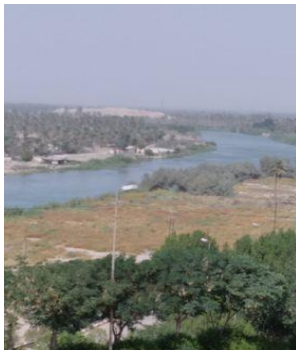
حسين شهد القره غولي



جنود بريطانيون في حالة هجوم



حلقت طائرات بريطانية فوق القرية



القرية الجمجمة من الجهة المقابلة



الامام عمران يتوسط التلال الأثرية جوار القرية

طنطل وشجرة السدر

عاد أبناء القرية المهاجرون أو الفارون من القصف إلى ديارهم، بعد سماح البريطانيين بعودتهم، مشروطة بتسليم بندقية لمن كانت له بندقية، قال سعيد ذلك عن جده، وأضاف:

اضطر من باع بندقيته لتسديد مصاريف عيشه إلى الاستدانة، وشراء بندقية سلّمها مرغماً وَضَمِنَ العودة. سأل أصحاب البنادق بعضهم وهم قلة:

- كيف عرف البريطانيون أسماء مالكي بنادق؟.

لم يحصل أيّ منهم على الإجابة، ولم يتنبأ حايط بما يعبر عن إجابة. ظلّ الأمر سرّاً تغلفه تكهنات الملامة.

عادوا إلى حياتهم العادية، إلى ليل القرية الصامت، وإلى جلسات السمر، وعادت الجدات إلى حكايات لشلّ تفكير وتعطيل استجابة العقل، لإدامة وقع الصمت، حكايات في جوهرها سعادة^(١) تخرج من ماء النهر ليلاً نصفها إنسان، تخطف أطفالاً، تأخذ من وقعها الجدة سبيلاً للتهذئة، نافعة لكمم الأنفاس والمحافظة على الصمت. وكان من بين جدّات ذلك الزمان الجدة (سويدة)، أكثر الرواة غزارة لأحفاد اعتاد بعضهم النوم إلى جانبها، روت ذات مرّة لأحدهم؛ كان متمدداً على أوامر النوم، حاولت

١. السعال، جمع سعادة، وباللهجة العامية (السعلوة) حيوان خرافي من زمن الجاهلية، يخرج من الماء، نصفه على شكل امرأة.

إنامته أولاً بحكايات عن أبي زيد الهلالي، فلم تفلح، تحوّلت من بعد إلى أخرى زادت بها عيار الخوف.

قالت: في ليل شتاء عاصف، تحت سماء لم تظهر نجومها بعد، كانت راقدة على فراش تستعرض يومها، سمعت كلاماً يدور في أروقة جار، يفصل بينهما سعف نخيل (خص^(١)) رُصَّ واقفاً، أثار فضولها، كلام غير واضح، سألت قرينتها في الصباح الذي تلي ذلك الصوت. أجابتهما: سعادة، كانت في زيارتهم تلك الليلة، لو لم يكن الصدفُ قد غطى قدميها لتوهمت أنّها امرأة أنسية. طلبت منها قدراً، لم تتأخر في إعطائها القدر الوحيد خاصتهم. حضرت في اليوم الثاني ومعها القدر في داخله ذراع طفل مطبوخة، كانت قد اختطفته قبل يوم من الشريعة التي كان على حافتها أطفال قرية سنجار يسبحون. تعودت من بعدها على زيارتهم في بعض ليالٍ ممطرة طلباً لحاجة، أعطتهم في إحداها ليرة ذهب، وأعطوها في المقابل تمراً، تابعها رجل البيت بعد انتهاء إحدى زياراتها دون أن تلتفت، وصلت النهر، تحوّلت على جرفه مخلوقاً؛ نصفه الأسفل سمكة ونصفه العلوي امرأة بوجه قبيح، لها شعر طويل أشعث.

عاد سعيد بعد هذه المقدمة إلى موضوع الخوف، منوهاً، عند حدود القبح وصفاً للسعادة، اعترى الحفيد خوفٌ بمستوى أخل في قدرته على الإدراك، صار وكأنّه يعي ولا يعي، اضطرب توازنه، لم يعد يميّز كونه يقظاً أم نائماً، وبحركة مثل ديب نملة دنا من جسد الجدة حدّاً التصق به دون حراك، تحسّست وجهه النازف عرفاً وجدته بارداً كقالب ثلج. جال بسمعه خارج

١. الخص، جدار فاصل من سعف النخيل.

للحاف الذي غطى كل جسمه حتى الرأس، عساه يجد مثيراً يكسر جدار الخوف، وجد الصمت مطبقاً، لم يسمع أصوات طائر الطوطو، أعتاد سماعها كثيراً قبل النوم، ولا نباح كلاب، لا تسكت طوال الليل. حاول النظر وسط الظلام إلى جذع نخلة قريبة، تخيل عروقه الضاربة في الأرض، أذرع تلك السعلاة، وتخيل سعفها الأخضر شعراً متهدلاً فوق هامتها المتعرجة، فزاد خوفه أضعافاً. دفن عندها رغبته في السهر، أحسن وكأنه سلم أمره لقوى السعلاة المخيفة، صار طيعاً كما أريد له أن يكون مستسلماً لسلطان النوم.

لكنّ الجدّة التي عُرفَ خروج الحكايات المخيفة عن شفيتها بسهولة، عرف عنها الجرأة والشجاعة، وعرف عنها حضور مجالس رجال من أبناء عشيرتها، ودخولها مواقف التحدي مزاحاً لَمّا يحين الوقت، وقد حان الوقت يوم كانت حاضرة في جلسة سمر، تستمع مع باقي نسوة ورجال إلى جار يزعم لنفسه شجاعة فائقة حيث المرور في الليالي الممطرة حالكة الظلام بين تلال بابل راكباً حماره، لا يرمش له جفن ولا تهرز ريش.

كان ذاك الجار دعيّاً، يغالي في مدح نفسه وإنجازاته المستحيلة، ولما أكمل حكايته عن ضرب ثلاثة رجال اعترضوه وهو قادم من بستانه ليلاً خارج السور، حاولت تذكيره بمواقف له في هجوم البريطانيين على القرية تناقض زعمه. انزعج، فحمل عباءته وقام من مكانه، ومع أول خطوة له مغادراً قال: وهل أنت قتلي الميجر الإنجليزي في ذاك الهجوم كي تهزئين.

حال مغادرته ساحة السمر، وابتعاده قليلاً عن المكان نوهت بالقول: غداً سأسمعكم أخباره.

اعتاد هو العودة من البستان، فلاحاً، بعد المغيب بقليل، سالكاً درب الحصين، المار عبر التلال المشرفة على القرية من جهة الشرق. ولما حلّ الغد، لبست ملابس زوجها، تلثّمت، ووضعت في حزام تحزّمت به منجلاً، ومسكت في يدها اليمين عصا، ثم تسللت من القرية إلى خارجها، كمنت، عند حافة التلال من الجهة البعيدة، وحال اقترابه، نهضت من مكانها واثقة، مسكت لجام حماره، شهرت منجلها ووضعت على رقبته، غيّرت من نبرة صوتها ليكون أقرب إلى صوت رجل. أمرته بترك دابته وحملها والا حزرت رقبته بمنجلها المعقوف، ثم ضغطت به على حافة الرقبة.

استسلم سريعاً، مسكت الحمار بإحكام، فسحت له مجال المغادرة دون الالتفات إلى الخلف، ركبت فوق حمله وعادت إلى ساحة السمر التي شرع روادها بالحضور.

قصّت عليهم القصّة كاملةً. أشار لهم أنّه قد عرفها، ولم يشأ معاركتها، وليس من شيم الرجال معاركة النساء.

لكنّه ومن يومها لم يعاود استعراض القوة الذي اشتهر به، ولم يعد فاعلاً في ساحة السمر.

.....

إنّ حكايات ما قبل النوم وحوارات السمر وأحاديث المضائف يرى سعيد أنّها تتجاوز السعلاة و(شكاك البطون)^(١) لتمتد أحياناً إلى

١. شكاك البطون، مخلوق وهمي على شكل حيوان، يشقّ بطون من يقابله.

الطنطل^(١)، المخلوق الطويل، ضخم الجثة، مفتول العضل، بجسم مطاطي يتخذ عدة أشكال وأوضاع كما يريد، جعلت شجرة السدر التي تظلل المغتسل جوار النهر منطقة موحشة في النهار لا يقترب منها أحد في الليل. وجعلت الموضوع مثار حديث شبه دائم لأهل القرية في جلسات سمر ذلك الزمان.

استرسل سعيد في السرد، وذكر التفاصيل، مؤكداً أنّ أهل القرية كانوا يرتادون مضائف عشائرها المعروفة، وفي مضيف الحاج عباس، وصل الرجال في ليل شتائي حلّ في السنة التي سبقت الحرب العالمية الثانية مبكراً، وكان هطول المطر خفيفاً، دفع النسوة وأطفالهن إلى تناول حلاوة التمر (المدكوكة) بعد العشاء مباشرة والتوجّه إلى النوم.

كان مضيف الحاج عباس ممتلئاً تلك الليلة وكان الحديث عن طنطل ورأسه الضخم يلامس السماء، يتواجد بغير انتظام جنب شجرة السدر عند المغتسل.

سخن الحديث وتشعب عند ورود كلمة المغتسل.

علّق عبادي بالقول: لمّا يظهر طنطل لن ترى شجرة السدر، هو أطول من النخلة الفحل في بستان الرهيمية.

امتعض سيد حميد، الواقعي المنفتح على عالم ما بعد القرية، المعروف بشجاعته، المتعلّم في كتاتيب الملا رزوقي كما يتداول عنه في ذلك الحين. بدا على وجهه الأسمر انفعال وغضب خفيف، قال: يا جماعة، لا يوجد

١. طنطل، كائن أسطوري في التراث العراقي، توضع له أوصاف على الأغلب مخيفة وتبعاً للمجتمع الذي تردّد فيه الأسطورة، ففي الجمجمة يوصف بأنه ضخم، طويل القامة، تتدلى خصيتاه الكبيرتان حتى تصلا الأرض. عموماً يخافه العرب، والاسم مأخوذ أصلاً من الحضارة السومرية.

طنطل في هذا المغتسل ولا في أي مكان آخر، ولم تذكره كتب التاريخ، ولا أحد من الرّحالة الذين جابوا المنطقة قديماً وحديثاً تطرق اليه، لا يوجد مخلوق بهذا الوصف الذي تصفون أصلاً، إنه من المخلوقات الأسطورية، حاله حال السعلاة التي خوفتكم بما أمهاتكم وجداتكم، وَتُخَوِّفُ بِهَا النِّسوة أولادكم اليوم، وتجعلهم يهابون الليل، بل يخافونه، أملاً في أن يكونوا مؤدبين. دار برأسه حول الجالسين وسأل:

- أين يذهب هذا الطنطل في النهار؟.

- من الذي رآه فعلاً واقترب منه ليلاً أو في النهار؟.

أيده في القول الشيخ عباس، وأثنى عليه إسماعيل العزيز.

ردّ فرهود: الطنطل لا يظهر في النهار، يختفي حال سماع أذان الفجر.

كرر سيد حميد السؤال:

- أين يختفي وهو بهذه الضخامة والطول؟.

- يختفي بقدرة الله سبحانه، قد ينفذ إلى داخل الأرض، وقد يغوص في

ماء النهر، كل شيء وارد بأمر الله.

ردّ الحاضرون: ونعم بالله.

.....

كان الحاج عباس جالساً في مكانه قرب الزاوية المواجهة لباب المضيف،

يراقب الحديث، يتمعن فيه، وكعادته في تلطيف الأجواء، سأل وابتناسمة

بادية على وجهه المائل قليلاً إلى الحمرة:

- ألا يوجد أحد (أخو أخته) يثبت كلامك سيدنا.
أنا سأثبت كلامي، أجب حميد.

تدخل عبد الأمير الابن البكر للحاج عباس، سأل:
- كيف ستثبت كلامك سيدنا؟.

وأضاف بنبرة صوت مليء بالتحدي: لو كان الموضوع على طنطل،
لكان حاله سهلاً، لكن منطقة المغتسل والتلال القريبة منها مقابر قديمة
للبابليين، (مسكونة^(١)) يتجول فيها السحرة والجن طوال الليل، يحومون
حول بئر مجهولة إحتجز فيها الله هاروت وماروت، وعلى هذا أقول، رجل
من يثبت عدم وجود طنطل الذي هو موجود، تكلم عنه أجدادنا وآباؤنا
ونتكلم عنه اليوم.

كثر الكلام بين الجالسين، اشترك كل اثنين منهم في حوار منفصل،
بانتظار الكيفية التي سيثبت فيها سيد حميد كلامه عن الطنطل، وختام
القول نظرة اليه من العموم وضعته في حال انفعال شديد، ورفعت في دمه
الادرينالين فجأة. وفجأة وقف في المكان مخاطباً:
سأثبت لكم قولي، هذه الليلة في هذا اليوم.

أتم حميد آخر مفردة في عبارته. عاود الجالسون أحاديثهم الجانبية،
وعدل هو من وقفته، طالباً وتداً ومطربة ليثبت القول.
نفض فرهود عن مقعده بنشاط منقطع النظير، تعهد وهو يهز كتفه
باستخفاف وبصوت مسموع، أنه سيجلبها من البيت.

١. مسكون أو مسكونة، المكان الذي يتواجد فيه الجن كما يعتقد.

لم يغيب سوى خمس دقائق، بيته إلى الجوار، وغياب بهذا القدر، لم يكن كافياً لتخفيض شدة الادرنالين في دم السيد حميد، وثنيه عن القيام بمغامرة فيها مجازفة عالية المستوى للتحرش بوكر الجان.

وليزيد فرهود من النار الموقدة تحت السيد حطباً، تعمّد رمي المطرقة والوند أمام الجالسين بطريقة لا تخلو من الاستهزاء وابتسامة إثارة، ليطلق عبارة كانت: دعونا نرى كيف يثبت القول.

حاول سيد حميد افتعال ابتسامة تحدٍ، خرجت من بين شفاهه الغليظة باهتة، تماسك في وقفته، تبادل النظرات مع الحضور، بثقة لا تخلو من بعض ارتباك، ردّ بعبارة لم يدع فيها مجالاً للتراجع عن قرار اتخذه. كانت نبرة صوته تؤشر عدم خلوه من الندم.

طلب ذهابهم جميعاً شهوداً إلى المغتسل مع طلوع شمس الغد أو بعد أذان الفجر، سيجدون هذا الوند نابتاً بينه وبين شجرة السدر، دليل وصوله إلى المكان، ودليل عدم وجود الطنطل في هذا المكان ولا في أي مكان.

تفحص وجوههم بنظرة من لم يتراجع، وجدها وقد امتلأت بالتعجب والتحدي في آن معاً، إذ لم يجرؤ أحد من أبناء القرية دخول هذه المنطقة التي يعتقدونها مسكونة بالجان ليلاً، ووجد نفسه يضع عباءته على كتفه، يشدّ حزام ثوبه على وسطه، ويمسك الوند في يده اليسار والمطرقة في اليمين، مؤكداً التوكل على الله.

تركهم وسار في الشارع متجهاً إلى الباب الشطاني، ومنها تخلل بستان بيت شبيب جوار بستان المومنين، يتمتم ببعض كلمات غير مفهومة كمن يريد مدداً روحياً.

.....

سار حميد في طريق ظلام، حوّل جميع الألوان من حوله إلى لون واحد كأنّه الفحم، اجتاز الساقية المؤدية إلى بستان المومنين يسميها الأهل بالنهر الصافي، من على قنطرة مشيّدة من جذوع نخيل كان غليوة قد أعدّها بفأسه المشهورة، وضرباته المتوازنة.

وصل إلى المكان المقصود بوقت لا يزيد على عشر دقائق، حسب كل دقيقة منها سنة ثقيلة الوقع، كان يسمع طواها صوت ارتطام أقدامه على الأرض المنشاة بطبقة خفيفة من الطين كوّنها المطر الخفيف.

صوت مجسم خشن كصوت طبول تقرع لأغراض الحرب، حتى أنّه توقّف أكثر من مرّة ليتأكد من جهة الصوت وحقيقته، ظاناً أنّه قادم من بعيد ربما من قرية سنجار في يساره عبر النهر أو من وسط التلال البابلية الرابضة شمالاً وعلى يمين النهر.

دار دورة كاملة حول المغتسل، وقف تحت شجرة السدر الضخمة، ونظر إلى الأعلى، ثم إلى اليمين وإلى الشمال، ومن بعد إلى ماء النهر فوجده سريع الجريان، غيّر من اتجاهات نظره صوب التلال، لم يجد حركة تثير الاهتمام كأنّ ساكنيها من الجان لم يخرجوا في المطر، أقنع نفسه أنهم يسبتون في المطر. صرير هواء مرّ بين وديانها أخرج صفيراً مسموعاً بوضوح أثار خشيته، دفعه

باستجابة لا إرادية للنظر إلى مرقد الامام عمران بن علي كمن يستنجد به لإكمال المهمة التي شعر بالندم بسببها في كل خطوة خطاها إلى المكان.

لم يجد آثاراً للطنطل تحت الشجرة ولا بين التلال، عندها تناول الوند، وبدأ الطرق، مستعجلاً يريد الانتهاء وإثبات القول. أكمل العمل بخمس ضربات فقط فالأرض رخوة، مشبعة ببقايا ماء لغسيل طفل مات في آخر النهار، وما وصل من قطرات مطر. خمس ضربات كان قد استجمع لها طاقة الشباب، حرك الوند بكلتا يديه وبسرعة وفرتها عضلات له تحفزت بعد امتلائها بالدم الحار من قلب زادت ضرباته عن المألوف، وجده ثابتاً في مكانه لا يتزحزح مثل صخرة تفوقه وزناً بأضعاف، هكذا تخيلها في تلك اللحظة.

نفض من وضع القرفصاء، كان قد اتخذ لإكمال تثبيت الوند في المكان الذي أراده دعماً لقوله.

استعجل العودة، رغبة منه بقص تفاصيل مغامرته عن وكر الجان، وإثبات شجاعته في تحدي الجالسين الذين ينتظرون النتيجة، تخيلهم ينتظرون وقد تضاعف عددهم فمثل هذه الأخبار تنتشر بين أهل القرية مثل نار في هشيم.

لم يعنه وضعه لإكمال فعل النهوض، شعر وكأنّ أحداً يمسكه، عاود المحاولة ثانية، أدرك وكأنّه مشدود بقوة خارقة. صاح من مكانه:

(اتركني رحم الله والديك). لم يتغيّر الموقف، أحسّ لحظتها وكأنّه في قعر النهر يتلع ماء العكر، وكأنّ الهواء توقّف عند منخريه ولم يعد ينفذ إلى الرئتين.

شهق أولاً، في سعي لإدخال الهواء إلى جوفه قسراً أو حشد الاحتياطي من قواه، قفز بقوة جلّ طاقتها هلع شديد، قفزة وإن أعانته على التخلص من الشدّ، أبقت عباءته عالقة حول الوتد في المكان دون أن ينتبه إليها، عاد إلى القرية راكضاً، ينزف ماءً من مسامات جلد فتحت عن آخرها، يداه ترتجفان، عيناه مفتوحتان تماماً، وجهه أصفر. قال الحاج عباس عندما رآه:

كان لون وجهه مثل قشر الليمون، صوته يكاد لا يخرج من حنجرة تحشرج الصوت في ثناياها، يحثّ الخطى سريعاً، وفي كل خطوة يخطوها يعاود النظر إلى الخلف، مستمر بتكرار عبارة واحدة (لقد خلصت نفسي بالقوة).

في صباح اليوم التالي وبعد شروق الشمس، ذهب اثنان من الحضور بينهم غليوة، إلى المغتسل ليتفحصوا الواقعة، وجدوا الوتد مثبتاً في المكان المتفق عليه، ووجدوه قائماً على أطراف عباءة حميد. شاهد إثبات على عدم وجود طنطل، لم يمخُ أسطورة وجوده من الوجود.



حبيب جواد الكعبي



عبادي ثويني الباوي



زقاليق (مجاز) في القرية عام ٢٠٢٠



عبد الأمير الحاج عباس السلامي



علي حسين عبد الخفاجي



الشيخ عباس حمزة الخفاجي

العودة من فلسطين

ركض حازم وثلاثة من عمره لم يتجاوز الواحد منهم سبع سنين، قطعوا شارع القرية عدواً من باب السور إلى زقاق البو شايح. لم يتوقفوا طواها لحظة واحدة لالتقاط الأنفاس، مدفوعين بفرح غامر لم يجدوا له تفسيراً. ولم يعيروا اهتماماً لهواء من حولهم، لهيبه صيف حار أبقى بقعاً من عرق توزعت على ثيابهم الفضفاضة، حتى صارت بسببه ملتصقة بالأجساد الطرية عند منطقة الصدر.

عَلَقَتْ على أطراف السنتهم طوال عَدُوهِمْ كلمة واحدة ذات عيار ثقيل تسمع واضحة من بعيد(رَجَعُوا). أعادوا نطقها، كلما انخوا وتيرة نطقها من لحظة الانطلاق حتى توقفهم عند الزقاق المذكور، كأنَّ خلايا عقولهم المعنية بالنطق بُرِجَتْ على وفق هذه الكلمة آلياً.

أوقفهم عمران الجتّان بسؤال فيه قدر من الحزم:

- من الذي رجع؟.

ردَّ حازم وقد وضع كلتا يديه على ركبتيه محني الظهر من شدة التعب:

- رجعوا من فلسطين.

أشاح عمران النظر عنهم أطفال يلهثون، أجَلَّ مشواراً له كان يريدته ذهاباً إلى مدينة الحلة ومنها إلى الحبانية التحاقاً بوظيفته هناك. عرج على مقهى (على الله) همّه التعرف على الراجع فعلاً بعد غياب حرب لا أمل للرجعة منها في ثقافة المنطقة السائدة آنذاك.

وجد من سبقه إليها أعداداً تضاعفت عن أعداد روادها المعتادين قليلاً في أوقات الظهيرة على وجه الخصوص، صاروا يسألون جميعاً عن حال الرجوع.

بدأت الأسئلة عابرة عن فلسطين والحرب ومآل التقسيم بين العرب واليهود، وبطولات الجيش العراقي وإشاعات ملأت الأجواء عن خيانة الساسة ومعركة جنين.... أسئلة صارت تتوالى تباعاً دون انتظام، وأجوبة أخذت كذلك تتوالى من الحضور اجتهاداً دون تركيز، وقبل الفراغ منها أسئلة وأجوبة، وقدر من التكهّنات، توقف ربل قادم من الحلة، أنهك الحوذي حصانيه بسوط لاذع استعجالاً للوصول.

نزل من على سلّمه الخشبي ببطء ملحوظ العريف كاظم عداي بلباسه العسكري، وضماذ يلف ذراعه اليسرى في منطقة الرسغ. ركض باتجاهه الشباب، عزم على جلوسه إلى جانبهم باقي الرجال، أخذ له مكاناً يتوسط حسون علوان شلاش وديوان خسباگ. أدرك بفطنته أن جمهور المقهى الجالسين منهم على التخوت، وكذلك الواقفون من حولهم يريدون معرفة التفاصيل، كل التفاصيل لما جرى ويجري في فلسطين، ومصير باقي المشاركين من أبناء القرية في هذه الحرب وما آلت اليه النتائج السياسية لها. قال حنون:

- اسكتوا، دعونا نسمع أبو كريم، ففي جعبته الكثير.

سكت الجميع، وكأّهم في صمت الترقب، فبدأ الحديث، قائلاً:

- كنت في المفزة الطبية للواء المشاة الخامس، طليعة من وصل من القوات العراقية التي توجّهت إلى فلسطين، واقف في مكان قريب من الأمر

العقيد عمر علي^١ لما كان يتنصت على جهاز لاسلكي وضعه جندي المخابرة على الأرض. صار وجهه مكفهراً وكأن ضربة بعصا غليظة وقعت على رأسه الحاسر، نطق كلمة واحدة بعصبية غير معهودة (هاينليك) لم نفهمها نحن القرييين منه.

ركل الجهاز بمخائله (البسطال). أمر الجندي القائم عليه بإغلاقه على الفور.

سألت قادر، أحد جنود حمايته، أعرفه صديقاً من مدينة كركوك:

- ماذا تعني هذه الكلمة الغريبة. أجب بصوت خافت بذلت جهداً كي أسمعته:

- إنها كلمة تركية تعني (خيانة).

- لم قالها بالتركية.

أجاب: يتبين أن قولها بالتركية كان بقصد الخشية من أثر قولها باللغة العربية على المعنويات. ويتبين أنه قالها بعد سماعه عن طريق الجهاز استغاثة لقوة فلسطينية تحاصرها عصابات الهاغانا اليهودية^٢ في جنين.

^١. اللواء الركن عمر علي البيرقدار، تركماني من كركوك. تخرج ضابطاً من الكلية العسكرية عام ١٩٢٨، عمل آمر فصيل وسرية ثم آمر فوج وأمر لواء وقائد الفرقة الأولى. اشترك في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ كأمر لواء، وقف بالضد من حركة ١٤ تموز ١٩٥٨ ورد أنه حاول تحريك وحدات من مقر فرقة بمدينة الديوانية لمقاومة عبد الكريم قاسم، لكنه توقف بعد تأكده من مقتل الملك والوصي ونوري السعيد. أرسل رسالة إلى عبد الكريم، وطلب الأخير مقابلته في وزارة الدفاع ليشرح له أسباب الحركة، ولما وصل إلى باب الوزارة ألقى عليه القبض وأحيل إلى محكمة المهداوي، التي حكمت عليه بالسجن. أعفى عنه عبد الكريم عام ١٩٦٢، اعتكف في بيته أولاً ومن بعده غادر للعيش في بيروت. عاد منها إلى العراق براً، وتوفي بحادث سيارة قريباً من مدينة الرطبة عام ١٩٧٤. أكثر ضباط الجيش العراقي شهرة واتصافاً بالجرأة والشجاعة.

^٢. منظمة صهيونية تأسست في القدس عام ١٩٢١ بحجة الدفاع عن المستوطنين اليهود، اشتهرت بحسن وقوة التنظيم فصارت نواة الجيش الإسرائيلي بعد نشأة دولة إسرائيل، وعرفت بالقسوة، فكانت مسؤولة عن مذابح حصلت في

وقف في مكانه يزار، كأنه أسد غاضب. طلب حضور آمري الأفواج،
غيّر وجهة لوائه من طولكرم التي أرادت القيادة توجيهه إليها، صوب مدينة
جنين التي أراد هو تحريرها من تلك العصابات وإغاثة الفلسطينيين.
دخل المعركة بقوة، فك الحصار وحرّر المدينة باقتدار.

قطع عمران سير الحديث سأل:

- ما هي أخبار الآخرين من شباب القرية المشاركين في الحرب ؟.
أجاب كاظم:

- استغل الأمر الجرح الذي حصل في رسغي الأيسر من شظية قنبرة
هاون انفجرت على مفرزتنا الطبية أثناء الإخلاء البسيط، وأرسلني مأموراً
مع جرحى أخلاهم إلى مستشفى الرشيد العسكري في بغداد منهم ن ع
عبيد جبر الخفاجي وآخرين.

وصلنا إلى المستشفى بالأمس، أدخلتهم ردهاتها المختصة. أعاد الأطباء
ضماد جرح يدي ومنحوني إجازة مرضية لشهر بأكمله.

تقدّم عباس جبر خطوة الى مكان جلوس كاظم. سأل عن صحة خبر
وجود شقيقه عبيد في مستشفى الرشيد كما نوه له في الأمس حمزة الحاج
حسين، جندياً كان صديقاً له في وحدته. أجاب كاظم:

عبيد وكما تعرف، رامي مدفع في بطرية خصّصت إلى اللواء، طلب
منها الأمر إسناد هجومه بقصف مواقع لعصابات الهاغانا تحت غالبية

فلسطين بينها مذبحة دير ياسين التي راح ضحيتها (٣٦٠) فلسطينياً. بلغ أعداد أعضائها عام ١٩٣٦ بحدود
(١٠٠٠٠) آلاف عضو و حوالي (٤٠٠٠٠) ألف احتياط.

أحياء المدينة وتحاصر شرطة فلسطينيين، وضع القنبلة في حجرة المدفع، سحب بعدها عتلة الإطلاق فانفجرت داخلها.

قُتل ثلاثة من أعداد المدفع في المكان، وَجُرِحَ هو جروحاً متعددة، بشظايا توزعت على جسمه طولاً وعرضاً، الأخطر منها جرحٌ في عينه اليسرى، قرّر أطباء المستشفى في الأمس إقلاعها وإخراج الشظايا المتفرقة من باقي الجسم.

أخذ السيد عباس العميدي في مكانه على التخت وضع المتكلم قال:
إنَّها دلالة أخرى على الخيانة، ثم أكمل:

لقد سمعت قبل أيام رجالاً معتبرين في متصرفية الحلة يتكلمون عن عتاد فاسد زُوِدَتْ به القوات العراقية والمصرية، يبدو أنَّها حقيقة، وسمعتهم يتكلمون عن شكاوى للضباط القادة في ميدان الحرب مع اليهود بتقييد حركتهم بحجة عدم وجود أوامر.

توقّف كاظم عن الحديث قليلاً فأثار فضول السامعين الذين تكاثروا من حوله. لكنّه عاوده بصوت فيه حزن واضح قال:

كنّا من أبناء القرية في عموم القوة المرسلة إلى فلسطين كما تعلمون بحدود العشرة، وكان كاظم خضير الجادر، من بيننا. التقيته صدفة قبل دخول مدينة جنين بيوم واحد، كان مفعماً بالحياة والنشاط، يحن للعودة إلى القرية مشتاقاً لهذه المقهى والمشي عصراً على النهر.

جلسنا على حافة ساقية خارج جنين، كان الجو ربيعياً جميلاً، خضرة تملأ المكان، أخذنا الحديث بعيداً إلى القرية وبعض من آمال العودة إلى عوائلنا سالمين.

قال في تلك الجلسة إنَّ والدته وعلى غير العادة، صارت تأتية في المنام، تعجب من تلك الرؤى في الأحلام. تفرقنا كل إلى وحدته بعد مغيب الشمس بقليل، استعداداً لدخول المدينة في وقت توقعناه قريباً، وفعلاً كان الوقت قريباً، إذ دخلت قوات اللواء الخامس المدينة فجر اليوم التالي، بمعركة كانت شديدة وكأَنَّ جهنم قد فتحت أبوابها.

حضرْتُ مع مفازر طبية لإخلاء الجرحى. كانت أعداد الجرحى كثيرة، وجدت بينهم كاظم مستلقياً على ظهره، ينزف دماً من صدره بغزارة، حاولت مع زميل لي وضعه على النقالة بغية إيصاله إلى وحدة الميدان الطبية أملاً في إسعافه، قال بصعوبة وبصوت متقطع:

اتركني لأموت براحتي، بثَّ أرى الوالد وأجداداً لي ينادونني بكلام فصيح كي ألتحق بهم.

عند آخر كلمة من هذه الجملة، فارق الحياة قبل تحريكه من المكان.

حاولت أنا وسداوي الباوي ومحمد حسين الوحيش ومحسن حمود إعادة جثمانه إلى الجمجمة لدفنه مع أبنائها في مقبرة السلام، جمعنا مبلغاً لشحن الجثمان، شاركنا في جمعه إسماعيل عزيز وحمزة حسين وعبيد منسي، وجميعهم كانوا جرحى في تلك المعركة، التقيتهم في وحدة الميدان.

حضر عباس هلال وكان حلاقاً في مقر اللواء وقريباً من الأمر بحكم مهنته هذه، قال لقد أخذت إجازة سمح لي الأمر بمرافقة الجثمان إلى بيته

في القرية، لكن أوامر صدرت فجأة في إيقاف الارسال، ودفن جميع الشهداء في مقبرة خصّصت للجيش العراقي في مدينة جنين.

التفت كاظم حوله كأنه يريد تبادل الكلام مع الجميع قال:

لقد كفّناه بأيدينا وواريناه الثرى بأنفسنا.

لقد زرت قبره قبل تحرك اللواء عائداً إلى العراق.

انتقلت الأخبار سريعاً إلى ريمة الحسن والدة الشهيد، كانت تصلي في بيتها من أجل عودته سالماً، لها ولد وحيد.

قطعت صلاتها نافلة، جاءت راکضة تصرخ طوال الشارع من زقاق تسكنه في مقابل زقاق الوزون حتى المقهى.

تقف لحظة لتصوّت بما استطاعت من قوة، تمشي لتقف ثانية نادبةً لحظّها بنفس القوة، وثالثة تنثر فيها التراب على رأسها واهنة القوة، حتى اصفرّت عباؤها السوداء.

وقف كاظم في مواجهة حزنها عاجزاً عن الكلام وعيناه تدمعان، فسرى بين الجمع قدرٌ من البكاء، عدوى انتشرت في الحال، تحوّل بسببها الفرح إلى حزن شديد. لم يعد كاظم يقوى على الاستمرار في الكلام، استأذن الحضور، اصطحبها باكية إلى بيته في زقاق بيت شاي، وهناك حكى لها حكاية استشهاد ابنها البطل وقصة دفنه جندياً يمثل وزملاؤه جيش العراق. وعدها بالمساعدة في زيارته حال انتصار جيوش العرب في حربها مع اليهود وقد تضاعفت أعدادها على أرض فلسطين.



عبيد جبر الخفاجي. جريح معارك فلسطين



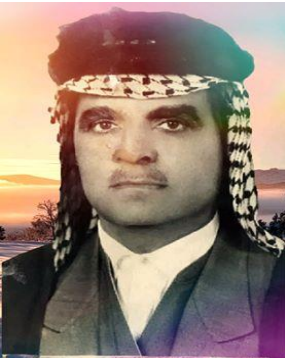
اللواء الركن عمر علي قائد معركة جنين



عباس هلال الدليمي. مشارك في معارك فلسطين



إسماعيل عزيز الخفاجي. جريح في معارك فلسطين



كاظم عداي الريهي. جرح في معارك فلسطين



محسن حمود الريهي. مشارك في معارك فلسطين

أقفاص التدجين

توقف سعيد عن سرد بعض ذكرياته عن القرية مؤقتاً، فعاد الحديث بين الرجال الأربعة عن موضوع السياسة، وبدأ داؤد بانتقاد أهل السياسة في مجالات يعتقد أنّها سببٌ في إيصال البلاد، لما وصلت اليه. قال: أنا وتبعاً لفترة عيشي الطويلة في لندن واختلاطي بالمجتمع الغربي المتحضر منذ العام ١٩٥٠ بعد هجرتنا يهود بابلين، أرى أنّ هناك مشكلة لم ندرك أبعادها نحن العراقيين، وهي أنّ روح البداوة منذ تأسيس الدولة، واختلاطها أو تفاعلها مع الروح الثورية بعد مقتل الملك، قد أسهمت في هدم أركان الدولة التي يفترض أن تبنى بشكل تدريجي، يلائم قدرة المجتمع على استيعاب وتفهم البناء، فالبداوة في جانبها السلي سادتي استئثار وتخيّر ورغبة في تقوية الذات الخاصة على الحساب العام، والثورية اعتقاد بصحة الرأي المطلق والقدرة على تحقيق المعجزات، ونتيجة التفاعل بينهما سقوطاً في بئر التضليل المدمر.

لقد جذب هذا الحديث الفلسفي الباقي، فتدخل عاصم مؤيداً لما قيل وأضاف، أن نجاح الثورين السريع والمفاجئ في الاستيلاء على الحكم وفرض رؤياهم في شؤونهم وسرعة تنفيذ الرؤية، أصابهم بداء الثقة المفرطة في النفس أنتج وهماً في داخلهم، أتهم الأصح وأتهم أصحاب قدرة خارقة في تغيير مجتمعهم والعالم من حولهم، وهذا الوهم وروح البداوة في داخلهم دفعتهم مراراً إلى اتخاذ قرارات خطأ، كما جرى في مسألة تسفير اليهود بعد عام ١٩٤٨، وهم في الأصل عراقيون وعرب، ومن ثم قوانين التأميم ومن بعدها تسفير

الکرد الفيليين وهم موجودون في العراق قبل تأسيس الدولة؛ شأنهم شأن أقوام وعشائر كثيرة كانت تنتقل وتستوطن عموم الاراضي العثمانية.

عاد فؤاد ليمسك أطراف الحديث، كأنه تعمد الإمساك بها سعيًا لإخراج غصة رافقته منذ تركه العراق هارباً نهاية سبعينيات القرن الماضي، فبادر بالقول: يا ليت أن ظلم الثورات ينتهي بأوامر تسفير وإجراءات تضمن بها قدرًا من حقوقك كإنسان، لقد تصرف الثوريون، في تطبيق قوانينهم ومشاريعهم الخاصة بالأمن والتفرد بالسلطة، وكأنهم بدو يحملون سيوفًا، لإجبار أعدائهم على الامتثال، والانتقام من من لا يمتثلون.

توقف فؤاد، تأوّه حسرة، كأن جرعة ألم عانى منها سابقاً عاودته لذعائها وأكمل وصفهم قساة حدّ الفقدان الكلي لبريق الرحمة، متخلفين بعيدون عن معنى الانسانية، لقد استخدموا كل معاني الاذلال والقسوة معه، وزوجته زينب، التي رافقته حببية عمر، إذ سَفَرَت الحكومة أهلها جميعهم بواقعة التسفير المشهورة عام ١٩٧٩ بدعوى التبعية الايرانية، وهم بالمناسبة يمتلكون أطياناً في مدينة الحلة، بسندات عثمانية، لم تشفع لإثبات عراقيتهم، أخرجوهم من عزمهم وعوائل أخرى مثلهم منتصف ليل أهوج، حشروهم بسيارات عسكرية مكشوفة كأثم أسرى حرب، أنزلوهم دفعاً بأخامص بنادق على خط الحدود مع إيران من جهة خانقين، امرؤهم بالمشي باتجاه واحد لا يعرفون له نهاية.

توقف فؤاد عن الكلام ثانية وكأن حشجة حدثت في صوته فجأة ثم واصل حديثه:

ما زالت كلمات ذلك الشاب، لحظة مدهامته بيتنا (ارفعوا أيديكم إلى الأعلى أيها الخونة العملاء) باقية في أحافير ذاكرتي، لم يطمس معالمها النسيان، وما زلتُ أعيد تفاصيلها في كل مناسبة وكأنها وقعت بالأمس، كي لا يمحوها النسيان.

تدخلت زينب في سياق الحديث حاولت ثنيه عن الكلام سائلة، ألم تمل من تكرارها؟.

بادرها عاصم بالقول: دعيه يتحدث، فكل منا له قصة عنها سيتحدث، ودعينا نسمع واسمحوا لي أن أسجل بعض الملاحظات، سيكون هذا التحقيق عن العراق بين عدة أزمنة أكثر من رائع.

تشجع فؤاد، وكأنه قد أخذ تَوّاً جرعة تعزيز داعمة، رمق زينب بنظرة لا تخلو من التشفي الودود، واستمر في الكلام:

لقد دخل شاب بملابس مدنية عرفتُ فيما بعد أنه ضابط أمن، لهجته ريفية، يحمل مسدساً، يمشي متبختراً مثل ذكر طاووس في طريقه إلى التزواج، خلفه أربعة رجال بملابس مدنية نظيفة يأتمرون بأمره وإن كانوا يكبرونه عمراً، أسلحتهم مسدسات معلقة بأحزمتهم بشكل ظاهر ومقصود.

انتشروا في عموم البيت، كأثم احتلوا موقعاً عصياً لعدو لدود. ولما أكملوا انتشارهم تقدّم مني ذلك الشاب الضابط خطوات كأنّه يريد الاصطدام بجسمي القريب منه وسأل:

- أين هي الآثار التي بحوزتكم؟.

أجبت بارتباك وخوف كاد يشلّ لساني وهو يرتجف:
البيت أمامكم ويمكنكم التأكد بأنفسكم، نحن لا نتاجر بالآثار، وما
موجود هنا بعض تماثيل هي منحوتات حديثة.
ردّ الشاب بطريقة وكأنّه واثق من معلوماته: إنك تنتمي إلى حزب
إرهابي مخرب، تتاجر في الآثار، وزوجتك عميلة لإيران.

أجبتّه وقد زاد الخوف في داخلي وكاد يشلّ حركتي المتعسرة: أنا موظف
حكومي في الآثار، أعمل في التنقيب، وعمري لم أتاجر بأي آثار، لكنّي
هاوٍ لما أنتجته الحضارة البابلية، أما التمثالان اللذان أمامك فهما من نحت
محمود الغرباوي، أحد أعظم النحاتين الفطريين في العراق، معروف من أهل
قرية الجمجمة، يمكنك أن تسأل عنه هناك. كان محمود صديقاً قريباً، وهو
من قدمهما لي هدية في العيد، لكنّي لا أذكر أي عيد، فقد مرّ على
الموضوع آنذاك أكثر من عشر سنين. نظر الضابط إلى من حوله، طلب
تفتيش البيت، ومن ثم أدار عينيه المليئتين باتهام حاقد مخيف، قال: معلوماتنا
الدقيقة تفيد بأنك من الحزب الشيوعي وتنتمي وزوجتك إلى عصابة لتهرب
الآثار والمعلومات إلى إيران.

ابتلعت لعابي، قبلتُ تهمة الانتماء إلى الحزب الشيوعي، لتيقني من عدم
الانتماء رسمياً على الرغم من تعاطفي مع الحزب وأفكاري اليسارية. لكني لم
أستوعب مسألة التهريب والعمالة إلى إيران، تمنيت قضم جزء من حنجرتي
كي لا تجيب، لكنّها أجابت بكلام مخنوق شاحب، توقفتُ في طريقه
الكلمات عدّة مرّات.

.....

نظر فؤاد إلى زينب وعاود الحديث، بالقول: لقد حشدت كل مثيرات الشجاعة في داخلي، ركزت جلّ طاقاتي والاحتياط المضموم منها وخاطبت الضابط بكلام أتذكر بعضه، إنّ زوجتي تبعية، سُقِرَتْ عائلتها إلى إيران، والقانون يسمح لي بالزواج من غير العراقيات.

كانت إجابتي فيها قدر من الحماس يبدو وكأنّي أخذته حثّاً من ذاك الحماس الذي بدا عليه، أو من عفريت شجاعة بابلي قد تلبّسني فجأة وأكملت: إنّ الجريدة التي نشرت القانون موجودة، وإذا يسمحون بجلبها يمكن جلبها لتأكيد الكلام.

نظر إليّ شزراً، أحسست حينها، كأنّ إجاباتي المخنوقة نصل حربة غرسها صديق في ظهري العاري. شعرت لحظتها بالألم، لمستوى الاقتراب من التصديق أنّي قد طُعنْتُ من أحدهم بحربة، وعندما التفتُ إلى الخلف لم أجد سوى جدار أصم وزوجة ترتجف وأم مغشيّ عليها. ومع هذا فإنّ كلامي المنقوع بوهن الذل الأسود، دفع الضابط إلى أن يختصر مهمته، طالباً التوقف عن كلام وصفه أهوج لا يجدي نفعاً، وأمر بالسير معهم إلى دائرة الأمن دونما ضجّة.

دعوني أغيّر ملابسي، قلت إلى الضابط الشاب بلهجة لا تخلو من التوسل.

أجاب: لا داعي، ملابس النوم النظيفة على جسدك الأسمر الغض الناعم ملائمة لك لنوم سيكون طويلاً إلى أن تكشف لنا خلايا الحزب الشيوعي الكافر، وتحدّد طبيعة علاقتك بعصابة تهريب الآثار، وتدلنا على شركائك.

قلت: لا معرفة لي في قضايا التهريب، إذ إنني ومنذ إكمال دراستي الجامعية، عملت في دائرة الآثار وبالتحديد في مجال التنقيب بمدينة بابل القديمة، أعرف الغرباوي عن قرب، يحضر إلى منطقة الآثار بين الحين والآخر يفتش عن الأحجار التي تصلح للنحت، ويجلب بعض التماثيل، ليأخذ رأيي في مقارنتها مع مثيلاتها الأصلية قبل التوجه بها إلى بغداد لبيعها هناك، والحصول مني بالمرّة على معلومات تاريخية تفيد في اختيار تماثيله المرشحة للنحت، وهذا نحت وتسويق لا علاقة له بالتهريب الذي عنه تتكلّم.

خزني بنظرات فيها سهام حقد واضحة. قال: يبدو أنّك صلف، لا ينفع معك الودّ، ولا يمكن أن تتكلّم هنا في البيت وتقصّر علينا المشوار، تريد أن تذوق عذاب جهنم هناك في الدائرة، لكنّه عاد واستدرك: إنّك شيوعي، ملحد لا تؤمن بوجود الله ولا تعترف بجهنم عقاباً للكفار، عليه سنريك نجوم الظهر حتى تتكلّم.

سرت معهم مكتوف الأيدي إلى سيارة صالون؛ أجلسوني وسطها وأجلسوا إلى جانبي شخصين، أحدهما على يميني والآخر على الشمال، أمر الذي على اليمين، بخفض رأسي، فأنزله مطأطأ حتى لامس أنفي أرضية السيارة المغطاة بتراب آسن.

دقائق انتهت لا تزيد على العشرة، توقّفت السيارة، عند بناية مديرية أمن بابل المطلة على النهر في حي بابل.

دفعني الشخص الذي كان على يميني بحقد إلى داخل قفص، استقطع من غرفة قسمت ثمانية أقفاص، الواحد منها عبارة عن مشبك حديدي، مرّع الشكل لا يزيد ضلعه على المتر.

أغلق بابه من الخارج، تركني بملايس النوم حافياً أضرب أخماساً بأسداس وكأني حيوان بري، مطلوب تدجينه. قاومت مشاعري باحتقار الذات طوال الليل الذي لم أتم فيه لحظة. جلست على الأرض الإسمنتية في مسعى بداخلي لإبعاد النوم والحفاظ على تماسك ذاتي المهلهلة، رحت بالتفكير بعيداً، على أمل العثور على تفسير لما حصل، لكنّي لم أعثر. شعرت في الصباح برغبة في داخلي ملحة بمحاورة الشخص القابع في القفص المجاور على هيئة حيوان مدجّن، رفض التكلّم معي، كان مدعوراً وكأنّه جردّ وقع في مصيدة. استمرت قدرتي على الصمود كافية لإبقائي متماسكاً إلى المساء، تلمّست بعده وهناً ورغبة في الاستسلام. وهكذا استمر الحال بالتدهور في قدرات المقاومة إلى اليوم الرابع، يوم أرسلوا في الطلب لأغراض التحقيق مساءً، وجدوني مستسلماً مستعداً أن أعترف بأيّ شيوعي ومهرب آثار وجاسوس أو أيّ تهمة يطلب الاعتراف بارتكابها.



حي يهودي



يهود عراقيون قبل الهجرة



جسر الحلة قديماً



أكراد فيلية في أقباص الحجز قبل التسفير



مدينة الحلة قديماً



أكراد فيلية أثناء عملية التسفير قريبا من الحدود

راقصة وشاعر

التفت فؤاد إلى زينب وغَيَّرَ الحديث من مجريات اعتقاله وما جرى في أمن بابل إلى الغرباوي، كمن يريد الهروب من ذكريات ما زال خروج انفعالاتها مؤلماً، قال: كنت أنقُب قريباً من بئر المعبد يوم حضر الغرباوي في أول الصباح، سلّم أولاً ثم وقف جانباً، كان يكبرني عمراً بعدد من السنين، وفي الطول أطول مني قامة بكثير، أسمر البشرة، يضع كوفية على رأسه دون عقال، قليل الكلام، يحمل تمثالاً صغيراً أثار إعجابي، وكأنّه نسخة طبق الأصل من تمثال لخمورابي وجدته البعثة الألمانية مدفوناً إلى جانب البئر، معروض حالياً في متحف برلين. سأل:

- ما تقييمك الفني للتمثال الذي أحمله. سألته:

- كيف لك أن تبدع هكذا؟ وكيف تجعل تمثالاً منحوتاً في هذا الوقت، يبدو وكأنّه من زمن يعود في عمره إلى آلاف من السنين خلت؟. حدّق محمود في عينيّ وكأنّ في نظره الدقيقة رغبة جامحة بإقامة علاقة صداقة معي عاملاً وخبيراً في الآثار ومرد ذلك إلى معرفته بأصول والدتي التي ترجع إلى ابو حميد في قرية الجمجمة، ومرده أيضاً، تشخيص لاهتمامي بالماضي.

أعاد التحديق في عينيّ وأجاب: يسهر ليله ضارباً بمطرقة والازميل على حجر يستجيب لضربها مثل خليط الطين النقي، يفضّل العمل في أوقات حراسته لصومعة (حظيرة) التمر لآل الجادرجي في طرف القرية المحاذي إلى النهر، خارج سورها، أو في البيت، بعيداً عن الآخرين وإن لم يكن أحد من

أبنائها مهتماً لأمره. يخلق المنحوت. سكت بعدها واستدرك، مستغفراً الله،
ثم استمر:

يشكل المنحوت كما يرد في مخيلته التاريخية، يدفنه لغزاً أسفل قش رطب
لشهور ثلاثة، يبدو من بعدها هكذا وكأنه قديم، يُصدّق السائح القادم من
الغرب بقدمه أو يأخذه تذكّاراً وكأنه قديم، إذ إنّ بعض السواح خبراء
يميّزون ببساطة بين الأصل القديم والتقليد الحديث.

حاولت زينب ثنيه عن الاستمرار في الكلام ثانية، أحسّت وكأنّه أخذ
حصته وحصّة الآخرين، لكنّها فشلت هذه المرة أيضاً مثل سابقاتها. نظر
إليها نظرة فيها اعتذار وأدار رأسه صوب عاصم مبتسماً ثم استرسل:

أربع ليالٍ من الانتظار الموحش مضت في التوقيف، استدعيّت فيها إلى
التحقيق أخيراً، تبين أنّه ضغط موجه لتطبيق زينب، لأنّها من تبعية إيرانية.
حاولت المناورة وقدراي قد وهنت تماماً، لم أفلح، فأعطيت وعداً بإتمام
المطلوب بعد أيام من خروجي، ولما سأل الضابط لم بعد أيام من
خروجك؟. أجبت، كي لا يفسّر تطليقي لها وانفصالي عنها إكراهاً من
الدولة، وأنا موظف لا أريد الإساءة لسمعة الحزب والدولة.

سحابة التبرم التي كانت على الضابط المحقّق قد اختفت حالاً،
وأضاءت وجهه العابس ابتسامة مأكرة، أخبرني على إثرها أنّي سأعود إلى
وظيفتي، وأنهم سيوصون بعد إتمام فعل التطليق بترقيتي إلى منصب أعلى.

.....

كانت العودة إلى البيت في وقت قارب انتصاف الليل، ضاعت طوال الطريق فرحة الخروج من أفصاص التدجين، حلّت محلها فكرة التصقت في حواف الذاكرة قسراً من أن اللعبة لعبة أملاك تجري مصادرتها.

الورثة الوحيدة زينب مطلوب إزاحتها.

بيت العائلة الكبير في حي بابل يستحوذ عليه مدير الأمن، لا مجال للمناقشة.

كانت العودة خليطاً من مشاعر خوف لا يوصف ورغبة في تجنبه لا تقاوم، اجتزت في مسارها المتوتر عتبة الباب، جلست على التخت القريب، دنت مني زينب مسرعة، أخبرتها أنني أكاد اختنق، أعجز عن استنشاق الهواء، أحسّه ثقيلًا كأنّه مشبع بالدم الفاسد، كنت مرتبكاً قلقاً، وعند استعادي التوازن قليلاً همست في إذنها بصوت مهموم: لم يبق بدٌّ من ترك البلاد في أقرب فرصة.

صرخت وصدى صوتها الحزين، زاد خوفاً.

كتمت صرختها بكلتا يديّ. خاطبتها واقفاً هذه المرة وكأنّ الأصوات والجيران والحيطان ماتت من حولي:

هذا ما أقوله، وسأكرّر القول، خيرّوني بين الطلاق منها والعيش في منصب أعلى وبين تسفيرها قسراً واستمرار الحبس.

فكرت طوال الطريق من مديرية الأمن وحتى البيت وجدت أنّ الهروب معاً خيارنا الوحيد، حيث لا يمكنني الاستغناء عنها أو الوقوع في الأعباء القهر الاجتماعي. لقد انتهى كل شيء.

آه كم قاومت هذا الأفكار اللعينة، بعد زواج كان إتمامه صعباً، تحيّلت
استمراره وسط الجهل مسار جنازة إلى قبر مجهول، بذلت خلالها كل الجهد
وما أملك من طاقات، كي أبقيه مثلاً ناجحاً، لكنّي تيقّنت اليوم إثر
مساومة دارت بيني وبين أشخاص نافذين في الأمن، أنّ المكان الذي أنا
فيه وهذا البلد الذي أحببته، لا يساعداني على تحقيق أمنيّاتي بالعيش كما
كنت أحلم، وأنّ هناك بلداناً أخرى في هذا العالم الفسيح تفتح أبوابها
لأمثالنا كي يحققوا أمنيّاتهم.

بقائي موقوفاً لأربعة أيام دون سند قانوني، لا علاقة له بالآثار ولا
بالتهريب، ولا بالانتماء إلى الحزب الشيوعي الذي انفرط عقد الجبهة بينه
وبين حزب البعث الحاكم قبل أسابيع، بل بخطة تسفيرٍ عمدي، أصحابها
أكبر منا، نفذها طوعاً أو بالقوة.

ردّت زينب في حينه، وقد غمرها حزنٌ أشد قسوة من الخوف والتفسير
والهجرة:

وبيتنا، وأملاكنا؟. وأضافت:

لقد جرعت السم زعافاً يوم تسفير أهلها، وها هي لم تتخلص من ألمه
بعد. لقد سَقَتْها هذه الضربة سماً بجرعة أكبر ستقضي عليها، ستتحر هنا
في البيت قبل تركها وحيدة لأي سبب.

قلْتُ والدموع تنهمر من عينيّ:

سنغادر معاً هذه الليلة، نتكل على الله، نجازف بحياتنا من أجل
استمرار علاقتنا، لقد اطمأن ضابط الأمن وجماعته لوعده قديمته تقيّة،

وهي فرصة قد يغمضون أعينهم عنا عدّة أيام، يمكن أن نخرج خلالها أحياء.

سنفتّش في أرض الله الواسعة عن مكان يأوينا، أما البيت وأثاثه، فسأتركه كما هو ليسكنوا به ويعبثوا بموجوداته، الأهم:

- البسي عباءة وإن لم تتعودي لبس العباءة من قبل. تسلّلي في خروجك خلصة من باب الحديقة الخلفي اتجهي إلى أم حسين، اجلي ذهبك وذهب والدتك الموجود عندها أمانة، وإن سألتك عن السبب قولي، سيأتينا أحد الصاغة لتقييمه سعياً منا لشراء عمارة معروضة للبيع بسعر مناسب.

- لا تسأليني بعد الآن عن التفاصيل، أعتذر عن عدم الإجابة خوفاً عليك، استعدي من هذه اللحظة لمزيد من الخوف.

.....

استمر فؤاد مسترسلاً في حديثه، دون فواصل بين وصلته الأولى وبين هذه الوصلة، كأنّه يتحرّس على ما فاتته، أو على آمنيات لم تتحقّق في حياة بدأها في مدينة الحلة ولم ينهها في بابل الأثرية.

التفت إلى عاصم وباقي الجالسين حول الطاولة الثامنة من النسوة والرجال، يتأمل جلبهم إلى دائرة الانتباه لما يريد قوله وأكمل بعبارات فيها مسحة حزن: ليس من السهل أن تترك داراً لك فيها جذور. من غير المنصف أن تفارق جاراً ومحلةً وامتدادات تاريخ. ليس هيئاً أن تغادر دون وداع عزيز.

لقد حصل كل هذا، ومعه شعور بألم فقدان، وحيرة إنسان لحظة خروجي مكتوف الأيدي إلى السيارة الواقفة أمام الدار، يمسكني شخصان يسبقان ضابط الأمن، في مشهدٍ يشبه سوقَ محكومٍ إلى مقصلةٍ إعدام، وإلى حين مغادرتنا البيت خلصة متسللين من الباب الخلفي إلى بيت الرائد رضا عبود، صديق لي قديم عرفني عليه أحد أقارب والدتي في القرية جاسم حمود، أعرف أنه يمقت أفكار الحزب. لقد قصصت على رضا تفاصيل ما أصابني بإيجاز. سألني بانفعال وغضب:

- هل أنت مستعد للمجازفة، والتضحية بنفسك وزوجتك وما تملك؟.
أجبتُه دون التَّمَعُّن بالتفكير، بأيّ اتخذت قرارِي، وجئتُك صديقاً لمساعدتي، مدركاً تمام الإدراك لما سيأتي من تبعات.
إنّهما أهون على نفسي الخائفة من انفصال قسري عن حبيبة، لا لذنوب ارتكبتها أو تقصير حدث.

ردّ على الفور: لنتحرك الآن.
أدار محرك سيارته المسكوفيج، طلب من زينب الركوب إلى جانبه، وطلب مني النوم على أرضية الحوض الخلفي، غلّفني ببطانية جلبها من على سريره، كأنّني بضاعة معدّة للتهريب.
سرنا بالسيارة قريباً من الربع ساعة، توقّف إلى جانب الطريق، قال:
عدّل من جلوسك. عد إلى الوضع الطبيعي، لقد تم تجاوز الخطر، ثم أخذ البطانية وضعها في حقيبة السيارة ثم عاود المسير.

توقّف رضا للمرة الثانية منذ انطلاقه من الحلة قريباً من المتحف العراقي في بغداد، مدّ يده للمصافحة، أخذني بالحضن، أشار إلى أنّه لا يريد التعرف عن مكان المبيت هذه الليلة ولا الوجهة القادمة وما بعدها، طلب أن نترك له خبراً بعد الاستقرار في أي مكان بعيد عن هذه الدولة.

أخذني بالحضن مثل أخ، شعرت بدفء حضنه قريباً إلى قلبي. ثم دار بسيارته عائداً إلى الحلة، والليل قد انتصف تواء.

تركنا السيارة وصديق جازف بحياته، شاردي الذهن مذعورين، وقفنا على رصيف جانبي، قبل قرار الخطوة القادمة، فالعقل ما زال مشوشاً، طلبت زينب التوجّه إلى فندق لناخذ قسطاً من الراحة، فطفلنا الذي يحتل مكاناً في أحشائها قد تعب، فأجبتها بقدر من العصبية الناتجة عن الموقف الذي نحن فيه. بأنهم سيسجلون أسماءنا معا ويكتشفون أمرنا بعد ساعات، دعينا نتجه إلى مرآب النهضة نأخذ سيارة أجرة لما تبقى من الليل أملا بالوصول إلى غايتنا.

لكنّك لم تفصح عن غايتك، حتى هذه اللحظة، قالت زينب، فأجبتها: اتكلي على الله، في عقلي أفكار أحاول تطبيقها كما رسمتها، الأهم ما فيها تكوينين إلى جانبي ما تبقى من العمر.

تنبّه فؤاد إلى عاصم وهو يسجّل بعض الملاحظات، انتظر قليلاً ليتم كتابتها، وأكمل:

لقد اختلطت في داخلي تلك الليلة مشاعر الحيف والاضطهاد مع ما جرى ويجري، ودون تركيز على مخرجات الكلام، أخبرت زينب أنّ الغاية تبرّر الوسيلة.

قالت: لم أفهم.

أجبتها: إنّه قول لميكافيلي في كتابه الأمير، يبدو أن رئيسنا الحالي وقبل اعتلائه العرش، قرأه عدّة مرات حتى حفظ مادته عن ظهر قلب، وصار يطبقه بحذافيره، ونحن بتنا من ضحايا التطبيق، وسيأتي من بعدنا ضحايا له كثر.

اسكت، فللحيطان آذان، وما زلنا في بداية الطريق.

لم يمض لوقوفنا على الرصيف أكثر من دقيقة أشرتُ لسيارة أجرة كانت تمر بطيئة، طلبت من سائقها الذهاب إلى مرآب النهضة.

نقلنا اليه ومنه أخذنا سيارة أخرى رقدتُ في حوضها الخلفي زينب وقد مدت جسمها شبه نائمة من شدة التعب وجلست أنا إلى جانب سائقها نتناوب الحديث حتى وصولنا البصرة بعد شروق الشمس بقليل.

.....

انتظرنا في الشارع قريباً من شقة كان يسكنها سعيد عازباً مع الملازم فؤاد حسين صديق له في محلة الجمهورية، جعلتُ انتظاري بمواجهة سير السيارة العسكرية التي أوقفها السائق عند باب العمارة، خرج بملابسه العسكرية متماسكاً، ولما تحرّك به السائق، مشيت باتجاهه لأجعل اللقاء صدفة، نظر إليّ أولاً باستغراب، ثم أوقف السيارة، تعمّدت أن أكون بعيداً عنه خطوات كي ينزل، نزل منها ماشياً بسرعة تفوق الاعتيادية، أخذني بالأحضان، وأخذته جانباً، حكيت القصة باختصار.

قال: دقائق سأرسل السائق كي يجلب فطوراً، نستغل وقته، لتدخلوا الشقة، ابقوا فيها دون الخروج منها، حتى عودتي من المعسكر ظهراً، وسأتدبر كل ما جال في خاطرك.

سلم على زينب، صعد معنا إلى الأعلى، حمد الله أن زميله في السكن فؤاد قد ذهب في إجازته الدورية إلى بغداد لمدة أسبوع.

أحضر سائقه الفطور، ومن بعده استأذن بالذهاب إلى المعسكر، عاد منه بعد الثانية ظهراً بنصف ساعة محملاً بحزمة أفكار، طرح أولها بيع الذهب، ومن ثم تحويله إلى دينار. قال:

بيع كمية من الذهب وتحويلها إلى نقود، يحتاج من يوم إلى يومين، وحسب التساهيل، يفترض بقاء زينب طواها داخل الشقة، ثم ذكر أن صديقة له تعمل راقصة في ملهى بالشارع الوطني، ستتكلل بالأمر.

لكن الكمية ليست قليلة، كيف لراقصة تتكفل الأمر؟.

لا تقلق على الذهب يا صديقي، فهي ليست سياسية، ثم إنها ميسورة قد تشتريه مرة واحدة.

نظر سعيد في ساعته، وعدّ بالاتصال بها هاتفياً بعد الخامسة عصراً، لأنها تغطّ في هذا الوقت بنوم ثقيل الوزن، إذ رقصت في الأمس حتى أذان الفجر.

هنا وعند هذه العبارة، نظرت يسرى إلى سعيد، وقالت:

هذه الأنشطة لم أكن أعرفها عنك من قبل.

أجاب والابتسامة تملأ شفثيه، أنّ الحياة عزيزتي قبل الزواج ملكية خاصة، ولها حصانة خاصة، فضحك فؤاد، ثم أكمل: عاد سعيد قبل المغيب، قال: لقد اتصلتُ سمارة بأحد الصاغة، وتواعدت معه في شفّتها بحضورنا، الساعة السادسة مساء الغد، ليقمّ الذهب، وستحسّم الموضوع شراءً من قبلها أو منه شخصياً، ولنا أن نختار من يدفع أكثر.

ومن بعد حسم موضوع الذهب طلب الذهاب معه إلى الملهى ليلاً مستأذناً زينب، مشيراً إلى أنّها سهرة عمل، سيدعو لها، (علي الناعورة)، سائق تكسي، وشاعر، وأحد أشهر رجالات قرية الجمجمة، لو كان القدر قد أنصفه وعاش في المدينة وتعلّم في مدارسها لكان شاعراً لا يدانيه شاعر. تقدّمت سمارة إلى الطاولة بعد إكمال وصلتها الأولى رقصاً شرقياً هزّت طواله وسطها والصدر باحترافية نادرة، هزاً جلب لها تصفيقاً عالياً من جميع أركان الملهى. بعد إكمالها الوصلة جاءت ترتدي قميصاً أبيض تظهر من تحته مفاتن أعلى الصدر، وتنورة تمتد إلى ما دون الركبة، بانت وكأنّها سيدة صالونات من العوائل البصرية العريقة. سلّمت، وانتظرت الإذن بالجلوس، ولما جلست، قدّمت نفسها، وحال تقديم نفسي إليها فؤاد، سألت:

- هل بناء بيت لك يستحق بيع كمية الذهب التي قال عنها سعيد.

وقبل انتظار الإجابة عبّرت عن استعدادها لتسليفي مبلغاً يكفي بناء قصر بكلمة من سعيد. على أمل العدول عن بيع الذهب، زينة وخزينة كما يقول العراقيون. ختمت الموضوع بوعد لفضّه في الغد.



العقيد رضا عيود. جيل الضباط الأول



أفخاص التوقيف في الأمن



المقدم عباس مضحي المعموري. جيل الضباط الثالث^١



الملازم فؤاد حسين. زميل السكن



العقيد رحيم عمران/ جيل الضباط الأول



جاسم حمود الربيعي. أول من فتح مخبراً

^١. للمقدم عباس مضحي آمر كتيبة مدفعية فقد في الحرب العراقية الإيرانية في معركة حلبجة وما زال مفقوداً. من المرجح استشهاده.

شاعر القرية علي

التفت فؤاد إلى سعيد، وكأنّه يريد دعماً لروايته عن الهروب من الحلة إلى بغداد وصولاً إلى البصرة، ولما وجده مشغولاً بنقاش مع السيد داود وزوجته سارة عن العراق وبابل، عاود الكلام عن وجودهم في الملهى كمكانٍ للتخطيط للهرب، قال:

حضر علي الناعورة إلى الملهى متأخراً ولم يلتزم بالموعد المحدد، هكذا طبعه كما ورد في وصف سعيد، ميّال إلى التّمثّع بقدر من الحرية، مع تمردٍ في داخله على القيود، وقبل أخذ مكانه على الطاولة برّر تأخره بمشوار أوصل فيه كويتياً إلى أرض له في أبو الخصيب، طلب منه الانتظار لإعادته إلى الفندق، وقد فعل ما أراده، لقاء أجر جيّد، رزق جعله يفكّر أن يدفع حساب الطاولة هذه الليلة. ضحكت الراقصة سمارة وسألت:

- متى دفعت حساباً للغير يا علي؟.

ردّ عليها ببديهة شاعر:

عندما يكون من بين جلاسها فاتنةً مثلك.

نحضت من مكانها منتشيةً بجرعة غزل شاعر، ضحكت بشفافية، استأذنت قائلة، عليّ التهيؤ لوصلتي الثانية، وعليكم التّمثّع بوقتكم، وحساب هذه الليلة مدفوع.

راح علي بعيداً في تناول ما تبقى من زجاجة ويسكي فُتحت حال جلوسه على الطاولة، قال له سعيد:

لديّ مشوار أريد المساعدة في اتمامه. ردّ وقد أفرغ في جوفه جرعة أخرى من الويسكي:

رقتي سداة.

حاول سعيد شرح فكرته عن المساعدة في عملية تهريب فؤاد عبر الحدود إلى الكويت. أكد له أن لا حاجة إلى ذكر التفاصيل، طالباً تحديد الوقت المناسب وهو من جانبه سينقّذ كما هو مطلوب. ولما سأله عن الأجر المناسب، لعملية صعبة، لا يخلو تنفيذها من المجازفة بالحياة. ردّ بكامل وعيه، وكأنّه لم يشرب قط:

أنّ الخوض في هذا الموضوع أمر يحسب من الكبائر، ولا يليق بنا أبناء قرية واحدة، ثم كيف أتكلّم عن الأجر وأحوال فؤاد نسيان لنا في القرية. دعنا من هذا وعلينا إكمال السهرة، وستجدني في المكان الذي تريد والوقت الذي تريد.

والآن، علينا المغادرة، فقد أزف الوقت وغداً دوام، وفؤاد متعب يريد النوم، قال سعيد.

أجاب علي:

ومن قال لكم انتظروا؟، أنا باقي أتمتع، وقد أزيد متعتي بنصف زجاجة أخرى، ثمنها مدفوع من راقصة بنت أجاويد.

عدنا إلى الشقّة بعد تلك السهرة المطمئنة وفي الطريق بيّن سعيد وهو يقود سيارته ببطء، أن علي هذا شخص متمرد، كان في بداية شبابه، وسيم باتفاق أهل زمانه، شعر رأسه الذي تراه غزيراً أشيب يتركه أشعث عندما يخلع الكوفية

والعقال، ويمشي حاسر الرأس من بيته إلى المقهى، ومنها إلى النهر مشاركة
بجلسة سمر ليلية، صوته خشن مثل جسمه الخشن، مميّز عن باقي الأصوات،
شعره عذب لم تتح الفرصة أن نسمع منه الليلة، وإلقاؤه كذلك شيق، ينصت
له الجميع لَمَّا يلقي شعرًا، بينهم صبية في مقتبل العمر يفتشون عن معنى لِمَا
يقال.

إنّ علي المتمردّ هذا كما قلت، يغيب عن القرية مرّة، ليعود إليها كلّ
مرّة، يلقي على من يسمعه شعرًا، بعض أبياته كهذيان المحموم، لا يستطيع
تركها، ولا الاستقرار في ربوعها، قال مرّة في إجابة لأقارب والدته ياسين
طه سأله فيها عن أسباب العودة بعد غياب دام سنين:

إني أفكر في القرية لما تكون ورائي بعيدة، أتخيّلها جبالاً ضربت العائلة
عند سفحه خيمة، فأعود إليها مسرعاً لأمتّع نفسي بقسط من هدوئها، ثم
أستعدّ إلى جولة أخرى من الغياب أحصل منها على ما يكفي من قلق
الحياة.

كان علي شاعرًا، اكتسب شهرة ذائعة بصفته أعظم شاعر في القرية
والقرى المجاورة، أتعبت حياته وقوّضت انتشار شعره طبيعة العيش، وكثرة
التنقّل، بين القرية وبين البصرة التي عمل فيها سائقاً لسيارة أجرة، وبين
الكويت التي قصدها مع شقيقه عباس وهجرها كذلك سريعاً مثل هجرانه
القرية. وعن هجره الكويت، كان يقول، لقد هجرتها فهي مدينة تخلو من
الروح. سألته عن معنى الروح، حصر معناها ب(العرق)، وأكمل:

لقد عشقت الحمرة، عرقاً، تغنّيت بها شعرًا، لي معها قصصٌ وحوادث،
منها أنّي وفي كل مناسبة سنوية لعاشوراء عندما أكون موجوداً في القرية

أجلب معي صندوقاً من العرق يكفيني لعشرة أيام، يسري خلالها التحريم وتغلق محال البيع، لكثي وفي كل مرة أقضي على الصندوق قبل العاشر من محرم بيوم على الأغلب، فأواجه حرجاً في الشحّة، أتحير في كيفية مواجهته أو الخلاص من ضيقه، ولا خلاص الا بالتوجّه صوب عباس، هو يتحسّب مثلي لهذه الأيام ويكثر من خزينه، فيرفدني بزجاجة واحدة سلفاً يشترط أن أردّها بعد أسبوع من عودة البيع إلى مجراه الطبيعي، أتجاوز بها الحظر وأعبرُ بواسطتها إلى الضفة الأخرى بسلام. سألته في حينه:

- لم لم يضبط عشاق العرق وقع الحاجة؟.

أجاب بقدر من السخرية: (كيف تنام حميدة وفي بيتها عكة^(١) دبس).

.....

اتّم سعيد نقاشه الجاني مع داؤد، والتفت إلى فؤاد، قال:

استمر في الحديث، كنت وعلى الرغم من انشغالي مع داؤد أسمع، بطرف إذن تركتها لك وأخرى خصصتها له، ابتسم فؤاد وأكمل، أنّه وفي اليوم الرابع من وصولهم إلى البصرة، حضرت سمارة إلى شقّة سعيد ومعها عشرة آلاف دينار القيمة التقديرية للذهب، أضافت إليها خمسمائة أخرى قالت هذه هدية مسبقة منها إلى البيت الذي ستبنونه مباركاً لكم أينما يبني وفي أي أرض يكون.

في اليوم الخامس حضر علي بالاتفاق مع سعيد، وصل قبل مغيب الشمس بقليل، قال:

١. العكة، زقّ (وعاء) من الجلد لحزن السمن أو الدبس.

ستعشى في الزبير، عند أصدقاء له رجال ليل، قضوا وطراً من العمر
مهرين بين العراق والسعودية والكويت، وهم سيقرون الساعة التي ستم
فيها المغادرة، هذه الليلة حتماً.

رجفت شفاه زينب في حينه، تلعثت قليلاً، سألت:

- كيف يمكن ترك المصير بين سراق لا يؤمن جانبهم وبين حكومة لا
ترحم؟. ثم واصلت الحديث بانفعال واضح:

إنها عن نفسها تفضّل البقاء أو حتى تسفير يكونون فيه معاً على
مجازفة لعبور صحراء في الليل مع مهرّين أصلهم سراق.
أجبتها في ذلك الوقت:

لقد وصلنا إلى طريقي لا عودة فيه، وما علينا الا الاستمرار في السير إلى
الأمام، ثم سألتها:

- ألا تنسين أننا هاربين من حكومة تعرفين أنّها لا ترحم؟.

سكتت في وقتها، أثرت البكاء، على ردّ تدرك أنّه لا ينفع.

كان علي عاطفياً لا يقوى على تحمّل مواقف فيها مسحات حزن،
أدخل نفسه في ذاك الحوار الذي دار قبل مغادرة الشقّة.

قال موجهاً كلامه إلى زينب:

دعك من هذا الشك، ثقي بسعيد هو أقرب صديق لكم وهو يثق به
عارفاً بأمانة هذين الرجلين جيداً، إذ إنّّه اتصل بهم ثاني يوم الوصول، أبديا
استعدادهما لإتمام المهمة، أكدا معرفتهما بالطريق جيّداً من الزبير إلى

المراقب داخل الكويت، قالاً إنّهما سلكاه عشرات المرات، أوصلاً مطلوبين للحكومة وسياسيين كبار فَرّوا من البلاد.

ثمّ إنّهُ من سيقود السيارة، وسيكون واحداً منهم دليلاً، كما أنّه يعرف الطريق، والاتكال على الله مطلوب، والأمر بالتالي متروك لأولي الأمر. هدأت زينب قليلاً لكنّها لم تطمئن كما يجب، عادت تسأل علي:

كيف تعرفت على هذين الرجلين الغريبين؟.

أجاب: إنّهُ سائق تكسي، بمزاج، قضى خمس سنين متواصلة في شوارع البصرة، يعمل ليلاً وفي النهار، فلسفته في العمل، تلبية طلب أي شخص يكون وإيصاله إلى أي مكان يريد، يحسبها أحياناً جرأة وأحياناً يقول عنها ثقة مفرطة بالذات، وأحياناً أخرى يشبّه حاله بصوفي فشل في إدراك معنى العلاقة بالإله، فترك الحبل على الغارب. المهم استأجره رجل مخمور مرة، كان قد خرج من ناد ليلي في الشارع الوطني بحدود الساعة الثالثة صباحاً، أوصله إلى بيته في قضاء الزبير، وعاد أدراجه وقد اقتربت الساعة من الرابعة، غلبه عندها النعاس حال خروجه من المدينة واقترابه من المقبرة، إذ كان مخموراً هو أيضاً، ركن السيارة جوار قبر بني حديثاً لشخص يبدو غنياً، وقبل أن يغفو تماماً داهمه شخصان، هدّاه بمسدس كي يسلبا السيارة.

خاطبهما بأدب ولغة ودية:

لم الاستعجال، فالسيارة موجودة وهذه مفاتيحها أمامكم، وستجدونب أنا أيضاً إلى جانبكم، دعونا نكمل ما تبقي من الليل، نحتسي خمرأ ينسيني وجهيكما كي لا أزعج عقلي يوماً بالتفتيش عنكما، وينسيكما حالي كي لا يعذبكما الضمير في حال التفكير بقتلي.

استطابت لهما الفكرة، وكأتهما أخذه على قدر عقله، بدؤوا الحديث عاماً، أسمعهم شعراً في الغزل، طلبوا مزيداً من الخمر، حتى أكملوا المتبقي وزجاجة أخرى من خزين احتفظ به في حقيبة السيارة، ألقى من بعده شعر رثاء لذاته البائسة بعيداً عن دياره في قرية أحبها.

بكوا حتى أشرقت الشمس، أقسما بالطلاق على حتمية مصاحبتهما إلى بيتهما القريب لتناول الفطور، بعد تناوله ودّعه في الباب عائداً إلى البصرة بسيارته وفوقها وضع خروف هدية منهما.

من ذاك اليوم قبل سنة إلى هذا اليوم صاروا أصدقاء يتزاورون، بينهم زاد وملح، وهذان الأخوان هما من تكفل بإتمام المهمة إلى داخل الكويت. أخيراً، وبعد أن اطمأن على زينب، أشار عليها أن تسأل سعيد فهو قابلهما في الأمس وناقش معهما التفاصيل وله رأي فيهما يتفق مع رأيه.

.....

نصب العشاء خروفاً نخره سليمان الأخ الأكبر، دعا اليه بعضاً من أقاربه، عرّفنا لهم بأننا أصدقاء من بغداد، يرومون الذهاب إلى أخوالهم في السعودية. بعد إتمام العشاء، وتأدية الصلاة جماعة، قال:

لنتّكل على الله.

جلس علي خلف مقود سيارته ردّد دعاءً (أعنا يا الله). وكأته بهذا الدعاء البسيط، ترك كل هموم دنياه، واستعد لاستقبال طريق مجهول بعزم وإصرار. بدايته صحراء، استمر فيها سيراً عشرين دقيقة، بسرعة تقترب من الوسط. أشر في نهايتها سليمان على أثر لدواليب سيارات على الأرض،

طلب من علي التّوقُّف على الفور، نزل يتفحّصها على ضوء مصباح يحملها، شمّ تراهما مرتين، أكد أنّها دوريات لشرطة حدود مرّت قبل قليل، طلب عندها الاتجاه إلى الغرب.

مثّلها قطعنا مسافة لعشرين دقيقة، ولما اطمأن إلى الطريق وانتهى إلى مكان منعزل وآمن على يميننا، أشر على جبل سنام. طلب الاستمرار في السير غرباً، مؤكداً أنّهم وبعد ربع ساعة سيرون أثراً لحيم بدو غادروها قبل أسبوع لرعي أغنامهم في الأراضي السعودية، اجتيازها بخمس دقائق يعني دخول الأراضي الكويتية.

كان وصف سليمان دقيقاً، اجتزنا أطلال البدو وأماكن خيامهم، دخلنا الحدود الكويتية، بعد قليل من دخولها، طلب تصحيح الاتجاه صوب الجنوب الغربي، وسلوك خط مستقيم، هو المسار الأمين، مؤكداً أنّ الكويتيين على هذا المسار لا يخرجون دوريات في الليل، ومن يجدونه في النهار لا يعيدونه إلى البلاد.

تنفست زينب الصعداء، أرخت يدها من على يد لي كانت تمسكها بقوة طول الطريق، وضعتها على كتف علي المنهمك بالسياقة بكل حواسه، قالت: حقاً أنت علي وأنت أخو أختك كما يقول العرب، ولا يهون عمي سليمان.

اقتربت الساعة من الثانية بعد منتصف الليل، طلب سليمان من علي، التّوقُّف عند بيت منعزل عن باقي بيوت قرية في المرقاب، وصف صاحبه واحداً من أرحامهم، منوهاً أنه من يتكفل بالمطلوب في عموم الكويت حتى الخروج النهائي بسلام، مؤكداً أن مخالفة تعليماته ممنوعة.

أوقف علي السيارة عند البيت، نزل منها سليمان، طرقَ بابها بعصاه، خرج رجل يقترب في العمر من عمره، حيا كل منهما الآخر بحرارة، أشر لنا بعصاه أيضاً أن نزل. مشينا الواحد بعد الآخر، على ممر طويل من الباب الخارجي لسياح يحيط بدار من طابقين إلى باب الدار الداخلية.

وجّه سليمان كلامه إلى الكويتي قائلاً: هذا فؤاد وزوجته أمانة عندك سيشرحون لك وضعهم ومطالبهم، أما هو وصاحبه علي، لا وقت لهم للدخول في التفاصيل، سيشرّبون القهوة ويعودون أدراجهم.

أخرجتُ من المبلغ الذي أحمله خمسمائة دينار وضعتها أمام سليمان، اعتقدت أنّها أجر كافٍ للعملية، قال وهو يضحك:

أرجعها يا ابن العم، لقد سدّد صاحبك سعيد الأجر مضاعفاً.

احتفظ بنقودك، أنتم تنوون غربة ستكون طويلة، يمكن أن تحتاجوها هناك. نخض من مكانه نشطاً ونخضنا من بعده. سلّم علينا وعانقنا، وكأنا من أهله، ومثله فعل علي وتركنا عائدين في طريقهم إلى الزبير.



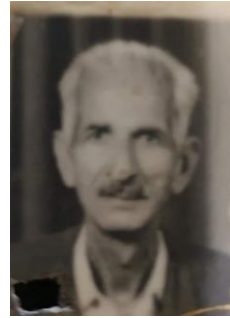
يوسف خليل السلامي. جيل المعلمين الثالث



ياسين طه السلامي / جيل المعلمين الأول



المعلمان حسين علوان وفاضل منخي^١



مضحى عزاوي عبد الرضا السلامي



فخري حمدان المعموري



عباس جبار الكعبي

^١. المعلمان حسين وفاضل من معاصري الشاعر علي حسون علوان شلاش المعموري، (علي الناعورة) وفخري ابن عمه.

مقهى على الله

إنّ الكلام عن القرية، وحكايات أهلها وأحداث مرّت بها، لا تكتمل صورها، ولا تفهم مقاصدها دون المرور على المقهى، أحد معالمها المعروفة قال سعيد، واستمر مؤكداً، كان هناك مقهى واحد من بين ثلاث مقاهٍ هي الأشهر، صاحبها (على الله)، الأقرب إلى قلوب غالبية أبناء القرية في ذاك الزمان، وقف وسطها يوماً بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، مشيراً بقدر من السخرية إلى أنّ العالم وبعد خسارة الألمان حركهم ضد الحلفاء سيتغيّر، والمقهى تماشياً مع هذا التغيّر لا بدّ أن تتغيّر وتتطوّر، سيرمي كراسي الجريد التي تشققت وموجودات صارت لا تنفع، وسيتوجه إلى توفيق نجار القرية، يطلب أربعة تحوت من خشب الصاج ومثلها طاولات من الخشب ذاته، سيدفع عشرة دنانير، على شكل أقساط، في الشهر دينار واحد، هي قدرة المقهى، لا بدّ أن يتقبلها توفيق لأنّه من رّادها، وكأنّه صاحب الفضل على توفيق وهو من يملي عليه شروط الشراء.

قصده عصر اليوم الذي قرّر فيه التغيّر، استلم الطلب جاهزاً بعد أسبوعين، حلّ على المقهى عصرٌ جديدٌ، كل شيء من موجوداتها قد تغيّر الا بابها الخشبي، أبقاها مغطّاة بلوح معدني يتراقص عند هبوب الرياح، وأبقى السُلّمَةُ التي تؤدي إلى داخلها، محفورة، تلزم النازل من عليها بأخذ احتياطاته كي لا يتعثّر. رّادها لم يتغيّروا، ولم يتأخروا عن مواعيد جلوسهم على تحوتها الجديدة، منذ ساعات الصباح حتى حلول المساء. موقد

الحطب (الوجاغ^(١))، القائم منذ نشأتها وضع إلى جواره وعاء لتسخين الماء (سماور) كان قد جلبه خصيصاً من إيران إبان زيارته الإمام الرضا قبل سنة، وإبريق شاي كبير (القوري) وقرينه المعد للشاي الحامض (نومي البصرة) دخلا الخدمة حديثاً من إنتاج بريطاني، ليتسيدا الموقد بعد عصر التغيير.

أدوات أكسبها السخام لوناً أسود تتمّ جليها، ورائحة النفط لم تعد موجودة ولم يعد أحد يشمّها، بعد التوقّف عن استخدام (البريمز)^(٢). الطابوقة التي تحتضن الابريق عند رفعه من على الجمر، باقية في المكان لم تتحرّك، إنّها من أصل بابلي لم تصدأ. ومصباح الانارة (اللوكس)، الذي وصل حديثاً تتمّ تعليقه بسيخ حديد معقوف ينزل من الجذع الوسط لسقف تزيد جذوعه عن العشرين جذعاً.

كل هذا مطبوعٌ في ذاكرة سعيد البعيدة لم يمسه النسيان، كذلك صاحبها (على الله) الشخصية التي يعرفها صغير القرية وكبيرها، بجسمه النحيل وعيناه الرصاصيتان الغائرتان، وبصره الضعيف، وشعر لحيته الأشيب المبعثر على وجه شاحب أبيض يميل قليلاً إلى الحمرة مثل نبات عاقول نمت في أرض سبخة، وعقال على الرأس فوق كوفية تتدلى على ظهر سترة لونها داكن، جعلت هيئته وسطاً في اللبس بين الريف والمدينة.

١. الوجاغ، كلمة دارجة في اللهجة العامية، هو موقد نار من الحطب أو الفحم، وعادة ما يكون في المقاهي أو المضائف.

٢. البريمز، جهاز للطبخ نفطي صغير، دخل العراق مع الانجليز بعد الحرب العالمية الأولى، يعمل بضغط الهواء عن طريق مكبس في نهايته قطعة جلدية لحبس الهواء وإدخاله، وكلمة بريمز هي في الأصل اسم الشركة السويدية التي كانت تصنعه.

كان رجلاً محترماً لا تفارقه الفكاهة والمزاح، يجيد صنعته، يلاطف الزبائن في حركته بينهم، لا يهدأ، كأنه يؤسس في ديمومة نشاطه على محرك يعمل بوقود الديزل، لا ينطفئ طوال النهار، هو الأكثر من بين أصحاب المقاهي بيعاً للشاي الذي يدفع الزبائن ثمنه نهاية الشهر، يذكر شاب من أهل القرية قبل تسلّم منصبه سفيراً في ألمانيا، كان (على الله) يبيع الشباب وهو منهم شايّاً يدفعون قيمته ما بعد التعيين أو التخرج، يسدّدونه ديناً غير مكفول بعد سنين، طريقة حسابه، بالرجوع إلى قوائم خطّها على الحائط بقلم رصاص، بالطريقة ذاتها التي يسجل لاعبو الدومينو فيها نقاط المفاضلة في اللعب.

الرجل طوال حياته العملية كان نشطاً يحبّ مهنته، يرى في العادة متنقلاً بين الزبائن، حاملاً في يده اليمنى ثلاثة أقداح شاي بصحونها، يلفّ على الطاولات، يداعب الجالسين طوال أيام الشتاء والصيف، وهم جميعاً من المعارف والأصدقاء، يرّدون دعابته بمثلها.

الغرباء من المستطرقين قليلون، بينهم أصحاب سفن شراعية وملاحون يجرونها بحبال عند اتجاهها صوب الشمال تمخر عكس التيار الجاري لمياه النهر، يتوقفون في شواطئ القرية لتحميل عرق السوس المنتج من ضفاف نهرها أحياناً، وأحياناً أخرى تموراً عندما تتحسنّ المواسم، يقصد بعضهم المقهى يأخذ منه مكان استراحة وسبيلاً لشرب الشاي لا سيما في هذا المقهى.

صار بعضهم صديقاً له، عنه يتكلّم في أحاديث تدور مع الزبائن في أوقات الكساد قبل الظهر، يخصّ بالذكر منهم نشوان الذي قال عنه انتقل

إلى البصرة بعد توقّف تلك السفن عن المرور وتوقف إنتاج عرق السوس وتدني محصول التمر، إثر مقتل الملك ونجاح الثورة، ليعمل هناك بحاراً على إحدى السفن الناقلة للتوابل من الهند، وقال إنّ سفينته فُقدت في عاصفة قبل بلوغها مضيق هرمز على الخليج العربي، ومن يومها لم يظهر.

.....

كان (على الله) رجلاً مسالماً، ربّما لجسمه الهزيل سببٌ في إكسابه هذه الصفة، تسجل في عموم تاريخه صاحب مقهى شجارٍ لمرة واحدة فقط، انتهت بنهايته صداقة توثّقت مع خصم تشاجر معه، هو حسين الشهيد، صاحب جسم يفوقه طولاً وضخامة وقوة عضلات، مشاجرة بات يكرّر مشاهدتها على سامعيه دون ملل، منتشياً بحنكته في حسم نتائجها إلى صالحه، وخلّاصتها أن حسين طلب شايّاً وهو جالس وحده على تحت منفرد في شمس شتاء لذيدة، وكان المقهى مزدحماً، (نسيّ على الله) طلبه، ولما كرّر حسين الطلب، ردّه بقصد الاستشارة ودياً وإيجاد موضوع لترطيب الأجواء: وهل قامت الدنيا، لم العجلة وهناك في المقهى كثيرٌ من الزبائن مستعجلون أيضاً؟.

يبدو أنّ حسين كان منزعجاً من شيء ما، لم يصرّح به، قام من مكانه، توجّه نحو (على الله)، مسكه من وسطه، ضغط بيديه على أعلى بطنه ضغطاً قوياً كاد يخنقه، أعلن هو الاستسلام قولاً صريحاً أمام من وقف يتفرج دون التدخل، لكن حسين لم يرخ عضلات يديه القويتين، بل وعلى العكس من تمنياته وباقي المتفرجين في إرخائها، بات يشدّها بقوة مصارع

روماني تفرد بخصم غشيم يدخل الحلبة حديثاً، شعر (على الله) أول مرة في حياته وكأنّ معدته تخرج من فمه، تسدّ مجاري تنفّسه، فكَرّ بكيفية الخلاص، والوقت من أمامه ينفد، وكذلك الهواء الداخل إلى رئتيه مع كل ضغطة بيدي حسين الحاكمين.

جمّع قواه، حرّر يده اليمين، نقلها قريباً من أنفه، وضع إصبعه الإبهام على فتحة منخره اليمين والسبابة على الفتحة الأخرى، أغلقهما تماماً، ثم فتحهما سريعاً إبان ضغطه على مجرى التنفس من أعلى الأنف بقوة، استخدم خلاها كل خزين الهواء في رئتيه دفعة واحدة، خرج على إثرها المخاط مخلوطاً بالهواء سريعاً كأنّه رصاصة انطلقت من بندقية صيد، أصاب عيني حسين، إصابة مباشرة، فالتسديد كما يقول ويفتخر دائماً أنّه تسديدٌ دقيق، مثل قناص في حرب، فصارت غشاوة شديدة سدّت عينيّ حسين، وحرقة أربكت قدراته على الاستمرار بالضغط، فتحوّلت النتيجة إلى صالحه، فكاً لحصار مطبق على الوسط الواهن، وتركيز الجهد المتاح من جانب حسين على حلّ مشكلة البصر، عندها انتهت هذه الواقعة الكبرى إلى صالحه، إذ فكّ حسين تشابك يديّه ليداري غشاوة عينيّه، وهو يضحك، جلس على التخت يضحك، جلب له (على الله) شاياً قال هذا من رأس القوري.

شرب حسين الشاي، خاطبه وهو يضحك، بما أنّك فزت في هذه الجولة وباقتدار عال، ستكون مدعوّاً ومن تريد دعوته من رواد المقهى على

غداء في البيت، سيكون (خميسة^(١)). ذهباً إلى الغداء، وصاروا من بعدها صديقين قريبين.

.....

زاد (على الله) في عملية تجديد المقهى من طاولات لعب الدومينو، بعد اقتراح أبو عزيز، زيادتها، وهو المترّع على عرشها ثلاثة عقود من الزمان دون منازع.

أبو عزيز، عمران الحمود شرطيّ في معاونة شرطة الحلة، مرّحّ كأنه لم يرّ الهم في حياته،

مولع بلعبة الدومينو، ينتشي بضرب قطعها (البول ٢) على الطاولات الخشبية. يبدأ مشوار اللعب، بنوبة ضحك وينهيها بأخرى مثلها، وكثيراً ما يكون طرفاً في مقالب تحصل في ساحتها، في إحداها انتظر فريق اللاعبين عودته من المعاونة ظهر آخر يوم من شهر مايس، وكان قد تسلّم راتبه مع المخصّصات اثني عشر ديناراً، وضعها في جيب سترته الأعلى، سألها سلام عباس حال وصوله المقهى سؤالاً طالما تكرّر:

- أين أنت يا رجل؟. لقد تأخرت، انتظرنك على أحرّ من الجمر منذ ساعة. لم نبدأ اللعب الا وتكون موجوداً، فهو من دونك باهتّ بلا معنى.

تقدّم أبو عزيز من سلام خطوات، اقترب منه أكثر، وأزوار بدلتها العسكرية مفتوحة عن آخرها، فدرجة حرارة الجو كانت مرتفعة، أجابه

١. الخميسة، أكلة شائعة في الريف العراقي من الحليب الذي يسخن، ويدار على الثريد، ومن ثم يوضع عليه الدهن الحر حاراً.

٢. البول، قطعة واحدة من قطع الدومينو البالغة ثماني وعشرين قطعة.

بهدوء، ألم ترَ أنّه جاء مشياً، من الطريق العام، إذ لم يلحق على آخر رحلة لسيارة عبس، فاتته، إثر تكليفه من قبل الغيث أمر المركز قبل الساعة الثانية بخمس دقائق، لاستلام شاب مُسكّ متلبساً بسرقة دجاجة، وإيداعه التوقيف. عليه الذهاب إلى البيت أولاً لملء معدته الخاوية جوعاً، ولبس الثوب بدل البدلة، ومن ثم العودة باستعداد تام لجولة لعب، سيكون لها بكامل قواه الهجومية.

لكن سلام لم ييأس، بدّل من لهجته الحازمة إلى أخرى تتسم بقدر من التودّد والاسترحام في سعي واضح للاستدراج المنظم، قال: أبا عزيز، يرحم الله والديك، سيكون شوطاً (فراً)^(١) واحداً، مقداره نصف ساعة من الزمان، يمكن عدّه تأخيراً في الدوام، ثم أكمل مبتسماً كعادته، لقد انتظروا طويلاً، ولا مبرّر لكسر الخواطر.

أثنى على قول سلام هذا، ثالثهم عبد علي عبود المانع، أشرّ بيده اليسار إلى (على الله) طالباً أربعة شاي، وبيده اليمين، حرّك قطع الدومينو كمن يريد إغراء الرجل. خفّف أبو عزيز من تصلُّبه القائم، التفت إلى الجالسين الثلاثة من حوله، قال: لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، ثم عاود تكرار عبارته المشهورة، شوط واحد فقط. انتهى الشوط، الذي كان الشروع به مشروطاً بواحد فقط، خرج منه أبو عزيز خاسراً، صاح سلام متهمكماً وبصوت عالٍ يسمعه كلّ رَوّاد المقهى: كم أنت غشيم، لا تجيد اللعب. ثارت نائرة أبي عزيز، دخل في الشوط الثاني متحدياً، دون التوقُّف عند الشرط الذي وضعه أن يكون واحداً، بغية تعويض الخسارة والتخلُّص

١. الفر أو الداس، مصطلحات لعب خاصة في الدومينو تعني اللعب دوراً واحداً.

من تهكّم سلام، وهكذا دخل في نوبة لعب لم يخرج منها حتى تلقي الإشارة من (على الله) بأنّه سيغلق (يعزل) المقهى.

بدا حين نهض أبو عزيز من على التخت ناحلاً وأزّار بدلتة العسكرية ما زالت مفتوحة، استمرّ في المشي قريباً من البيت القائم إلى جوار الرهيمية، البستان. توقّف عند بابه، أعاد أزّار البدلة العسكرية إلى مكانها ثابتة، بدت في وسعها وكأّتها أوسع من حجم الجسم الذي تلبّسها، بعد التصاق البطن بعظام الظهر جوعاً. أبطأ في مشيته حال اجتياز العتبة المستوية لباهم المفتوحة، نادى أم عزيز أن تُحضّر العشاء لأنّه ما زال على لحم بطنه.

في اليوم الثاني تكرّر المشهد، حضر خلاله أبو عزيز، نازلاً من سيارة عبس، تلقفه سلام مرحباً بعباراته الودودة، وإغراءاته المثيرة لاستجلابه إلى ساحة اللعب فرّاً واحداً كوعد الأمس، انتهى بتفوّق أبو عزيز وربحه الشوط الأول، قال بعد انتهائه متفاخراً إنّ اللاعب الأحسن في القرية، متهماً الثلاثة الباقين بالغشيم. ردّ سلام، ذلك إلى الحظ الذي يحالف الغشيم هذه المرّة، فقط هذه المرّة، واللاعب الأحسن من يخرج نهاية المشوار وفي بطنه ستة أقداح شاي على حساب خصومه ربحاً. ثارت ثائرة أبي عزيز متحدياً سلام وصحبه، قال: سألعب فرّاً جديداً لنرى من هو الغشيم ومن هو اللاعب الأحسن. بدأ اللعب شوطاً ثانياً وثالثاً، واستمرّ هكذا حتى حضور (على الله) والاعلان عن موعد غلق المقهى، ليذهب بعدها إلى بيته جائعاً على لحم بطنه كما كان يقول كل مرّة.



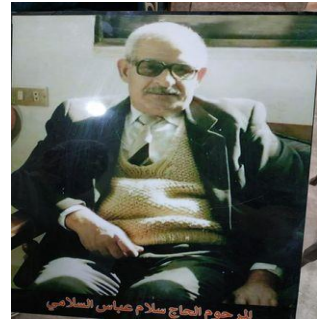
علي جاسم، علي الله صاحب أشهر مقهى



مقهى الصبغلاوي، استمرت عشرات السنين^١



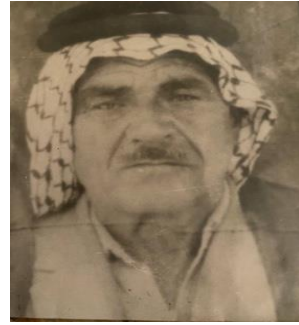
عبد علي عبود مانع الباي



سلام الحاج عباس السلامي



السفن الشراعية في نهر الحلة



محسن خلف جواد العبيدي. شرطي

^١. تناوب على إدارة هذه المقهى التي كانت واحدة من ثلاث مقاهي قديمة عدة أشخاص بينهم هادي العدائي، وعبد الأمير نجم الربيعي وعبيس خضير الربيعي (الملقب بالصبغلاوي) الذي استمر بإدارتها أطول فترة حتى آلت إدارتها من بعده إلى أولاده آخرهم يحيى عام ٢٠٢٠.

حكايات من داخل المقهى

المقهى في ذاك الزمان، واقع يمثّل مجتمع القرية، جانب منها نادٍ اجتماعي ترفيهي، نشط بعد ضعف المضيف، وجانب آخر آلة قتل مستنّة للوقت الفائض عن الحاجة بعد أن صار العمل في الزراعة إثر مقتل الملك باهتاً لا يثير الاهتمام كالسابق ولا يجد البعض من الفلاحين في مجاله جدوى تفوق متعة الجلوس في مقهى ولو في حالة صمت. وجانب ثالث ثقافي إذ يتبادل على تخوتها الجالسون الأحاديث والحكايات، يتناقشون في شأن السياسة ويستعرضون الذات شبه المحصورة في محيطها وأبعد منها. روى سعيد حكاية عن أربعة جلسوا على تحتين متقابلين في مقهى (على الله)، كانوا قد تجاوزوا في العمر وسطه، ما زالوا نشطين وما زال أربعتهم يسعون إلى تأكيد ذواتهم مختلفة عن باقي الذوات التي لم تخرج من محيط البستان.

بدأ سبهان أكبرهم عمراً في الحديث عن ذاته المتحدية، قدّمها بصيغة واقعة حصلت له يوم كان شاباً في العشرين من العمر، وكانت في داخله رغبة بالتحدي وإثبات الرجولة، يوم كان السطو والسرقة من بين الأعمال التي تعزّز الفخر بها ليس في القرية الجمجمة فقط بل وفي عموم الريف الحلي، وكان قد تابع رجلاً ماشياً في شوارع مدينة الحلة يتلقّت من حوله، حسن المظهر، متماسكاً كأنّه محارب، يفوقه ضخامة وطولاً.

حاول بعد الاقتراب اليه من جهة اليمين دَسَّ يده في جيب صاية^(١) الرجل الذي وصفه متماسكاً، لم ينجح، لكنّه لم ييأس، فتابعه مشياً حتى محطة القطار، صعدَ في ذلك القادم من بغداد متّجهاً إلى البصرة، وصعد من بعده دون أن يتنبّه إلى صعوده.

جلس على كرسي خشبي يقابله، ببرودة أعصاب كمن أخذ جرعة تخدير موضعي، أحسّه محتاراً بكيس صغير يحوي شيئاً ثميناً يحمله، ولتشيت انتباهه أشعل لفافة أخذ منها نفساً بشراة عكّر دخانه أجواء العربة، ثم نهض من بعدها متّجهاً إلى مطعم القطار، جلب زجاجة فارغة، كسّرَها قطعاً صغيرة، صارت تُحدّث صوتاً في حال تحريكها، يشبه احتكاك النقود المعدنية مع بعضها، وضعها في كيس التبغ خاصته، ثم عاد إلى مكانه أمام الرجل الحلبي. تظاهر وكأنّه قلق، تتم بصوت مسموع: كيف يخفي كيس نقوده، اذا أخذته الغفوة؟. وفي سياق التمتة حرّك الكيس كي يظهر الصوت، فظهر جلياً يشبه ما تحدّثه النقود والحلي المعدنية إذا تحرّكت محتكة مع بعضها.

تنبّه الرجل لما دار حوله، عمل من نفسه نائماً كي يعرف المكان الذي سيختفي فيه كيس الحلبي المزيف أسفل الكرسي.

توقّف القطار في محطة الهاشمية، أخذت الرجل المتماسك غفوة عابرة، رمشت خلال ثوان منها عيناه كأنّه يحلم، فالتقط هو الكيس خاصة الرجل بخفة صياد حجل، واتجه إلى الباب. صقّر لحظتها مراقب الخط إيذاناً بحركة

١. الصاية، رداء طويل ينزل إلى حدود الكعبين، من القماش، دون أكمام، يلبس فوق الجلاية وتحت السترة.

القطار، فقفز إلى الرصيف تاركاً كيس الزجاج في مكانه بانتظار القطار
الراجع إلى الحلة.

ضحك سبهان مزهواً بعد إكمال عرض القصة، أشار إلى أنّ نتيجة
تحديه كانت أربع قطع ذهبية لقاء كيس تبغ خالٍ من التبغ.

.....

قال هاشم الموسى، الجالس على التخت المقابل، حال إكمال سبهان
قصته: إن له قصةً فيها من التحدي والجرأة تفوقان تلك الموجودة في قصة
سبهان.

أبدى الجالسون القريبون منه استعداداً لسماعها، بتوجه لإخراج لفافات
مصنوعة ذاتياً من تبغ، يبيعه جواد الشكر في محله بالآجل، أشعلوها بعود
ثقاب واحد تبادله سريعاً، إيدانا بالسماع، شجّعهُ للبدء بتأكيد أنّه وكما
يعرف الجميع من أبناء القرية تاجر سلاح، يذهب إلى مدن العراق جميعها
لبيع وشراء أسلحة مهربة من إيران والسعودية وسوريا، يضعها في حزام
تحت الصاية إذا كانت مسدساً واحداً أو اثنين أو حتى ثلاثة، أما إذا زاد
الكم عن ذلك أو احتوت الصفقة على بنادق فيرتّبها في كيس من القنب
يحمّله بنفسه أو بأحد سيارات الأجرة يدفع الأجر مضاعفاً. قصد ذات
مرة ناحية الخضر في السماوة، كان له صديق هناك من أكبر مهربي
السلاح قدرة، في عموم صحرائها، عرضَ عليه بضاعة جيدة فيها ربح
وفير، اشتراها في الحال لتفادي منافسين كانوا موجودين في المدينة، وكان
لذاك المهرب شرطي يحسبه وكيلاً له في جمارك المنطقة يخبره عن موعد
خروج الدوريات السيّارة على الطرق والأماكن المقصودة تحديداً، لقاء ربع

دينار لكل معلومة يقدّمها مضمونة. لم يحضر الشرطي إلى الدار حسب موعد متفق عليه في ذلك اليوم الذي تمت فيه الصفقة، لسبب نوه عنه البائع أنّه كان مكلفاً بنوبة حراسة بديلاً عن شرطي غاب عن واجبه فجأة. صار الأمر حرجاً، وصار الوقت متأخراً، اقترح المهرب البائع تأجيل المغادرة يوماً، لضمان المرور على طريق لا ينقل عبره سلاحاً دون معلومة مطمئنة يقدّمها الشرطي المعهود.

أكد لسامعي قصته، أنّه لم يأبه للتحذير وأنّه قد عهد الأمر إلى الله، هو الحافظ الأمين، عليه أخذ البضاعة، وأنّجه إلى محل في السوق العتيق، اشترى منه بعض أوانٍ وقدر معدنية، وضعها في الكيس ذاته مع البضاعة (ثلاث بنادق صيد، واثنان بنو، وأربعة مسدسات وبلي، فكّك أقسامها وعشر علب عتاد مختلفة). استأجر من بعدها سيارة صالون، دفع لسائقها دينارين لقاء إيصاله إلى القرية.

سارت السيارة في الطريق آمنة، وعند نقطة قريباً من مدينة الديوانية نصبت دورية لشرطة الجمارك كميناً، تعكّر وجه السائق خوفاً، فوضع يده على كتفه، طلب منه أن يقوى، نوه بأن موجودات الكيس قدورٌ جلبها عينةً لعرضها على تاجر في مدينة الحلة.

أشّر الشرطي بالوقوف، دنا منهم، نظر إليه نظرة استغراب كأنّه عرف أنّه غريب عن هذه المناطق، سأله عن محتويات الكيس، فأجاب أنّها أوانٍ معدنية، وهزّ الكيس بقوة أحدثت صوتاً، ودون تردّد منه أو تأخير أرخى باليد اليمين خيطاً يغلق الفوهة، فظهرت الأواني، ومدّ يده اليسار في جيبه أخرج خمسة دنائير وانتظر ردّة فعل الشرطي. وحال طلب الشرطي إخراج

الأواني من الكيس، وضع خمسة دنانير في يده التي امتدت للتأكد من المحتويات. عندها أدخل الشرطي نصف جسمه في السيارة، وضع الخمسة دنانير في جيب سترته العسكرية اليمين، أكد لزملائه أنّها أوانٍ وأعطى للسائق إشارة بالتحرك السريع.

كان السائق في وقتها وكأنّ الدم قد تجمّد في عروقه، استمر في الطريق صامتاً حتى الوصول إلى القرية وقت المساء، صار ضيفاً له تلك الليلة، أكرمه بدينار إضافي، غادر في صباح اليوم الثاني دون أن يسأل عن قرعة السلاح التي بانت واضحة عند النزول وعن قصة الأواني داخل الكيس.

.....

كان ثالثهم في هذه الجلسة، حسين الداود، قال عن نفسه سيحكي تفاصيل سرقة كانت مثيلاتها تتكرّر في محيط القرية لمواشي، وسراق باتوا يتجاسرون على أهلها بعد تصدّع أجزاء من السور، سرقة تمّت في ليل، صار ظلامه دامساً تقلّ في محيطه عناصر اليقظة والنباهة، غادر قبل انتصافه بساعتين رواد المقهى أماكن جلوسهم على التخوت، استقروا على سطوح منازلهم، وجلس هو على السرير وما زال يشمّ رائحة التراب المنبعثة من تفاعل ذراته مع قطرات الماء النازلة من ابريق استخدمته أم علي للرش، وكأنّ تلك الرائحة التي استحسناها، علقت بالحصران المفروشة تحت مراتب النوم، جلس جانباً يتمتّع بمشاهدة نجوم تبعثت في السماء، يقارن مواقعها وصفاء نورها في القرية مع مواقع في وادي حوران بصحراء الرمادي، يوم يخرج ومفارز الشرطة لاقتناص المهريين. ولما أدرك أنّ الكرى صار يداعب

جفنيه توجّه إلى السرير، لكنّه لم يغف، وقبل أن يغفو سمع صوتاً كان واضحاً، بدا من بعيد أشبه بهدير تحملهُ ريح، ركّز في أمره، تبين أنّه من جهة الباب الشطاني وتبيّن أنّ العبارة المعهودة (حيهم أولاد عمران) طلباً لنجدة. أخذ (حدرة) كان يضعها عادة إلى جانب السرير، نزلّ مسرعاً دون تفكير، وصل إلى المنعطف الأخير للشارع باتجاه اليسار، وجد سلمان الكنّان، واقفاً عند باب بيته، ماسكاً بيده سكين تكريب النخيل وقريباً منه ناجي الشكر، بيده (مگوار)، معلناً سرقة بقرته الوحيدة. ولما سأله، عن كيفية السرقة، ومتى تمّت، أجاب: حصلت لحظة غفوة أخذته، تخلّلتها نباح كلاب عادة ما تتجمّع في بستان الرهيمية، دفعه إلى النهوض من الفراش قلقاً، ليتفقّد البقرة، فلم يجدها، ووجد بدلاً عنها ثقباً في السور ظهر كافياً لمروها دون عناء. ولغرض زيادة مستوى التعاطف والمساهمة في التفتيش عنها. أكد أنّه لم يمض من الوقت الكثير، فالكلاب ما زالت تنبح.

تجمّع قرب ناجي أكثر من عشرين رجلاً، بعضهم يحمل عصياً، وواحد فقط يحمل على كتفه بندقية. اقترح عليهم ناجي توجّه كل اثنين منهم في اتجاه، سعياً لتغطية جميع الاتجاهات، وصار نصيبه من الرفقة سلمان الكنّان، بدأ وإياه مشوارهما مشياً سريعاً باتجاه بستان المومنين ومنها إلى قرية كويرش عن طريق المغتسل، هو الطريق الأكثر احتمالاً أن يسلكه السراق لأنّهم لا يتوقّعون أحداً يتعقبهم على مساره الليلي المرعب.

ركضوا أولاً، بلغا المغتسل في دقائق، ومنه صعدا التلّ المحاذي إلى النهر، سلكا طريقاً بين تلال كانت صامتة كالموت، اقتربا من بستان الحاج محمود، حوّلا ركضهما إلى هرولة ثم مشياً سريعاً يخفّف شدّة التعب، وعند اقترابهما

من حافة البستان، خَفَّفا المشي ليعطيا العقل مزيداً من الوقت للتفكير. وفي ظلام فُتحت فيه ثغرة حطّم صوت لوقع أرجل تدبّ على الأرض صمت الليل، استددارا يمينا باتجاه الصوت اقتربا أكثر، فالأرض من حولهم ما زالت غارقة في الظلام. زرّ سلمان عيناه جاهداً لرؤية البقرة وتابع سيره بحذر.

اجتازا الربع الأول من البستان، خَفَّت حلكة الظلام وأصبح بالإمكان رؤية البقرة، ورجل في الأمام يمسك حبالاً وضع برقيتها، ورجل خلفها يعلّق بندقية على كتفه اليسار، وعصاً في يده اليمين يضرب على قفاها، يحثّها على المشي سريعاً كي يبتعدا عن القرية قدر المستطاع.

اقتربا منهم مشياً على أطراف أصابعهما، حتى باتت المسافة بينهما وبين السراق تقارب الخمسة أمتار، أخذ هو السكين من سلمان دعكها برأس الحذرة الحديدي، أظهرت صوتاً وكأنّه سحب أقسام، أنذرهم أن لا يتحرك أي منهم، وإن تحرك سيطلق عليه النار.

تفاجأ السراق من حدة الصوت، وهذا الهجوم المباشر، وخيال لسحب أقسام، هرب الأول، وارترك الثاني، حاول رفع بندقيته من على كتفه المتهدّل، بادلّه بضربة من الحذرة جاءت على رقبته، صاح منها (آخ) اختل توازنه، تعثّر في مشيته، ضربه سلمان بقفا السكين التي استردّها في الحال على رأسه ضربة، أسقطت بندقيته أولاً، ومن بعدها أوقعت جسده وهو يتلوى على الأرض.

سأل هاشم وماذا بعد؟.

أجاب حسين: أخذ البندقية من على الأرض، سحب أقسامها، وضع قدمه على صدر ذلك اللص اللاهث، طلب من سلمان تكتيف يديه

بكوفيته، ومسك البقرة من حبلها، ثم الاستدارة بها نحو القرية. دخلها يهزجان (جَبْنَاهَا الحِمْرَةَ مُحَنَّيَةً).

اجتازا باب السور يَجْزُونَ السارق مكتوف الأيدي، والبقرة من أمامهم تسير طيعة، تعي تحريرها من عبودية السرقة ليلاً والعودة إلى الأهل بسلام. كثر من حولهم الشباب وهم يهزجون.

ترك حارس المدرسة مرزة واجبه في الحراسة، والتحق بالركب وهم يهزجون، وحال دخوله وسطهم تحولوا إلى أهزوجة أخرى (هَلْهُولَةٌ لِمَزَيْنَ الشارب) وهو يهزج معهم، واستمر يهزج دون أن يعي أنهم يقصدونه، كان قد حلق شاربه منذ أيام بسبب تجاوز الموس على نصفها خطأً وتوجهه إلى حلاقة النصف الثاني اضطراراً لتسوية لم تكن رضائية.

ارتفعت في حينها الزغاريد على طول القرية وعرضها، خرج الرجال والنساء كما خرج الصبية والأطفال، أعاد (على الله) فتح مقهاه وزع شاياً بالمجان، استلم ناجي بقرته وسَلَّم السارق إلى المختار، إقترح جهاد عيسى تسليمه الى الشرطة والوقت اقترب من الغباش، أيده شهيد عباس.

التفت حسين إلى الجالسين وجدهم ينصتون بشغف، قال: توجه اليه المختار زيدان ومعه سلمان الكنان، بعد شروق الشمس، طلبا منه الذهاب معهم لتسليم السارق إلى مركز الشرطة في مدينة الحلة. ذهب الثلاثة معاً وسَلَّموه معاً، ثم عادوا إلى القرية، وهي مستمرة في الكلام عن الموضوع لأيام زادت عن الأسبوع.



جهاد عيسى الخفاجي / خطاط/عسكري/ مختار



هاشم الموسى الطائي/ تاجر سلاح



بعض من حياة الشباب في القرية



ناجي شكر الخفاجي/ فلاح^١



شهيد الحاج عباس السلامي/موظف في الري



حسين دواء العبيدي. شرطي

^١. ناجي شكر سرقت بقترة أكثر من مرة.

العشق المسموح

شمس شتاء القرية لها طعم دفء خاص، يستغلها متقاعدون أهوا خدمتهم تَوَّأً، وفلاحون طوى بعضهم وطراً من الزراعة في بستان، ينعمون بها حتى افتتاح المقهى لأبوابه ساعات الصباح، يجلسون القرفصاء، يسندون ظهورهم على حائط بمواجهة الشمس، يشرعون بتبادل الحديث ونبش ماض جميل.

أشار سعيد، إلى من بقي في ذاكرته من أولئك الجالسين، في جلسة كان قريباً منها جالساً يتشمّس، عمران ومحمد حمزة، وكاظم العداي، وجبر الحمود وعباس الهلال.

كان عمران الجالس وسط المجموعة ذلق اللسان، يحسن اللف حول الموضوع، ليدخل فيه، هو من بدأ الحديث، عن ذكرياته كسائق زورق، في القاعدة الجوية البريطانية بالحبانية قبل تتويج الملك فيصل الأول بسنة، قصّة رواها من قبل في المقهى أكثر من مرّة، حسب قول كاظم عند اعتراضه على روايتها في مسعى لتغيير مجرى الحديث مناكفة، استعد لها عمران سريع البديهة بالقول في الإعادة إفادة، ثم استمرّ في سرد الوقائع، بالإشارة إلى أنّ هناك معسكراً كان قائماً على ضفاف بحيرة الحبانية داخله الحركة منتظمة مثل وقع الساعة، ونظام ضبط بريطاني صارم. جنود بريطانيون يتدربون نصف النهار، ينعمون بما تبقى منه مشياً ورياضة ونوماً بعد نفخ البوق، وآخرون من النيبال يسمّوهم (الكرّكة) أشكالهم غريبة، يحرسون ويتدربون استعداداً للقتال. وكان هناك حيّ سكني للقاعدة في صورة له تشبه أحياء

لندن القائمة، وحفلات رقص ليلة السبت على الأحد تقترب فيها الأجساد بعضها من بعض، يصفها العراقيون العاملون في القاعدة بالماجنة، ويحسبها البريطانيون جزءاً من الاستمرار بحياة رفاه تشبه حياتهم الأصلية في بلدهم بريطانيا ليقبلوا من وقع الغربة. توقّف عمران قليلاً عن الكلام، لتجميع شتات ذاكرته وعاوده بالقول:

كان عمله في القاعدة سائق زورق بخاري، من مهامه بالإضافة إلى دوريات الحراسة المائية، القيام بجولات ترفيه في بحيرة الحبانية، يحضرها ضباط وجنود على شكل جماعات أحياناً وأفراداً أحياناً أخرى، وتحضرها المضمّدة كاتي من بين أجمل نساء القاعدة.

كاتي، شابة إنجليزية في حدود الأربعين من العمر، يياض بشرتها ناصع، أضافت له شمس العراق قليلاً من السمرة المصطنعة، عيناها جميلتان، لا لون لهما ثابت، خضراوان في النهار، وقبل المغيب، يأخذان لون الماء فيكونان زرقاوين. لها من تجارب الحياة كم لا ينضب، ولها من إنصاف الزمن الكثير، إذ لم يعامل جسدها بقسوة، حتى أنّ التجاعيد التي بانت على جبهتها خطوطاً وعلى حافتي فمها خطوطاً لا تؤشّر أنّها شاخت، بل تؤكد أنّها نضجت واكتسبت من الحياة الكثير.

كانت كاتي وحال انتهاء الحفل القائم وتفرّق المشاركين صوب النوم بغية التهيؤ ليوم عمل جديد، تأتي زورقه العائم آخر المرسى، محمورة لا يمكنها النوم، تأمل بالقيام في جولة على متنه، يمحّر بزورقه وإياها عباب البحيرة، في طواف يتوقّف وسطها مسافة عن الشاطئ وقد اقتربت من مكانه جالسةً إلى جانبه، مع كل اهتزاز يهتزه الزورق في تخطيه الموج،

يلتصق الجسدان فيصيران واحداً وكأُهما في الأصل قد ولداً واحداً، ينتقلان من بعد إلى قاع الزورق، يذهبان على أخشابه المرصوفة بعيداً في الاسترخاء، تغمض بين الحين والآخر عيناها، لثُعبَر عن ذهابها بعيداً في خيال مترف إلى ريف مدينتها البريطانية (ردينغ) وبحيرة تجاورها، فيحسُّ هو من جانبها مع إغماضة عينين وذهاب إلى البعيد، وكأنَّه مستلق في ظل شجرة تين على أحد سواقي القرية وقد سرى وهج حمى من جسدها المكتوي بحرارة من الداخل، إلى جسده المتعطش للحرارة، بعدها يطلق العنان إلى حفيف عشق كانت قد أدمنت عليه لسنين.

.....

أبطأ عمران وقع الحديث، ليعاوده تشويقاً في إشارة لآخر لقاء لهما حضرت فيه كاتي إلى الزورق مبكرةً على غير عادتها، انفجرت في بكاء مكتوم، غيَّر من لون عينيها الزرقاوين، لتكونا عسليتين، وكأنَّ فاجعة ألمت بأهلها أو زلزالاً أغرق بلادها جزيرة في المحيط. كان هو يسمع نشيج بكائها كأصوات نحيب في عزاء عزيز أخذته المنية مبكراً، سألها بعد إعياء صبره عما حصل؟.

أجابت وهي ترتمي على صدره يائسة من حلٍ لمصيبة ألمت بها. فعاد السؤال، طالباً الاستعجال في الإجابة.

قالت: لقد اكتشفت من رسالة وصلت بالبريد أخيراً، صدور أمر نقلها من مستشفى قاعدة الحبانية الجوية إلى مستشفى القاعدة الجوية في لندن. نَشَفْتُ دموع لها نزلت غزيرة، وسألت ألم تكن هذه كارثة، (أُمران)؟.

لفظت الاسم هكذا (أمران)، حيث لا تستطيع لفظ حرف العين.
نزلت من عينيها دفعة دموع أخرى، واستمرت مسترسلة في الكلام
مؤكدة أنها لا تستطيع الفراق أبداً، على هذا قدّمت طلباً إلى آمر القاعدة
تودّ البقاء في الحبانية تطوعاً في خدمة التاج البريطاني خارج الحدود.
حاول عمران تغيير مجرى الحديث مشيراً إلى أنّ حقيقة الطلب الذي
قدّمته كاتي رغبة في داخلها للبقاء إلى جانبه عشيقاً إلى الأبد، لا تقوى
على فراقه. وبعد أن أتمّ إشارته فخراً بنفسه عاشقاً، أخذ نفساً عميقاً من
لفافته المصنوعة بيده وأكمل: لقد توقّفت كاتي عن الكلام حزينة، نظرت
إلى عينيّه وما زال الدمع نازلاً من عينيها، كأنّها مغرمة تدقّق في ردود فعل
حبّيب ظنّته يهجّرها، ثم تأسّفت بحسرة لأنّ طلبها قد رفض تماشياً مع
سياقات التبديل الدوري لكل الكوادر الطبية العسكرية البريطانية العاملة
خارج المملكة.

سكتت ثانية، أخذت جرعة كبيرة من قنينة ويسكي كانت قد جلبتها
معها، مسحت دموع عينيها بورق ناعم الملمس أبيض، قالت:

إنّ عالمها في هذه القاعدة الجوية كان جميلاً بسبب وجوده، وأنّ هذا
العالم قد تركز في صورته هو ولا عالم ينفع لعيشها غير هذا العالم الذي هو
فيه، أكدت أنّها محبّطة لأنّها فشلت في إقناعهم على إبقائها إلى جانبه هنا
في مكان مثل الحبانية، عاشت وإياه معاً أربع سنين تحسبها أحلى أيام
العمر، ولأنّها لا تقوى على الفراق، رجّت بتوسّل أن يصحبها إلى لندن
ويعيش معها هناك، عيشاً سيكون خلاله سيّد بيت لها في منطقتها

(ردينگ)، مؤكدة جمال بريطانيا، بلد يستحق العيش في ربوعه إلى آخر الحياة، وحبهما يستحق التضحية في تغيير وقع العيش.

لقد وقع بصره لحظتها على صدرها بعد تعمّدها فكّ أزرار قميصها الأبيض، فصارت من بعدها طيعة مسلوّبة الإرادة، تتحرّك في المكان كما يشاء.

عندها وسّوس الشيطان في أن يصحبها، عبر ومضة بريق لشهوة عشق خرجت من عينيّها بطريقة لا تقاوم، كانت في أطراف أصابعها إشارة توسّل عفوية لم تستطع إخفاءها.

دقّ عمران في وجوه السامعين، ثم واصل الكلام: إنّ حركاتها في لحظة العشق على أرضية الزورق تشبه حركات غريق مدّ كلتا يديه يفتّش عن سبّاح عشبٍ امتدت جذوره إلى وسط الماء كي ينجو.

ثم أضاف: لقد سهر الليل بعد افتراقهما حائراً، بين البقاء هنا في القرية وبين السفر وإياها إلى لندن، ولما حلّ الصباح، وأدارت الطائرة العسكرية محركاتها الأربعة، همّ بالصعود، ولما همّ، أحسّ بقدميه وقد تسمّرتا في المكان. تذكّر الأهل والقرية والأصحاب، فعجز عن مدّها خطوة أخرى تعينه على الصعود. بقي هكذا مقيداً في المكان حتى صغر حجم الطائرة المحلّقة عالياً في نظره واختفت وسط السماء، تحرّك بعدها مهموماً وكأّتها أخذت معها عالماً كان يمدّه بالحياة.

.....

سكت الجالسون على يمينه والشمال في شمس الصباح اللذيذة، الا
كاظم العداي الذي علق على القصّة ضاحكاً: لو كنت قد سافرت مع
كاقي، لتبعناك إلى لندن، من غيرك يحكي لنا قصصاً عن الانجليز، وما بقي
من مغامرات عشق مدفون. ولتمكّننا من ترك القرية التي لم تتغيّر منذ ولدنا
فيها وولد فيها أجدادنا أيضاً، وسوف تبقى محصورة لن تتغيّر.

لم يرد عمران على ما قيل وعلى تعليقات صدرت من آخرين ولو بكلمة
واحدة، لانشغال خلاياه باستدعاء صور ومواقف أيام وصفها في إحدى
قصصه بالجنة، ترك الجالسين من حوله يتداولون الحديث عن العشق
والبريطانيين ومسك كيس تبغ، أنزله من مكانه معلّقاً في الحزام، أخرج من
وسطه ورق لفّ ناعم، على جلاده الخارجي اسم له باللغة العربية (بافرة)
وبدأ في إعداد لفافته، وضعها في فمه وأشعلها من قدّاحته الفضية (الزناد)،
أخذ نفساً وكأنّ العقل محتاج إلى قدر من التهذئة ينعش ذاكرته للرد وقصّ
شيئاً من المحفوظ بين ثناياها، لكنّه لم يجد فيها شيئاً يحسب جديداً، غير
مسار الحديث، بالقول:

نعم إنّها قرية منذ أن بنى فيها أول فلاح بيتاً من طين بعد إنباته نخلة،
وإلى الآن لم تتغيّر، وسوف لن تتغيّر.

قال محمد، محاوراً:

إنّ الجمجمة أبا كريم موجودة حسب ظني قبل زراعة بساتينها القائمة
حالياً، ألم تتذكّر أن حكايات آبائنا وأجدادنا تقول إنّ الإمام علي عليه
السلام قد مرّ من قربها بعد عودته من معركة النهروان، كلّّم جمجمةً كانت
على الطريق، سألها عن مكان مناسب لعبور رتله النهر، فدلتّه على المكان

عبر بساتين القرية، ومن بعد هذا سمّيت القرية بالجمجمة، تسمية تعني أنّ القرية كانت موجودة منذ ذاك الزمان.

كان المعلم علي شهاب، يسمع الحديث بشغف، تنبّه إلى إشارات حول اسم القرية، والجمجمة التي تكلمت، فأقحم نفسه في صلب الحديث الدائر على غير عادته. قال:

إنّ ما يقال عن تسمية القرية بالجمجمة على أساس الجمجمة التي كلّمت الإمام علي كرم الله وجهه أسطورة، لا استطع تصديقها منطقياً، وبدلاً عن تصديقها لا بدّ أن نرجع إلى روايات تاريخية تقول إنّها موجودة قبل العصر الإسلامي بمدة طويلة، يصلها البعض بالعصر البابلي، يدعمون رأيهم هذا بإشارات عن كونها كانت جزءاً من العاصمة البابلية وكانت موجودة داخل حدود سورها آنذاك، ويشيرون إلى أن تسميتها بالجمجمة، جاءت من الكلمة السومرية (جم جم) أي كم كم، التي تعني أرضاً منخفضة فيها ماء. كما أن آراء أخرى استندت إلى المنطق في تفسير الاسم، ذكرت أنّ القرية وجدت من قرون بمحاذاة مقابر أهل بابل التي تقع عادة خارج السور، وعلى الأغلب وجد مؤسّسوها الأوائل وهم يشيدون بيوتهم بعض عظام وجماجم، ومن الاستدلال واقتران المكان أخذت القرية اسماً لها بالجمجمة. وعلى العموم، فالاسم وقعه جميل مرّ عليه مستشرقون، ورحالة وكتّاب بينهم الكاتب الألماني ألفريد دوبلين (Alferd Doblin) الذي وصف اسمها في روايته (جولة بابلية) على أنّه اسم جميل تغنّى به في متن الرواية عدّة مرّات.



محمد حزة الحفاجي



عمران چتان الربيعي



علي شهاب العبيدي. جيل المعلمين الثاني^١



جبر حمود الربيعي/ شرطي في الشعبة اخاصة



الفريد دوبيلن/روائي الماني زار القرية



قوات الكركنة

^١. علي شهاب تعلم في الكتاتيب، بدأ حياته جندي مطوع، ثم ضابط صف معلم في الكلية العسكرية. أكمل دراسته الثانوية مساءً ودخل الدورة التربوية بداية الخمسينات ليكون معلماً، وكان من أكثر المعلمين حزماً والتزاماً وعدالة.

حفلة شواء ليلية

أقفل (على الله) مقهاه، بعد مغيب الشمس بقليل، تفرّق لاعبو الدومينو الرّواد، تركوا أماكنهم والطاولات، وعاد أغلبهم إلى البيوت لتناول العشاء من باقي طيخ زاد عن حاجتهم في الغداء، وخبز في العادة بقي محفوظاً في (الطبّك^(١))، عدا خمسة من الشباب، هم استثناء من قاعدة باتت تتكرّر مرتين في الأسبوع على أقلّ تقدير، لم يذهبوا إلى العشاء، حضر اليهم حسين مساء خميس حال الشروع بعملية الإغلاق، اقترب من سلام قال، لقد سبقونا الجماعة إلى شاطئ النهر ومعهم سمكة شبوط يفوق طولها نصف ذراع. جلس الخمسة على حصران كان قد جلبها حسين، شكّلوا صفين متقابلين حول مائدة فُرِشتْ على الأرض، قوامها مقبّلات من لبن خائر، وشرائح خيار، وخليط له باللبن ورأسا خس وزجاجة خمر من (عرق) العصرية المشهور، وأخرى احتياط لمن يحلّ ضيفاً بالصدفة.

أوقد عباس ناراً قريبة منهم، وضع مخلفات البقر (المطال) على شكل قبة، انتظرها تخفت قليلاً، ثبّت السمكة مفتوحة من ظهرها على وتدّين من سعف النخيل الأخضر، قريباً من النار، على طريقة المسكوف^(٢)، تركها ثم رجع إلى أصحابه ماسكاً كأسه، يقصّ وقع شربه الخمر أوّل مرّة، قبل أن تنبت اللحية وتستحق الحلاقة، إذ كان جاره شرطياً في الحماية الخاصّة بمعمل (مسيح) لإنتاج العرق، اعتاد كل خميس جلب زجاجة منه

١. الطبّك، وعاء مدوّر، يشبه الصحن، حافته مرتفعة قليلاً عن قاعدته، قطره يقترب من الخمسين سنتيمتراً، يحاك من نبات الخلفاء، يوضع فيه الخبز، ويستخدم أيضاً كغطاء للعجانة (النجانة) التي يعجن فيها الطحين ويهيأ للخبز.

٢. المسكوف، طريقة لشي السمك على نار قريبة، مشهورة في عموم العراق.

كاملة، يبدأ طقوس شربها، بعد نوم والده، ومن بعد شرب النصف، يخرج للمشبي على شاطئ النهر يغني، رافقه مَرّة، سأله عن سرّ تكراره أغنية (هامت عليك الروح) للمطرب المشهور داخل حسن، فأجابه، يشترك اليها ليلاً، بعد أن تركته وتزوَّجت، رغم وعدٍ قطعت به بانتظاره طول العمر. ناول الجار جاره من نصف زجاجة المتبقي لفترة ما بعد الغناء كأساً، استلطفه، طلب الثاني، لبّي رغبته مسروراً، وكأنّه وجد ضالته في رفقة شرب، يراها غير محبّذة على انفراد، ومن بعد ذاك اليوم أصبح هو لذاك الجار نديماً، ينتظر الخميس وكأنّه الفرج، ومن بعد خميس، طرق الباب حال وصوله من بغداد، أعطاه حصّة خصّها له، تعجّب من حجم الزجاجة فهي أصغر من تلك التي اعتاد مشاركته إياها كل خميس. ولما سأله عن السبب أجاب، أمّا ربيع، وأنّه قد خشي جلب زجاجة كاملة، واحتمالات شربها مَرّة واحدة عندها سيوقعه في ورطة مع الوالد، الذي سيتهمه على الفور بالكفر ونشر الرذيلة، وقد يطرده من البيت. وقد أجابه في حينه أنّ أباه أشدّ قسوة من أبيه، خيّرته في يده، يهوى الضرب بها على الظهر لأنّ تفه الأسباب، فما الحال إن عرف أنّه شرب الخمر، عندها سيكون الحشر في نار جهنم قبل حلول يوم الحساب.

المشكلة كانت في وقتها سبيل إخفاء ربيع العرق هذا لحظة استلامه حتى نوم الأب ومن بعده ولوج عالم المنكر، أشار إلى أنّه قد استهدى إلى فكرة وضعه في لب النخلة الوحيدة لهم في البيت، صعدا مسرعاً وضعه بالمكان الذي قصده، ونزل ينتظر نوم الأب بفارغ الصبر، لم يكن في البيت أقذاح، فخلع الطاس الوحيدة لهم من سلسلة تربطها بالحب (الزير)، صعد النخلة

ثانية، أنزل الربع خاصته مستبشراً، وتوجه إلى النهر، جلس هناك وحيداً والربع والطاس، وفردات من التمر جعلها مزة، وبعد إكماله في جلسة واحدة خلافاً لمشورة الجار، بشرب نصفه، سدّ فوهته ورماه في مياه النهر، وهو يضحك، قهقهة، رنّ صداها صافياً وسط الماء.

كان الشاعر علي الخامس في هذه الجلسة بالإضافة إلى عباس وحسين وسلام وجبار، طلب في بدايتها حسين، أن يدفع كل منهم حصته من كلف القنينة والمزة والسמكة ربع دينار، ردّ علي أنّه لا يحمل في جيبه نقوداً وسيستدّد في المزة القادمة، ولما أكمل ربعه وهو حصته من القنينة وانتشى بدبيبها طلب من حسين أن يصبّ في قدحه الفارغ مزيداً، كي يتعمّر المخ. أجاب حسين: لا يوجد المزيد. الحصّة ربع من الزجاجاة برّيع دينار، لم يدفع ثمنه، فانتهى حقّه في المطالبة بالمزيد. أثنى على الإجابة الأربعة الآخرون، المتشاركون في الكلفة وهم يضحكون. بادر في لعنهم بيت شعر، ومدّ يده في جيبه، وأخرج ديناراً، ثم قال: هاتوا زجاجة الاحتياط على حسابه الخاص، فما بعد اليوم يوم يستحق.

أفرغ عباس كأسه، عبّاه في فم مفتوح للمزيد، عاد إلى موقفه، قرب النار من السمكة حتى احمرّت بطنها، رفعها بكلتا يديه، وضعها من جهة الظهر على بقايا جمر، هدأ وهجه، ثم رجع مزة أخرى إلى المجموعة وإلى كأس آخر، أخذ منه رشفة، وتوجّه إلى السمكة التي تشوى، دسّ من تحتها وتدبّن رفعهما وإياها، ومشى خطوات، وضعها أمامهم جاهزة، أكملوا أكلها لذيدة وهم يضحكون بعلو صوت يسمع من الجهة الثانية للنهر.

طلب حسين، أن تجمع المخلفات، وتدفن جلسة السمر التي انتهت بسلام، وقبل أن يغادروا المكان ضحك عالياً، سأله سلام عن السبب فأجاب: أنه كان جالساً بالأمس في دُكانه ظهراً، مرّ عليه صديق لم يحضر القرية لشهرين متواصلين، اقترب منه أكثر فأكثر، وجده قد وضع كأساً من العرق، وفي اللحظة التي ألقى خلالها السلام، أخذ جرعة زادت عن النصف، وعند اجتيازه عتبة الدكان، سأله: لمّ الشرب في المحل وهو باب رزق ميسور؟.

أجاب: أن له دين نصف دينار على.... ثم توقّف عن ذكر الاسم وأكمل، لم يسدده بالرغم من المطالبة المتكرّرة بالتسديد زادت عن الستة شهور، وهو بطبعه لا يجرؤ أو بالأحرى ينجل من أن يتشاجر مع أحد من أبناء القرية، فاشتري قنينة عرق، قرّر شربها كاملة عند الظهيرة، ليتسنى له الذهاب اليه ومطالبته بتسديد الدين الذي عليه أو قتله في المكان.

سأل الصديق، عن سعر القنينة؟. أجابه: نصف دينار.

ضحك وتركه، يكمل مخطّطه للمطالبة بالدين، أجهز على القنينة كاملة، ولم يستطع الذهاب للمطالبة بالدين. ضحك ثانية بقهقهة أعلى، وضحك معه الباقون وهم عائدون إلى بيوتهم، يتمايلون في مشيهم.

.....

الطريق من مكان الجلسة الليلية للشباب هذه إلى مدخل القرية عند الباب الشطاني دقيقتان مشياً في المعتاد، بعد هذا العشاء الدسم وعرق العصرية المعهود، استغرقت نصف ساعة بزيادة عيار الشرب قليلاً للجميع،

في أولها، أخذ حسين زمام المبادرة في الحديث فقال: اتَّفَق وحمزة على جلسة شرب خاصّة قبل حلول العاشر من محرم، كان الوقت متأخراً ساعة، اتَّفقا مع عظيم أن يذهب إلى مركز مدينة الحلة ويجلب لهم قنينة عرق من محل ميخا الوحيد لبيع الخمر، رَحَّب بالفكرة كما هي. ركب دراجته الهوائية وتوجّه صوب المدينة، حلّ المغيب، وعظيم لم يعد. أدَّن المؤذن عباس لصلاة العشاء، وصبرهم اقترب من أن ينفد، وإذا به يظهر راكباً على دراجته، غير مكترث بالتأخير.

مسكه حمزة، من ذراعه بقوة، وعظيم يضحك، نزل من على الدراجة وهو يضحك، سأله لم التأخير؟ أجاب: لقد وسوس له الشيطان.

نعم سأله حمزة، ردّ قائلاً: لما عاد من ميخا وفي جعبته قنينة العرق كاملة وصل إلى جدول الوردية، عبر القنطرة، توقّف بعدها، ليعود إليها، وضع دراجته جانباً، مدّد قدميه في مياهها الجارية، فتح القنينة، أقسم بالله والإمام عمران كانت نيته شرب ربع، وإبقاء ثلاثة أرباع تكفي جلستهم لهذا اليوم.

يبدو أنّ ماء الوردية الكدر، قد قلّل من قدرة العرق على السكر أو أنّ ميخا قد غشّ في متوجهه، لكنّه لم يشك بميخا فسمعته في الحلة جيّدة، وهو رجل متدين لا يغشّ. المهم، أكمل الربع الثاني، فظهر له الشيطان، على هيئة فارس، استنهض في داخله التحدي، دفعه إلى إكمال القنينة كلّها، وهو الآن منتشٍ ومستعد أن يكمل التحدي، أمّا النقود فلا فائدة من إثارة موضوعها سبباً لظهور الشيطان.

جبار كان من بين مجموعة الخمسة لهذا اليوم، اعتاد حضور جلساتها من الأيام الأولى لتطوعه جندياً في الجيش، ولما أكمل حسين حديثه عن المقلب الذي فعله عظيم، أخذ زمام الحديث، تذكّر بتر ساقه فشعر بقدر من الابتئاس ورغبة في إعادة الرواية كنوع من التنفيس.

قال: كان في إجازة من وحدته العسكرية لواء الخامس عشر في البصرة، قصد وبعض من أبناء القرية النجف في الأول من محرم للزيارة، انطلقت سيارة عبس بكامل قدرتها على الاستيعاب، مائة فلس أجور للسفر في الرواح وفي المجيء، انخرفت عن طريقها بسبب عاصفة مطرية قريباً من ناحية الكفل، وسارت مرتبكة على الحافة الترابية المائلة قليلاً، وقد حوّل المطر ترابها إلى طين، سحبها إلى حافة منحدر لتستقر دون سيطرة من سائقها القدير على جانب اليسار، كان جالساً في الكرسي المجاور للسائق من جهة اليسار، حاول فتح بابها قبل استقرارها، تمكّن من فتحها قليلاً أخرج ساقه اليسار، لكنّه لم يتمكّن في هذا الوقت القليل من إكمال مسعاه في القفز، إذ سرعان ما انقلبت واستقرت على ساقه اليمين، تهدّشت تماماً، اضطر الأطباء إلى بترها في مستشفى الرشيد العسكري، واضطر بحكم البتر وتحديد الإصابة أثناء الخدمة وليس من جرائها إلى أن يخرج من الجيش دون تقاعد لكون خدمته قليلة، عاش أياماً صعبة تمّ أن لا تعود.

تفاعل معه حسين، أراد تغيير الموضوع، لكنّ جبار أصرّ على قصّ روايته عن فتح محل للبقالة في القرية بمساعدة خاله (على الله) وتحسّن أحواله المالية، لكنّها لم تقلّل من حسرته في حياة قضى جلّها حسرات.

سأله سلام أن ينسى الماضي ويبدأ من جديد، يتزوّج، يكون عائلة فهو ما زال في وسط العمر. أجاب بحسرة، وكيف له أن يتزوّج ... توقّف عن ذكر الاسم وأكمل حديثه، ما زال يصطحب بوجهها الجميل تمرّ من أمام محله ذاهبة إلى البستان، تنظر اليه من طرف، تعرف جيداً أنّه ينتظر، كأنّها تريد التأكّد من أنّه باق على حبها. لقد خسرها حبّية كان وما زال يعشقها حدّ الهيام، يرفع يديه إلى الله يومياً أن يعاقب أباه الذي رفض تزويجها له بعد الحادثة، لقد غيّر من قرار اتّخذه بالموافقة قبلها، فكسر به وبها، ظلّمهما معاً، أكد أنّه حاول الزواج ففشل، سيقى وفيّاً لوعده وعده لها أن لا يتزوج غيرها، وسوف لن يتزوّج، سيمني نفسه بمشاهدتها يومياً حال مرورها، وإذا لم تمر يوماً لأي سبب فلن يحسبه من العمر.

ضحك سلام، ونعته بالغشيم، ثم تركهم ودخل زقاق أهله الذي كان قريباً، وتفرّق الباقون؛ كلاً إلى بيته يحمل معه ذكرى جلسة على النهر كانت جميلة.



مراد عبد الأمير السلامي . موظف زراعة



الطبيغ



شاکر عمران چتانی الربيعی



الحب قبل وصول اسالة الماء



زقاق في القرية ٢٠٢٠



حسین شهاب العبيدي/ موظف طابو

شهادة فقر رسمية

مرّت يسرى بسيارتها على الجزء الجنوبي لساحة الطرف الأغر وسط لندن (Trafalgar square) نظرت إلى عمود يتوسطها، في أعلى قمته تمثالاً للأدميرال نلسون، قدّمت شرحاً له، هو اللورد قائد الاسطول البريطاني الذي دخل معركة بحرية فاصلة مع الاسطول الفرنسي الاسباني عام (١٨٠٥)، وكسبها بامتياز، خلّده البريطانيون بهذه الساحة التي تحمل اسم المعركة، وبُركة ماء ترمز إلى مياه البحر التي نشبت عليها المعركة، وتمثال له من البرونز تحرسه أربعة أسود ضخمة نحتها الفنان المشهور السير إدوين، سكّها من المعادن المسبّلة لمدافع وقنابل الفرنسيين. لم يحتج الفرنسيون على فعلته، ولم يعادوه ويقذفوه بالحجارة، ولم يشتموه. يعتقد أغلب من يتجمّع منهم في هذه الساحة وبهذا الوقت المتأخر من الليل، أنّ إدوين فنان قدير.

أبطأت من سيرها قليلاً، أشرّت إلى شباب من الجنسين تجمّهوا حول بركة الماء، تبدو أشكالهم وكأهمّ قدموا من دول متعدّدة، صاروا يقفزون إلى البركة سعداء بملابس السباحة ودرجة الحرارة قد انخفضت دون الصفر، بينت أنهم يُعبّرون عن ذواتهم ومتعهم في هذه الحياة بهذه الطريقة الشبابية المثيرة، وأكدت أنّ من يتابعهم سيجدهم في النهار يقفون على جنب يهتفون للحرية، فالساحة طاملاً استغلّت لهتافات تتعلّق بالتعبير عن الرأي ليلاً وفي النهار.

استمرّت في سيرها تقود السيارة بهدوء وتنظر إلى المكان، واستمرّ سعيد باتجاه إكمال رواياته عن القرية التي أحبّها، قال: كان للقرية مختارٌ يساعد على تنظيم شؤونها، مثل باقي القرى بل وسبقت غالبيتها في الحصول على

مختار، كان حسن السحاب أول مختار لها نصّبها الحاكم العثماني عام (١٨٤٧)، بعد اتفاق عشائر القرية وممثلين عنها حضروا التنصيب في سرايا الحكومة. اتفقوا على اختياره وختموا بأختامهم على صيغة الاتفاق، قيل كان قوياً ذا قدرة على التأثير في من حوله، وجاء من بعده مختير، لكنّ مختيرها من ذاك الزمان، إلى هذا الزمان لم يبلغوا ما بلغه مختارها المعروف زيدان العبد الرضا من استمرار في المختارية، وقدرة على المناورة وتكوين العلاقات.

كان المختار زيدان لبقاً في كلامه، حديثه شيق، اكتسب سمعة يُحسد عليها في عموم القرية، حيث الاستعانة به على أمور الدنيا، وساطات حكومية، وعلى الآخرة علاقات مع المراجع وأهل الدين، الأمر الذي تجده قاصداً مركز المدينة يومياً حتى أصبح زبوناً دائماً لسيارة عبس؛ ذهاباً في الصباح وعودة بعد الظهر، يحتكر له موقعاً في الخانة الوسطى خلف سائقها الجالس وراء مقودها على جهة اليمين، لا يقبل أن يحتل أحدٌ هذا المكان، ويتحاشى الجميع احتلاله تقديراً له، وتفادياً لطلب تركه في حال الجلوس صدفة.

زيدان كذلك معروف خارج حدود الجمجمة، يحضر مناسبات، ينطق باسم الدولة وإن لم تكلفه الدولة بتمثيلها رسمياً، نطق مرّة، يوم تجتمع أهل القرية وتلاميذ مدرسة عمران الابتدائية عام ١٩٥٧، في صفّ نظامي على جهتي طريق بغداد - حلة، يقوده المعلم مطهر عزاوي بانتظار مرور الملك ورئيس وزرائه نوري السعيد لافتتاح مستشفى للأمراض الصدرية، بناها عبد الرزاق مرجان، لأهل مدينته الحلة بعد شفائه من مرض السل.

قال له المتصرف فاضل بابان ومجموعة مختير كانوا قد حضروا اجتماعاً للترحيب بالملك آنذاك، سيأتي جلالته بسيارة واحدة، لا موكب يرافقه ولا رتل حمايات، مطلوب إظهار الحفاوة بالترحيب.

اقتربت سيارة الملك، كان هو جالساً في الخلف وإلى شماله اتخذ خاله الوصي عبد الاله مكاناً، وفي الكرسي الأمامي جوار السائق جلس ضابط بملابسه العسكرية مرافقاً أقدم. هتف الجمهور بحياة الملك، مرّت بالوقت ذاته طائرة مروحية بارتفاع لا يزيد على المائة متر، رفع زيدان يديه بحساسية التباهي الواعي، حركها بطريقة وكأنّه يصافح شخصاً مهماً، صفق بحماس، أشّر إلى الأعلى، إشارة تعني أن الحكومة هناك في الأعلى، اهتفوا لها. ثم التفت صوب تلاميذ المدرسة، وحثّ على تكرار الهتاف، تفاجأ بمعلم اللغة الإنجليزية سعد عبد الحسين، وقد أدار وجهته لتكون باتجاه تلاميذه، مثل أمر وحدة عسكرية يصدر أمراً على شكل هتاف باللهجة الشعبية: (گوگله وگرت والگاع متروسة)^(١).

ردّد التلاميذ من بعده بعفوية طفولية لذيدة، هذه العبارة كاملة، فهي سهلة كانوا يردّدونها في المعتاد أثناء اللعب.

المعلم سعد كان ذكياً، نشطاً، قريباً في علاقاته مع التلاميذ، مخلصاً في تعليمهم، يساري الاتجاه، تعمّد إطلاق ذاك الهتاف، إذ وبعد اطمئنانه إلى الاستجابة طيبة، دون الالتفات إلى المختار، هتف ثانية باللهجة ذاتها:

١. الگوگله والگرت، نباتان طبيعيان، الأول ينتشر في الأرض الملحية، والثاني في الأراضي العادية، يحتاج نموه إلى ماء وفير.

(نوري سعيد القنطرة وصالح جبر قيطانه^(١)). ردّوا كذلك من بعده هذا
الهُتاف.

ترك زيدان الساحة غاضباً، من تلاميذ المدرسة، باتوا يلعبون أولى لعب
السياسة دون قصد، ومن شباب للقرية توزّعوا بين الجمهور، محسوبين على
الحزب الوطني الديمقراطي والشيوعيين والبعثيين، قال باللهجة الشعبية:
(صارت مزعطة^(٢)). ومن بعدها وقف بمواجهة المعلم سعد خاطبه: أنت
بغداي، وضيف على أهل القرية، ويعرفونك شيوعياً، مخلصاً في تدريسك
مادة اللغة الإنجليزية لتلاميذ مدرستهم، ومحبوباً من قبلهم وأولياء الأمور،
العتب كلّ العتب بعد عشر سنين من التدريس بمدرسة القرية تطلق
هتافات تفسد عقول الأطفال وتؤثر في سمعة القرية.

بعد أن أخفى مقدمته نوّه بأنّ الشرطة السرية تنتشر في كل مكان
وتكتب الشاردة والواردة. مذكّراً إياه أنّه ضيف القرية وأهلها لا يريدون له
الأذى ولا تحميله المسؤولية من أي جهة حكومية.

سكت المعلم سعد، لم يناقش احتراماً للمختار، وفضّل الانسحاب في
موقف يعدّ سياسياً، فهو معروف بمرونته الجيدة وقدرته العالية على المناورة.

.....

١. كان هذا الهتاف شائعاً في الأوساط الشعبية العراقية بعد توقيع معاهدة بورتسموث مع البريطانيين عام ١٩٤٨ من
قبل رئيس الوزراء آنذاك صالح جبر ووزير الخارجية فاضل الجمالي، واستمر ترديده في المظاهرات إلى عام ١٩٥٨
والمقصود به تشبيه رئيسي الوزراء نوري سعيد بالخذاء، وتشبيه رئيس الوزراء الذي سبقه صالح جبر بالقيطان أو
رباط الخذاء.

٢. الزعاطيط، باللهجة الدارجة هم الأطفال صغار السن، والمزعطة سلوكهم الصبياني.

أشار سعيد في سياق مواصلته الحديث عن زيدان المختار أنّه كان مُتوافقاً عليه من أهل القرية مختاراً، له بينهم وقع خاص، حضور ونكته، يدركها الجميع بشكل خاص، يتخذ من مقهى (على الله) مكاناً له بعد الظهر، وبصورة شبه دائمة من مقهى لطيف مكاناً في الليل، وختم لا يفارق جيب جلابيته الجانبي (جيب الزر) كأنّه قد أخذ من هذا الجيب مقررّاً لتأدية مهامه في ختم المعاملات، لكنّه لا يختم بسهولة، يتلذذ بانتظار طالب الختم واقفاً بمواجهته يشرح موضوعه، يتوسله بخشوع إن كان طفلاً لم يبلغ سن الرشد، يعطي الختم أهمية وهالة غير معتادة، ويعلّق في الغالب تعليقاً ساخراً أثناء إخراج ختمه المعهود وحاوية الحبر الأزرق (الاسطنبة). لا يطلب أجراً لوضع ختمه على المعاملة، شعاره الدارج ادفع ما يمكنك أن تدفع، لكن العملة السائدة للدفع هي الدرهم، يوم كان درهماً.

التفت سعيد إلى من حوله ثم عاود الحديث عن المختار ومناقبه، قال: قصدته، لما انتقلت إلى الدراسة المتوسطة، سعيّاً لإثبات حالي فقيراً بوثيقة رسمية، نوه المدير إليها، سبباً يعفي من يجلبها عن تسديد ثمن الكتب الدراسية، ديناراً واحداً. كان الدينار مبلغاً ضخماً وراتب الوالد الشهري أحد عشر ديناراً لا يغطي عيش عائلة تعدادها ثلاثة عشر فرداً. ضربت وقتها أخماساً بأسداس طوال طريق العودة من المدرسة في يومها الأول على دراجة هوائية ثمنها ستة عشر ديناراً أدفعها على شكل أقساط شهرية، ديناران إلى عبد النبي صاحب المحل المواجه إلى حديقة النساء.

توصلت من ضربني الأخماس بالأسداس، إلى حتمية إعداد الشهادة الموسومة بالفقر، لتوفير دينار في برنامج دراسة طويل يحتاج إلى المزيد من

المصاريف، وكانت الخطوة الأولى، ورقة اعتراف يُكتب في أعلاها شهادة فقر، خطّها جهاد العيسى جارنا بخطه الجميل وأسلوبه المقنع، وأيدها حسين العبد وعطية الشلال، شاهدين وضعاً توقيعهما عليها. مسكّت طرفها اعتزازاً بإنجاز لا يوصف وتوجّهت إلى المختار ليختتمها.

كان المختار زيدان جالساً على تحت منفرد في مقهى لطيف، لم أجرؤ خجلاً على دخول المقهى ومواجهته كي يختم الورقة بختم يصنّفني فقيراً معترفاً به، أو بالمعنى الاجتماعي الدارج، ذليلاً مغطّى بوحل الدونية من أعلى الرأس الحاسر حتى أخمص القدمين الحافيتين.

انتظرتة واقفاً أمام المقهى أتأمل الختم ساعة، بل وأكثر قليلاً من الساعة سرحت طواها بعيداً إلى عالم الكتب المدرسية التي ستوزّع في الغد، تخيلتها قريبة، وتخيّلت الختم باباً لمستقبل مأمول. غادر بعد ذاك الوقت غير المحسوب مكانه قاصداً البيت، اعترضت سبيل خطواته الأولى بعد المقهى بقليل.

قلت: عمّي، هذه شهادة فقر، سيوزعون الكتب بالمجان لمن يحمل مثلها، أرجو ختمها بختمك ويبلغك الوالد سلامه.

ردّ وكأنّه مستعجلٌ ذهابه إلى البيت: كيف أختمها، وهل أختمها... وسكت، ثم نظر إليّ نظرة عطف أعادته إلى حالته الطبيعية. أشّر أن أتبعه، وأقف بجوار الباب.

غاب دقائق، حضر وبيده ختم وباليده الأخرى فانوس، قال سأختمها لك، أجبته، وعيناي غائرتان بالأرض، لكّي لا أملك درهماً حقّ الختم. أجاب باستهزاء: ألم تكن هي شهادة فقر، خذها وانصرف.

دخل هو إلى بيته، يتمم بكلمات مسموعة، تلقفت أذني جملة منها:
(كل طلبة القرية فقراء). لم أعرها اهتماماً، عدت بالشهادة نصفني سعيداً
لختم جاء بالمجان، ونصفي الآخر مكسورٌ من بداية طريق أدركت أوله عوزاً.

.....

انتظرت الصباح بشوق قال سعيد وأضاف: ذهبت في بدايته إلى
المتوسطة الجمهورية التي كانت خاناً للحبوب والتمور، سيطرت عليه الثورة،
وحوّلتها إلى مدرسة في منطقة الوردية آخر حدود مدينة الحلة من الجنوب
آنذاك.

صاح مدير المدرسة مكي عزيز، بعد صافرة طلب فيها التجمّع: من
يحمل شهادة فقر يقف في هذا الدور القائم إلى جانب اليمين، وحملة
الدينار يقفون في ذاك الدور على جانب الشمال، يسلمونه إلى المحاسب
ويستلمون الكتب كاملة.

انتعش أصحاب الدينار باستلامهم الكتب أولاً، وهم في الغالب من
أبناء المدينة، كان الواحد منهم يخرج من عند المحاسب ورزمة الكتب في
يده، ينظر إلينا حاملي شهادة الفقر، يبتسم ابتسامة شعرت وقتها كأنّ
فيها قدراً من التعالي أو نشوة غني على فقير.

انتهى المحاسب من ذلك الصف بعد ساعتين والتفت إلى صفنا، معلناً
بداية توزيع، انتظرناه بفارغ الصبر، جاء دوري في الاستلام. قال: ابصم هنا
أمام اسمك.

لكنّ الكتب ناقصة كتاب التاريخ، قلت للمحاسب بعد تسليم شهادة الفقر.

ردّ بقليل من الخزم: استحمد الله، سنوفرها لاحقاً أو توفرها بنفسك من المكتبات أو من طالب سبقك في الدراسة. والآن ابصم وتفضّل.

غصة في النفس لم أعرف طبيعتها، أحسست بها وتوجّعت من بعدها إلى الصف الأول (أ) جلست إلى جانب طالب من أهل الدينار كتبه كاملة، يسكن منطقة الوردية ذاتها، عدّ كتبي بنظره ثاقبة. قال: هناك نقص في كتبك.

- كتاب التاريخ.

- نعم أنتم حاملو شهادة الفقر وزّعوا لكم كتباً منقوصة أما نحن فكتبنا كاملة.

فتّشت في اليوم التالي عن طالب كتبه كذلك ناقصة، وجدت حاتم عبد الأمير من ناحية النيل، جلست إلى جانبه، صرنا نخرج من المدرسة معاً، ومعاً نتعرّض من بعض صبية المدينة إلى عبارات تجريح بينها (أبو المعيد) تصدر منهم عرضاً، أثناء مرورنا من شوارعهم الفرعية على دراجاتنا الهوائية، في أوقات ممطرة يتطاير فيها رذاذ الوحل من إطارات الدراجة على ملابس ليس لها احتياطي في البيت، ومع هذا نسكت ونداري مخاوفنا بالسكوت الآثم، إلا إذا كنّا في مجموعة عندها نتحدّى ونشتّم، لكنّا وحال خروجنا من المدينة نستأسد، نحاول الانتقاص من أبناء المدينة أو نقلّدهم في مشاعر

العداوة، بشتهم أو بمخاطبة أي منهم يشاهد خارج مدينتهم ب(أبو اللغو^(١)).

كان البعض من شباب المدينة وطلابها على وجه الخصوص يخرجون يوم الجمع والعطل الرسمية مشياً على سكة الحديد إلى جدول الوردية، كنّا نقف عنده أحياناً وكأنّنا رسمنا حدّاً بيننا أهل الريف وبينهم أهل المدينة، وكان حمزة طريخم أكثرنا عداوة لأهل المدينة، حين يشاهد أيّاً منهم يقترب من قنطرة السكة على جدول الوردية، يُصَفِّرُ أولاً لاستدعاء أي من الموجودين الداعمين له في القرب، يعضّ سبابته ويركض باتجاه القادم، يشتمه، يضطر بعدها هذا القادم من أبناء المدينة إلى الهرب من الموقف عائداً وحمزة يضحك مزهوّاً بنصره.

لكن الصراع الطبقي المجتمعي لا يتوقّف عندكم أو عند حدود جدول الوردية، قال فؤاد.

أجاب سعيد: نعم، أذكر أنّنا وفي أيام المدرسة الابتدائية كنّا ننظر في القرية إلى التلاميذ القادمين إليها من القرى والبساتين البعيدة نسبياً، نظرة فيها قدر من الانتقاص وكأنّهم أقلّ منا، ونلقّبهم بالعرب.

ردّ عاصم بالقول: يبدو أنّ صراع التّضاد بين المجتمعات المتخلفة هو السبب.

١. اللغو، لعبة شعبية، تتكوّن من قطعة قماش تقسم إلى ثلاث خانات ملوّنة، مكتوب على الوسطى، (سبعة دبل) وعلى الأعلى منها مكتوب (فوق السبعة) والأسفل (أقل من السبعة)، يضع اللاعبون نقودهم على الأرقام، يقوم القائم عليها برمي النرد، فإذا جاء المجموع أكثر من سبعة يريح من وضع نقوده على الرقم فوق السبعة، ومع رمي النرد ينادي في العادة (ذب زايد تأخذ زايد).



المختار زيدان عبد الرضا السلامي



ساحة الطرف الأغر. لندن



حسين عبد الله الخفاجي



ترحيب المدارس ورياض الأطفال بالملك



حاتم عبد الأمير أشكح الفيحان.^١



مطهر عزاوي السلامي. جيل المعلمين الأول

^١ . حاتم هو الإبن الأصغر لعبد الأمير أشكح الذي شاع أنه من تحدى الانجليز بسرقة يعلتهم. ضابط من الدورة ٤٣ كلية عسكرية استشهد في الحرب العراقية الإيرانية وهو آمر فوج برتبة رائد، عرف عنه ضابطاً شجاعاً.

مقتل الملك

فتح المقهى بابه فانتقل الجالسون يتشمسون آخذين أماكن لهم على تخوتها، دخلها من بعدهم محسن وحسن أولاد الحاج عباس كما قال سعيد في تناوله شمس شتاء القرية وأضاف:

إنّ هذين الأخوين أول من دخل مدرسة الحقوق في بغداد من أهل القرية، إذ إنّ جيلهم قد ذهب حال إكماله المدرسة الابتدائية إلى دار المعلمين الريفية، وهما اتّجها إلى الدراسة الثانوية للجامعية، تكلم محسن حال استقراره على التخت لشباب كانوا جالسين إلى جانبه عن وقع الدراسة في الحقوق واختلاط الجنسين في قاعة المحاضرات، وسفور الطالبات من بنات العوائل المعروفة، وكانوا شباباً يسمعون بشغف، ينتظرون مقدمهم إلى المقهى ليسمعوا تلك الحكايات، وحكايات أخرى لشباب من نوع آخر التحقوا تطوعاً بقوات الجيش والشرطة، يتحدثون عن شكل الحياة البغدادية ومعنى السينما والملهى وشارع أبو نواس وحانات في علاوي الحلة تدقّ صحن الألبوم على طاولاتها بمسامير، لتفادي تكسير الأواني الزجاجية، ساعة بلوغ العراك أشده بين بعض الشاربين حال ديبب الخمرة في العقول.

إلا أنّ الحكايات التي تعود الشباب انتظارها مساء الخميس ونهار الجمعة، كما يظن سعيد لم تكن جميعها عن حياة البغداديين ولم يكن جلّها مثيراً لغرائز غلّفها الحرمان بأغلفة من الحرام حالت دون تصريف طاقتها بانتظام، إذ يؤكد أنّ حكايات أخرى ركّز عليها الرواة القادمون من بغداد ومدن أخرى، فيها قدرٌ من الأسى، أكثرها تكراراً واجتهاداً في الإضافة

والحذف، حكاية الملك وسحل الوصي ونوري السعيد التي غيّرت مجرى الحياة ليس في القرية وحدها، بل وفي عموم العراق لما وضعت عربات قطاره على سكة لم يعرف أحد وجهتها.

هنا عند هذا المقطع، دخل عاصم صلب الحديث دون استئذان، قال: لقد غيّر مقتل الملك وتبديل شكل النظام من ملكي إلى جمهوري كلّ شيء في هذه البلاد، وزادت الأمر سوءاً عملية السحل للجثامين؛ حرّم الله التمثيل بها بعد انسلاخ الروح عن الجسد.

لقد أنهت القسوة مفهوم الدولة، كأثما وهيجان الناس آنذاك بهذه الطريقة الوحشية، تحطيم عمدي لأعمدة القيم السائدة في مجتمع الدولة، فأدّى تحطّمها إلى انطلاق الشر، من ذاك اليوم إلى هذا اليوم على الرغم من تغيير أنظمة الحكم عدّة مرات.

ومع هذا بودي سماع تفاصيل ما حدث من وجهة نظر أهل الريف في ذاك الزمان، بعد أن كان لأهل بغداد المؤيدين للثورة في حينه مواقف اتّسم أغلبها بالقسوة.

أبطأت يسرى سيارتها حال سماعها تعليق عاصم واتهامه أهل بغداد بالقسوة، ثم أوقفتها على فسحة مسموح الوقوف بها في ذلك الشارع الفرعي، لتشارك الحديث، بالقول إنّه من الصعب تعميم مفهوم القسوة واتجاهات تأييد الثورة، على أهل بغداد، فهناك البعض منهم لم يكن موافقاً على فعلٍ جرى، وهناك بعض آخر اعترض بشدّة على سلوك شاع، وهناك على وجه العموم اختلاف في الرأي بشأن الثورات، وثورات العراق التي بدأت سلسلة متصلة منذ العام ١٩٥٨، أو حتى قبلها عام ١٩٣٧ مختلفاً

عليها، وأنها شخصياً لا تثق تماماً بروايتها، ولا بوجهات النظر التي كتبت عنها في وقت حصولها، وإن كان وقت الحصول ليس ببعيد عن الآن، وإن كان بعض روايتها والشهود أحياء حتى يومنا هذا.

تنبّه سعيد إلى ما قالته يسرى منفعة بعض الشيء، سارع إلى تأكيد وجهة نظرها، بالقول:

أنا شخصياً من بين شهودها الأحياء، إذ كنت مع جمهرة واقفين حول ثلاثة شباب من أهل القرية كانوا قد ذهبوا إلى بغداد لمعاينة وقع الثورة، ألما بوقائعها بعد مشاهدة لبعض أحداث لها وسماع روايات عنها، تحدّثوا بعد عودتهم عن تفاصيل ما زالت عالقة في ذاكرتي، سأرويها على لسان أحدهما فارس حسين.

إنّ قصّة ذهاب فارس وصحبه تتلخّص في أنّها وبعد أن تجمهر الرجال والشباب، والصبيّة في المقهى، حال سماع البيان رقم واحد، صباح الرابع عشر من تموز سنة (١٩٥٨)، احتدم النقاش، قال فارس الذي كان بعثياً وعاد من هروبه إلى سوريا قبل سنة، سيذهب هو إلى بغداد فوراً، ليرى ما يجري ميدانياً، أيّده تركي شعلان الذي يجاربه في الانتماء السياسي، وأصرّا على ذهابهما معاً، ونوّه محسن حسناوي الذي يحتفظ بميول شيوعية، أنّه في شوق لمشاهدة ما يحدث في بغداد وبوده مناصرة الثورة، وسيكون ثالثهما في السفر.

تركا المقهى في الحال، فسيارة عبس كانت قريبة وفي طريقها للذهاب إلى مركز مدينة الحلة، ومنها أخذوا سيارة تكسي متّجهة إلى بغداد.

عادوا منها بعد إتمام المشاهدة وقدر من المشاركة، وأهل القرية، يتابعون الأخبار عبر جهاز المذياع في المقهى، ينتظرون عود الشباب الذين توجهوا لمعرفة الحقيقة.

.....

زاد عدد رواد المقهى حال وصول الثلاثة عائدين من بغداد عصر اليوم الثالث للثورة، حتى صار الواقفون حول التخوت المنصوبة أضعاف الجالسين عليها، أخذوا لهم مكاناً على إحداها، بادر فارس بالقول إنهم شاهدوا بأعينهم بعض من ما جرى وسمعوا عن بعض آخر جرى سيروونه كما شاهدوه وسمعوه، وخلاصته، نهض الملك فيصل الثاني في تمام الساعة الخامسة صباحاً، متوتراً في استعداداته لسفرٍ مخطّطٍ له أن يكون إلى تركيا ومن ثم إلى لندن، مدينة الضباب أملاً في إكمال مراسم عقد قرانه على الأميرة فاضلة ابراهيم سلطان. كان الملك قلقاً، ففي الليلة السابقة قابل مدير الأمن بهجت العطية في قصر الرحاب بناءً على طلب مستعجل، سلّمه، أي بهجت في دقائق أتم فيها المقابلة تحذيراً شفوياً عن تحركات غير مطمئنة لواء المشاة العشرين العابر من بغداد في طريقه إلى الأردن، قلل من قدرها الوصي بعد حضوره متأخراً، نفاها هاتفياً رئيس الأركان رفيق عارف لأنه لم يكن حاضراً، وقال عنها نوري السعيد رئيس الوزراء الذي حضر إلى القصر بعد دقائق من انتهائها (دار السيد مأمونة).

نام الملك ليلتها وبعض من التحذيرات تحوّلت إلى أحلام مزعجة. نهض في الصباح الذي تلا، دخل حماماً يجاور غرفة نومه، وحال وضع موس الحلاقة على حافة لحية لم تنبت كثّة بعد، سمع إطلاقات نار كأثاماً قريبة،

أكمل الحلاقة على عجل، خرج إلى جناح خاله الوصي، وكلّما اقترب منه خطوة زادت كثافة الرمي، اتّصلاً معاً بأمر فوج الحرس الملكي العقيد طه البامرني هاتفياً مستفسرين عن مصدر الرمي، فعبرَ لهما بطريقة توحى وكأنّه مرتبك، وأن في الأمر غرابة، وأنّه سيخرج من مقرّه ليطلّع على الموقف ميدانياً، ثم طمأن الملك ووعد بموافاته بالتفاصيل بعد دقائق.

كان العقيد وكأنه لم يبالٍ لحفيف الرصاص في محيط القصر، وكأن الملك قد شكّ بسلوك من كان معنياً بالحماية، وما يجري من حوله والعائلة المالكة. ترك جناح خاله وتوجّه إلى جناحه، ساعياً لارتداء ملابسه الرسمية، لكنّه لم يكمل المشوار، إذ أوقفه رمي رصاص قريب زادت شدّته، وتضاعف ارتطامه في الجدران المحيطة، حتى ارتدت إحداها على زجاج الشباك المفتوح، فتطايرت قطعها قريبة من وجهه.

تحرك سعيد في كرسيه، وضع كلتا يديه على رأسه متأسفاً، أو متّخذاً وضع التنويه عن أمر تذكره عرضاً، واستمر:

نقل لي أبي عن حايط أنّه قد تنبأ قبل سبعة عقود من هذه الحادثة بالقول:

(يخون الأتباع سيدهم، فتمطر السماء حجراً في الصيف. تتمزّق مصاحف كتبت بماء الذهب. يفارق القوم سيدهم بعد الطوفان).

هنا وبعد إكمال سعيد ما تذكره عرضاً، عاد إلى صلب الموضوع، مستنجاً من قول فارس أنّ الأتباع قد خانوا سيدهم بالفعل، إذ عاد العقيد

طه البامرني^(١) مع ضباط مشاركين بالثورة إلى القصر، أمر سرايا الفوج بوضع سلاحها على الأرض، تنفيذاً لأمر الثوار، ثم دخل الصالة التي تجتمع فيها كل أفراد العائلة المالكة وطباخهم التركي، خاطب الملك: سيدي عليكم جميعاً الخروج الآن بالملابس الحالية ضماناً لسلامتكم، مع تعهد الثوار بضمان السلامة.

خرجوا جميعاً من باب القصر يمشون ببطء يقترب من وقع السبي، ربّما يتوقعون مصيرهم موتاً محتوماً فمشوا وكأّهم يشيّعون أنفسهم في واقعة يدركون أن لا أحد سيشتيعهم من بعد موتهم، نسوة تحيط بالملك، يرفعن المصاحف على رؤوسهن، إشارة إلى الاستسلام وحقن الدماء، وهو كذلك رفع مصحفاً مذهّباً، يعتز به هدية من والده الملك غازي، مشى بهدوء ملحوظ، نظر بعيداً إلى عسكر مدجّجين بالسلاح يطوقون القصر من كل الجهات، لا أثر لحرسه الملكي قريباً أو من بعيد، كادت عيناه تدمعان أسفاً لما وصل إليه الحال، لكنّه أوقف مجاري الدمع عن قصد، تذكر أنّه الملك. استمرّ بالسير ثابتاً في حزن شديد حتى منتصف الحديقة العامرة للقصر، تعثّر في سيره قليلاً وكأنّه سرح بعيداً إلى يوم الغد الذي سيكون فيه خطيباً لشابة أحبّها وحلم بها زوجة وملكة على العراق.

١. لقد عيّن العقيد طه بعد نجاح الحركة قائداً للمقاومة الشعبية، علماً أن منتسبي هذا التشكيل أي المقاومة هم غالباً من الشيوعيين، الأمر الذي يؤشر ميل العقيد إلى الشيوعيين أو اليسار واقتربه من الحركة وربما تنسيقها معه قبل الشروع بالتنفيذ، وهو أمر إذا ما حصل بالفعل فيحسب بالأعراف العسكرية خيانة. ومع هذا فهناك أقاويل وردت عن وقائع الثورة أن العقيد طلب من الوصي أن يرد على المهاجمين، لكنّه رفض وقال له إنهم من آل هاشم مكتوبة عليهم الشهادة.

ولما استوى في مشيته، بات يقرأ آيات من القرآن ليطمئن نفسه ومن معه من النسوة. وقبل إكمال آخر آية صار يرتلها بصوت يخفت تدريجياً، تلقى أول رصاصة انطلقت من رشاش قيل للنقيب ستار^(١).

سقط على الأرض جريحاً يتلو، ومن بعده انحال الرمي غزيراً صوب رهط ملكي كان أصحابه يظنون أنهم في مأمن من رصاص جنود، أقسموا أنهم سيفتدوهم بحياتهم، سيدودون عن الوطن، لكنهم حنثوا بالقسم، قلدوا بلحظة انفعال أمرهم في التصويب والرمي، دون أمر بالرمي، سقط الجميع على الأرض مضرجين بدماء استمرت تنزف مع أزيز رصاص تكاثر مطلقوه.

مات الملك بوحدة منها، أطلقها من خان قسماً، أقسمه في مراسم التخرج من الكلية العسكرية من أنه سيحمي الدولة والملك وتحققت إحدى أهم نبوءات حايط.

.....

أختلف الموجودون في السيارة عند سماعهم رواية سعيد عن مقتل الملك والعائلة المالكة وكيف قتلوا، ومدى توفر العمد.

ذكر فؤاد، أن قسماً من الرواة والشهود يؤكدون أن النقيب ستار تصرف من عنده، وقد فتح النار قاصداً قتل الملك بحقد ثوري شاع في تلك الفترة. وقسماً آخر يؤكد عامل الصدفة، يدعم تأكيده بالإشارة إلى

١. النقيب ستار، ضابط في مدرسة المشاة في معسكر الوشاش، القريب من قصر الرحاب. تبرع مع ضباط آخرين من المدرسة بالمشاركة بالهجوم على القصر، لم يثبت المؤرخون ولم ينفوا أنه قد فتح النار على العائلة المالكة بأمر الثورة. سير الأحداث يوضح أنها مبادرة من عنده كرهة فعل لرمي إطلاقات من الجهة المقابلة. عموماً بات فيما بعد يشعر بتأنيب الضمير ويحمل أحلاماً على شكل كوابيس مزعجة، دفعته إلى الانتحار وهو برتبة عميد ركن عام ١٩٧٠.

أن رمي إطلاقات نار صدرت عن جهة القصر دفعته وكرد فعل قلق في الموقف إلى الشروع بالرمي.

ويرى آخرون مقرّبون من الثورة ورجلها الثاني عبد السلام أنه وبعد المجزرة التي ارتكبها النقيب برشاشه، اتّجه مباشرة بسيارة لاندروفر إلى الإذاعة التي أخذها العقيد عبد السلام مقرّاً للوثة العشرين المنقّذ لها وأخبره بتفاصيل فعلته، وورد على لسان من نقل هذا القول وأيده أنّ عبد السلام قد بارك الفعل بعبارة (عفارم، خلصنا).

بينما يرى عاصم، أنّ أصل الموضوع خيانة:

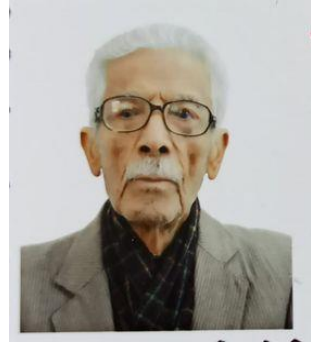
لقد خان الحرس الملكي ملكهم، وخان القادة قادتهم، وخان الأقربون أصحابهم. تبرّع بعضهم بارتكاب فعل الخيانة، قرباناً للثورة، بينهم مرافق رئيس الوزراء نوري السعيد المكلف رسمياً بحمايته، يوم تعهّد للثوار أنّه سيقوم بقتله. وساعة وجده منتحراً بمسدسه الخاص، بعد خروجه من بيت عائلة قصدها للحماية وخاتته، أطلق عليه النار من رشاشه الآلي.

صوّب على رأس سيده الأشيب وهو ميت.

استهدف جثة كانت تنزف دمّاً حارّاً، ليبرهن أمام سيده الجديد أنه من قام بالقتل وفاءً له وإيماناً بمبادئ ثورته، فتسجّل في حكايات ذاك الزمان أنّه نائر ومناضل.



حسن عباس السلامي، جيل الجامعيين الأول



القاضي محسن عباس السلامي، جيل الجامعيين الأول



محسن حسناوي، جيل المعلمين الثاني



ف. أول ركن فارس حسين جيل الضباط الأول. سفير



الفريق الركن رفيق عارف رئيس أركان الجيش الملكي^١



العقيد طه بامرني، آمر فوج الحرس الملكي

^١. قيل أنه يمتلك الكثير من أسرار التحضير الى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، مات ولم يفصح عنها.

هستيريا السحل

أدرك سعيد تشعب موضوع الثورة ومقتل الملك، أراد ملتمته وعرض الوقائع كما سمعها عن الجمجاويين الذين ذهبوا إلى بغداد ساحة حدوثها، فعاود الكلام عن التفاصيل منوهاً إلى وصول الثلاثة إلى قصر الرحاب مع جموع غفيرة قبل الظهر، تقدّم منهم وهم في باحة القصر رئيس عرفاء بكامل عدته الحربية، رحب بهم أولاً وسأل فيما إذا كانا يعرفانه، فأجابوه معاً كيف لا يعرفونه (عزوز) الأخ الأكبر لـ (چلوب) وكلاهما عزيز سلمان، وأنه قد غادر القرية ولم يعد إليها منذ تطوعه في الجيش جندياً، وبقي في ربوعها (چلوب)، يسجل نوادر وحكايات.

ضحك (عزوز)، ردّ عليهم، أن مشاغل الحياة والخدمة العسكرية أخذته من القرية، لقد انتسب منذ تطوّعه إلى لواء العشرين قائد الثورة، يفتخر بمشاركته في الثورة، جال بهم في القصر، وجدوه خاوياً، ضحك وهو يعلق بالقول، لم تبق الجماهير فيه قطعة أثاث أو مصباحاً في غرفة، ولا حتى ملعقة طعام، لم يحاول الثوريون منعهم، تصرّفوا كأنّ الجميع أبناء قبيلة أغاروا على ديار قبيلة أخرى، غزو مراتبها في صحراء قاحلة، أخذوا منها غنائم تشعرهم بالفخر، وكأثّم جميعاً مصابون بداء الفرهود، على الرغم من مغادرتهم معيشة الصحراء منذ عقود، قال جملته هذه واستأذن دقيقة لتلبية طلب صحفي من مجلة المصور المصرية، أراد التقاط صورة له تعبّر عن معنى الثورة.

مشى خطوات، جلب صورة للملك الشاب، كانت ملقاة على الأرض مع أشياء لا تدخل في اهتمام القائمين على الفرهود، وضعها على بلاط الصالة، عدّل شارين طويلين يشبهان تلك المثبتة على وجوه الباشوات الأتراك، داس على الصورة أو على الملك بجذائه العسكري، (البسطل) فتكسّر الزجاج. التقط الصحفي صورة له وعده بعد التقاطها أنّها ستظهر على غلاف المجلة في عددها القادم، صورةٌ تعبّر كما قال عن معنى الثورة. عاد اليهم بعد التقاط تلك الصورة منتشياً، قال: عودوا مساءً إذا داهمكم الليل ولم تجدوا مكاناً تنامون فيه. سيكون هناك مكان على أرضية القصر وفسحة مناسبة وبطانية عسكرية. مدّ يده على شاربيه، رفع طرفيهما إلى أعلى مع عبارة أطلقها بعد استقرار الشارين (لقد ساوت الثورة الجبارة بين الرعية وبين الملوك).

خرجوا من قصر الرحاب والنائر عزيز سلمان أو عزوز يؤشر بيده، على أمل العودة اليه في المساء، مشوا مع آلاف المشين، يتابعون مسار جثة الوصي عبد الاله التي شُيِّعَتْ سحلاً من القصر، تاق بعضهم لمشاهدة المنظر، وسعى بعضهم الآخر للمشاركة في السحل، وجدوها معلقة على شرفة فندق قمر الكرخ، وقفوا بمواجهتها، تمعنوا بذاك القصاب يحلفها بسكين خصها لسلخ العجول، سلّم نصفها إلى مئات تجمّعوا حولها يريدون النصف، وتعمّد إبقاء الحذاء الأحمر معلقاً في المكان وشاهداً على فعلته، وهو يهتف عالياً للثورة وقائدها عبد الكريم، وجمهور من حوله مصاب بهستيريا السحل، واصل فعل السحل إلى منطقة الميدان ليعلق ما تبقى منها جثةً تحرّث على باب وزارة الدفاع، وهو مستمر في هتافه للثورة.

وقف الثلاثة مبهورين أمام الباب النظامي للوزارة، إذ لم يروها من قبل، قارنوا حالها بالباب الشطاني للقرية التي تُبهر الناظر هي أيضاً، دققوا في النظر جيداً وجدوا بينهما باين أثرين وكثيراً من العوامل المشتركة، فزَيّدَ النظر إليها ابتناسهم بمنظر ما تبقى من الجثة معلّقاً بوحشية وقد باتت مؤخرتها المسلوخة تلامس شعار المملكة؛ الذي لم تمتد له أيدي الإزالة بعد.

.....

تنحوا جانباً، رجعوا خطوات إلى الوراء، مشوا باتجاه الباب الجنوبي للوزارة وجدوها مغلقة، يقف بمواجهتها مئات الشباب يحاولون دخولها للمشاركة في الثورة. خرج من باب صغير للمشاة؛ هو جزء من باب حديدي كبير للسيارات، نائب ضابط، تقدّم نحوه الجمهور من كل مكان، أرادوا رفعه بوصفه واحداً من الثوار، تمرّق قميصه وهم يهتفون له وكأنّه قائد الثوار، حاول التخلّص منهم، صرخ أكثر من مرّة، طالباً منحه فرصة لأن يتنفس، لم يعد أحد يسمعه. أكدّ محسن وهو يتكلّم عن جولته مع زملائه أنّه كان قريباً من النائب ضابط، شاهد مئات الأيدي تمتد إلى جسده تبرّكاً به ثائراً، سمعه يشتم الثورة بصوت متقطع قبل أن يفقد وعيه وبعبارة موجزة: (اتركوني لعنة الله عليكم وعلى الثورة).

أكد فارس عن نفسه، أنّه قد أسند جسده على حافة جدار عتيق مجاور لحلّ نجارة بمواجهة الباب الجانبي للوزارة، وما إن انفض الجمهور عن جسد النائب ضابط لإعطائه فرصة الإفاقة، وصلت سيارة حمل عسكرية نوع ريو، سائقها نائب عريف خشن المظهر، وجندي في الخلف يحمل

بندقية إنجليزية، يحرس مجموعة مدنيين جلبهم من فندق بغداد بمهمة إيصالهم مخفوريين إلى وزارة الدفاع مركز قائد الثورة، يرتدي أغلبهم قمصاناً وبناطيل، وواحد فقط يرتدي بدلة زرقاء داكنة.

نزل الجندي الحارس من القسم الخلفي للسيارة ساعياً إلى فتح الباب وتسهيل دخولها. رفع شاب يديه وأوماً إلى المدنيين في السيارة، صاح ذاك صباح نوري سعيد. وتبعه آخر مؤكداً أنّ من يرتدي البدلة خليل كنة. لم يسعف الوقت ثالثاً حاول التعرف على آخر يظنّه فاضل الجمالي، إذ توجه قسم من الجمهور صوب السيارة، وتوجه قسم آخر إلى محل النجارة، قسموا ألواح خشب كان أعدها النجار لكراسٍ يصنعها. توزّعت فرهوداً في ما بينهم، حوّلوا إلى عصي وهجموا على المدنيين في السيارة، حاول الجندي الحرس بداية منعهم، حتى هوى بأخمص بندقيته على رأس أحدهم وتوجه للاعتداء على المجموعة ضرباً، ولما التفت إلى الخلف وجد الجمهور يتناوب الضرب بالعصي والخشب والسكاكين لعموم الجالسين في الخلف بملابسهم المدنية النظيفة، هستيريا أصابته شخصياً وهو الحارس بعدوى دفعته إلى تحويل بندقيته عصاً، صار يضرب بها مثلهم من كلّ بحراستهم. عاد محسن آخذاً زمام الحديث جالساً على التخت، أكد أنّه صعد مع من صعد إلى بدن السيارة، حاول المشاركة بالضرب لكنّه لم يجد فسحة من كثر عدد المشاركين، اقترب من أحدهم وهو شاب لم يبق الجمهور شيئاً من قميصه، مدّ يده باتجاهه ليضربه، عضّه الشاب من إصبعه، سمعه يهذي بلهجة أردنية. نزل على إثرها مسرعاً والتحق بصاحبيه، مشوا قليلاً ووجدوا

نائب العريف السائق جالساً على الرصيف يتأمل المشهد، سألوهُ عن قصّة المدنيين الذين قتلوا ضرباً.

ردّ وهو يحرك يديه دون انتظام، إنَّهم وفد أردني بينهم سليمان طوقان وزير الدفاع لحكومة الاتحاد الهاشمي.

ما إن فرغ سعيد من رواية المدنيين الأردنيين الذين قتلوا بلحظة فقد فيها الجمهور عقله، سأل عاصم عن تطابق اسم عزيز سلمان رئيس العرفاء، من أبناء القرية المشارك في اقتحام قصر الرحاب ثائراً على الملكية، وأخيه (چلوب) العريف عزيز سلمان، الشخص المرح، الذي لم يشارك بالثورة ولم يهتم لشعاراتها، إذ التبست عليه الأمور، فيما إذا كانا توأمين أم ماذا؟.

ليسوا كذلك، قال سعيد، وأمضى أن لا أحد يعرف لماذا احتفظا بالاسم ذاته، لكن الكثير من أبناء القرية يعرفون أنَّهم بدؤوا الخدمة العسكرية لكليهما بالاسم عزيز، كأنَّهما شخص واحد، وإن تطوَّع كل منهما على انفراد ليكونا جنديين محتفظين باسم واحد، يفرّق بينهما أبناء ذاك الزمان بأسمائهم الأخرى غير الرسمية، كانا معروفين بميلهما للمقالب والهزل، إذ إنَّهما وعندما يصادف وجودهما في القرية، وينويان العودة إلى وحدتيهما في بغداد، وهما مفلسان، وفي العادة يكونان مفلسين من بعد منتصف الشهر، يفتعلان شجاراً في ما بينهما قريباً من خط النهاية، كي يتهربا من دفع الأجرة، يشتم أحدهما الآخر، كأنَّهما غريبان متخاصمان، ثم يتطوَّر الشجار إلى ضرب بالأيدي والأحزمة (الأنطقة) النسيجية، حتى

يضجر السائق والركاب، ويقول لهما انزلا من السيارة واكملا مشوار العراك خارجها، فينزلان وبعد تحركهما يكملان المشوار مشياً وهما يضحكان.

.....

لقد حلّ المساء، وحسب رواية فارس في المقهى أثناء عرضه وقائع الثورة، أنهم تركوا محلة الميدان، والباب النظامي لوزارة الدفاع وما تبقى من جثة عبد الاله، سرحوا في شوارع بغداد وأزقتها متألّفة الأنوار وأهلها لم يناموا، وهم مثلهم لم يناموا، دخلوا في جدال مع حسن أثناء التجوال، عن هذا العنف والدم المسفوح، وعن حقّ الثورة في سفح الدماء تماشياً مع شعارات تطلقها في تحقيق العدالة الاجتماعية وإنصاف الفقراء، لكنهم لم يتفقوا، كان البون شاسعاً بينهم في عديد من المفاهيم الثورية، والمصطلحات السياسية وإن كانت أصولها الأكاديمية واحدة، جعلهم يمشون الثلاثة بعيدين عن بعضهم نسبياً، مسافة أضعفت المهمة في أن يكملوا المشوار معاً، لكنهم أكملوه تحت ضغط القرابة والانتماء إلى القرية.

قال فارس: إنّه شعر بعدها بنوع من الضجر قد انتابه لا يعرف مصدره، لكنّه ضجر من واقع لم يعهده، استنفّر طاقته، كي يستمروا بالسير معاً في هذه الشوارع البغدادية التي لا يعرفون بداياتها من النهاية، وهي تأخذهم من مشهد إلى آخر طوال يوم الثورة الأول.

بدأ اليوم الثاني وآلاف الشباب تطوف الشوارع تسأل عن نوري السعيد رئيس الوزراء، وعن إكرامية قتله أو تسليمه حيّاً، عشرة آلاف دينار. تواردت أنباء مقتله في منطقة البتاوين، ونقل جثته إلى قائد الثورة عبد

الكريم ليطمئن على التخلص منه، ولما اطمأن أمر بدفنه في مقبرة باب المعظم. لكنّ الدفن الذي أراد عبد الكريم أن يبقى مكانه سرّاً من أسرار الثورة ليتفادى نبشه والتمثيل بجثته مثله مثل الوصي عبد الله، لم يبق كذلك سرّاً، إذ وقائع الثورات السارية أثبتت أنّ أسرارها لم تحافظ على سرّيتها الا ما كان منها نوايا بقيت محفوظة في عقول الثوار، لم تبلغ سقوف التنفيذ، وأثبتت أنّ عفن الخيانة ينتقل سريعاً مثل الوباء، وأثبتت واقعة نوري السعيد أيضاً أنّ الدفان في تلك المقبرة العريقة، قد أصيب بعدوى الخيانة، خان شريعته الإسلامية، والأمانة الإنسانية، قصد الجمهور المنفعل، أدلّ متبرّع على قبر للبasha كان قد حفره بنفسه، أهال التراب على جثمانه كذلك بنفسه، لم يشاركه أحد حسب الأوامر التي صدرت من الزعيم قائد الثورة، وأكدت عدم ترك أي علامات مميزة على القبر تدل على وجوده، ولم يترك فعلاً أي علامات.

جلس الدفان على قبر يجاور قبر البasha المدفون قبل دقائق من الآن، أخرج كيس تبغ، عمل لفافة، أولع بها، بات يتمتع بدخانها، ويتأمل البعيد، شاهد في ذاك البعيد جنازة يتبعها بحدود الأربعين رجلاً أكثرهم شباب، أوما لهم، قال بصوت مشروخ، نوري سعيد مدفون هنا.

ترك القوم جنازتهم، وتوجّهوا لنش القبر، حاول شيخ منهم بلحية بيضاء وكوفية مرقطة وعقال أسود منعهم، رغبة منه بإكمال دفن شقيقه الأكبر، لكنّه فشل، ولما فشل تبعهم إلى القبر، يشارك في عملية النش، التي أخرجت الجثة، بوقت قياسي.

للأمانة أكد فارس أنّ الدفان لم يشارك في نبش القبر، شاهدوه جالساً على قبر إلى الجوار يستمع بنشوة إلى هتافات تطالب بنبشه، تنادي بإخراجه وسحلّه، وللأمانة أيضاً أنّ معوله والمجرفة المكونين إلى جانبه، هما من شارك في عملية النبش بعد الاستيلاء عليهما من قبل الشباب المنفعل بقصد الاستخدام. وهو كدفان فقد اكتفى بقبض الثمن وهو تسجيل اسمه في سجلات الثورة الوهمية، متخيلاً أنّه مشارك بها، وها هي قد نجحت بحمّة المشاركين بها، وفتحت الأبواب للجميع في أن يشاركوا، على لسان قادتها الذين أوحوا منذ ساعاتها الأولى أنّهم سيعتمدون في إرساء قواعد حكمهم القادم على كثر المشاركين.

.....

تفاعل جمهور القرية الواقف حول الثلاثة يسمع مشاهداتهم، وكأنّه يريد المزيد. قال تركي: كانوا ثلاثتهم يراقبون عملية النبش من قريب، بانّت وكأنّ الجمهور ينبش بمخالب حيوانات أسطورية قد انقرضت من على الكرة الأرضية قبل خلق الإنسان العاقل، وكأنّهم أبقوا منها هذه المخالب عمداً لهذا اليوم. أخرجوا الجثة طرية، ما زال الدم ينزف من بعض جروحها غزيراً ولم يتخثر، وذاك الذي في الرأس تبيّس على شعر أشيب فأعطاه صبغة يغلب عليها اللون الأحمر. وضعوا في سيقانها حبلاً كانوا قد شدّوا به تابوت صاحبهم على سقف السيارة، ساروا بها سحلاً وجثة عارية لا تنطق، من شارع إلى شارع احتفاءً بنجاح الثورة وزعيمها الأوحّد، وتيمناً بالخلاص من الإقطاع وسني القهر وأهازيج عابرة: (بس هالشهر ماكو مهر والقاضي ذبه بالنهر).

مرّت الجثّة وفرسان السحل منتشين بالنصر وبغد أفضل قريباً من الميدان إلى شارع غازي، توقّفوا إلى جانب دبابة كانت قد نزلت الشارع بأمر الثوار، أصدر ضابط يرأس طاقمها أوامره إلى السائق في أن يدوسها بسرفها الحديدية، داسها ذهاباً ومثلها في العودة راجعاً لمرتين، حتى تحوّل نصفها الأعلى كومة لحم.

زاد منظر كومة اللحم المفروم انفعال ميكانيكي سيارات في الجوار، تضاعف في داخله الغضب الأسود، تداخل أو تفاعل مع الأمل بغدٍ أفضل يكون فيه مشاركاً في الثورة وصاحب شأن في هيكليها البنائي، فخرج من محله راكضاً يمسك بيده اليمين غالون بنزين كان يستخدمه لتنظيف محركات السيارات، سكه كاملاً على بقايا جثة تُرْمَتْ، نظر إليها وقد تداخل البنزين ببعض أجزائها المفرومة وتسرب تحت أجزائها الأخرى التي لم تثرم بعد، أخذ نفساً قوياً من سيجارة كان يدخنها، رماها بطريقة وكأنّه يقلّد أبطال أفلام أمريكية انتشرت في سينمات بغداد قبل حدوث الثورة، دار عقب السيجار الوالع عدّة دورات في الهواء المشبّع بالبنزين، قبل أن يصل خليطه باللحم، اشتعل الخليط، خرج لهيب قوي غطّى المكان، رجع الموجودون في القريب قفزاً إلى الوراء، صقّ له الجمهور بطلاً مشاركاً جديداً في الثورة. تسارع وقع التصفيق، مع دفعات الروائح الناجمة عن شواء لحم آدمي وبقايا عظام، كان صاحبها في أمس الأول رئيس وزراء، حاكماً فعلياً للبلاد.

توقّف تركي عن الحديث، وجمهور الجالسين والواقفين في المقهى، حشدوا كل مثيرات الحواس، ليسمعوا ويروا، والبعض صار وكأنّه يشمّ رائحة شواء لحم آدمي، وبعض آخر تحمّس أسفاً لعدم المشاركة.

قال فارس: كان هناك في الجوار رجلٌ مهيب يقترب في العمر من وسطه، تحرّك صوب المحرقة، بعد خفوت لهيب النار ومغادرة الثوار أصحاب الشعلة، وعودة الميكانيكي إلى محله مشغولاً بتجميع محرك سيارة فورد كان قد فتحه من قبل. بدأ الرجل المهيب للممة بقايا لم تحترق وقليل من لحم فخذ لم يكتمل شيّه، تناول كيساً أسود، من كوم زباله في الجوار، أفرغ محتوياته كراريس تلاميذ نجحوا إلى صف يلي، بدأ حشوه بتلك البقايا. دنى منه، وسأله بتودّد عن خطوته القادمة، وكأنّه قرأ أفكاره المشوشة. تمنّع عن الإجابة بداية، خشية شموله بعملية الحرق، ولما تأكّد من نية المشاركة في جمع البقايا، ذكر أنّه سيدفنها في مكان لم يعرفه أحد ولم يأت على بال أحد، عند جذور نخلة أحبّها الباشا مثلما أحبّ العراق، وفي أوّل خطوة له باتجاه زقاق جانبي بقصد إتمام مهمته الوجدانية، أطلق عبارة مثيره بأنّ مقتل الباشا وسحلّه سيفتح أبواب جهنم على العراق.

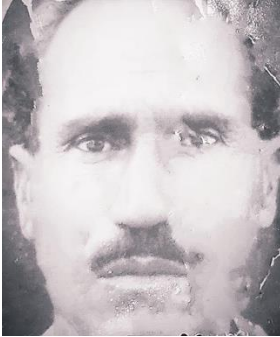
قال لطيف شلال الذي كان جالساً أنّ الملا حايط كذلك تنبأ قبل أكثر من نصف قرن. أثني على قوله هذا علي محمد المعموري مؤيداً، وكأنّه أراد فض الحديث عن الموضوع.



قصر الرحاب عمليات نهب وتخريب قصر الرحاب جثة الوصي عبد الاله على شرفة فندق



النقيب ستار العبوسي. مات منتحراً سحل جثة نوري السعيد الملك فيصل وخطيبته قبل مقتله بأشهر



العريف عزيز سلمان الخفاجي. مشارك بالثورة. يدوس التاج شعار الدولة العريف عزيز سلمان الخفاجي.

مظاهرة تأييد

صمت سعيد قليلاً، حاول تغيير مجرى الحديث عن موضوع القتل والسحل وهتافات التأييد، لأنّه في الأصل لا يميل إلى ترديدها، عاد منتقداً تلك الهتافات وأخرى شاعت من بعدها، يرى أنّ كثيراً من تلك الهتافات التي تكرّرت في ذاك الزمان وهذا الزمان نعيق أجوف، جلّها حماس نفاق، لم يدرك أصحابها، أنّهم سيهتفون بعدها أنواع هتاف تُكَبِّرُ من ذات الحاكم، بقدر ما تُصَغِّرُ ذواتهم، ليتبينوا بعد عشرات السنين بهتافتهم الساخرة تلك، أنّهم لم يتمكّنوا من الهتاف بالضدّ من أحد جاء بعد نوري السعيد حاكماً هتفوا ضده بقسوة، ولم يجدوا آخر بوزنه ودهائه، فباتوا يترخّمون عليه، ويرى أن لا لوم عليهم، فقد أصيب العراق بهستيريا هتافات شعبية عارمة امتدت من بغداد إلى باقي المدن، ووصلت إلى الريف. سأل عاصم:

- كيف لهستيريا فقد فيها الجمهور جانب المنطق من عقله الواعي أن تمتد فيه الهتافات لتصل إلى ريف شبه معزول؟.

أجاب سعيد: ليس لي المجال هنا كي أفسّر لكّي سأروي لك مشهداً شاركت بحصوله، وعليك التفسير في الوقت الذي تريد، إذ وبعد يوم من عودة الشباب الثلاثة الذين ذهبوا إلى بغداد، وقصّوا بعض مشاهداتهم ومسامعهم عن الثورة، لم يلتحق جواد الشرطي في بغداد بمديرته شرطة السراي صباح اليوم الذي أعقب الثورة، كانت في ذاك اليوم وما بعده المشاعر ملتهبة، مباح خلالها التأخير والغياب، ومجرد الإجهار بالتأييد إلى زعيم الثورة وشمم النظام الملكي كافية لشطب الغياب، وبدلاً من الالتحاق

جاء من جهة الباب الشطاني، بثعلب ميت يمسكه من قدميه، يضع حبلاً من الليف في رقبته، شرع بسحله تقليداً لسحل أهل بغداد وصي العرش ورئيس الوزراء نوري السعيد، في الأمس القريب كما هي الروايات التي نقلها الشباب الثلاثة، وأخبار أوردتها محطات إذاعة، كانت تُسمع من المذياع الموجود في المقهى.

تجمهر من حوله صبية غالييتهم من تلاميذ المدرسة الابتدائية بقصد اللعب وطلاب في الدراسة المتوسطة وبعض شباب متحمسون للثورة، زادت أعدادهم تدريجياً، هتف بحياة الزعيم، وثورة العمال والفلاحين، والسلام العالمي.

تعالى الهتاف وأخذ الحبل من يديه شاب مراهق حالم، وتبادله مع آخر في سحل الثعلب المكثي نوري سعيد.

زاد موقف السحل وهتافات الشباب مستويات الحماس، بدؤوا ركلاً بأقدام أغلبها عارية لجثة ثعلب ميت، تخليلوها جسداً لرئيس وزراء حيّ. وصلت المظاهرة عطفة الشارع من جهة الباب الشطاني، طلب جواد من شباب التفوا من حوله أن يحملوه، فحمله اثنان منهم على أكتافهم، هتف بأعلى صوته:

يعيش الزعيم عبد الكريم ويسقط الإقطاع والرجعية.

كانت الحاجة تاضي عند هذه اللحظة من الحماس، قد عادت من البستان تواء على ظهر إيتان، تلف عباءتها على وسطها وقد جاوزت الستين من العمر، تمسك بيد حزمة سعف نخيل يابس وفي اليد الثانية عصا تتحكّم بها، سمعت الهتاف، ضربت بكعبي قدميها بطن الإيتان وبعضها

على مؤخرتها، أوحى لها بحث الخطى لتسرع، فأسرعت حتى سارت إلى جانب المظاهرة وبنفس سرعتها، التفتت صوب مركزها وقائدها جواد، قاطعته والجمهور الذي يهتف مطالباً بالقضاء على الإقطاع، هتفت: (يعيش ملاجنا^(١) كامل الجادرجي).

لم يخطر في بال تاضي أنّ الثورة جاءت لتقتص من أهل الأرض الأصليين، وملاكي بسايتها.

لم يستمع إليها أحد، فأصوات الشباب المطالبين بالقصاص من ملاك الأرض هي الأعلى، كذلك لم يعرّها جواد الثائر على الإقطاع اهتماماً، وتقييمه للجادرجي إقطاعياً حال دون تفاعله معها، ثم أنّ الثورة من وجهة نظره والشباب المشاركين في الهتاف، جاءت لتحرير الفلاح من الإقطاع فلا مجال لإعارة الاهتمام، فهتف بأعلى صوته:

يسقط الإقطاع، وتعيش الثورة من أجل العامل والفلاح.

ولما أدركت بذكائها الفطري حقيقة الموقف، تقبّلت النتيجة بروحها المرحّة، ضربت بعصاها مؤخرة الإيتان، لعنت الشيطان، شتمت أمه صيتة واتجهت إلى البيت. أمّا هو فقد استمر قائداً للمظاهرة سائراً بها حتى مقهى (على الله).

.....

اقتربت المظاهرة من المقهى، قطع عبد الأمير علوان حديثه عن السجن، وعن آرائه في الحكم وأحقية الثوار في قتل الملك. وقف إلى جانب جواد،

١. الملاّج، مالك الأرض.

قائد المظاهرة، هتف بحياة الزعيم ثائراً أطلق سراح السجناء السياسيين، وأغلق غرف التعذيب، ثم عاد إلى مكانه ليكمل الحديث عن قساوة مدير الأمن بهجت العطية، وكيف كان حمزة الأبرص يقلع أظافره بالكماشة، لما كان موقوفاً بتهمة الانتماء إلى الحزب الشيوعي.

ضرب بيده على الطاولة الخشبية فاهتزت متمائلة، ليعاود الحديث عن نوبة تعذيب ألمت به في أول مرة توقيف حصلت عام ١٩٤٨، وضعه حمزة طولها في كيس مصنوع من القنب، سدّ فتحتة، دفعه ليتدحرج من أعلى السلم، طلب منه التبرؤ من الشيوعية، لكنّه لم يتبرأ.

سكت عبد الأمير قليلاً كأنّه ييلع الألم الذي تذكره أيام التعذيب، أصرّ على أن يوم الثورة هو اليوم المعهود، حقّق فيه الشعب إرادته في الانتصار على الاستعمار، تخلّص من العبودية إلى الأبد، أصبح أهله أحراراً، سيعيشون حياة كريمة إلى الأبد.

عند هذه النقطة صفّق جمهور المقهى، وبعض من المتظاهرين، الذين ما برحوا يسمعون شهادة له عن الأمن اعتاد تكرارها بنفس الوقع من الكلمات والتعابير، أشار في نهاية حديثه إلى أنّه واثق من مقتل حمزة بعد الثورة، لكثير من عذّبهم في سجن الأمن اللعين.

نظر إلى المظاهرة وجد أعدادها قد تناقصت بالتدريج، حتى تلاشت قريباً من التخت الذي يجلس عليه.

صاح من مكانه على القهوجي (على الله) أن يجلب شاياً على حسابه لجواد الذي أخذ له مكاناً على التخت جوار حاتم الباوي وعبد الرحمن حسون وياسين تاجر قماش فلسطيني متجوّل، كان قد وضع إلى جانبه

بضاعته وهي مجموعة أطوال من القماش، ساعياً لأخذ استراحة قصيرة من جولة أمّهاها في شارع القرية وبعض أرقتها قبل المظاهرة بقليل.

أخذ جواد نفساً من سيجارة قُدِّمَتْ له من عبد الأمير، وكذلك فعل التاجر ياسين، وقد بدا الامتعاض على هيئته، حدّاً همّ برفع أقمشته ومغادرة المكان، نوه إلى نيته التّحرُّك، لما تبقى من النهار، لجمع مبالغ ديون له والعودة إلى بغداد.

أصرّ عبد الأمير على ياسين قبول دعوته للغداء في البيت القريب وعلى ما موجود من طعام، فترافقا معاً وفي الطريق إلى البيت، ذكر ياسين أنّه قد بدأ العمل مع والده في تجارة الأقمشة بين فلسطين والشام، يوم هجم اليهود على مدينتهم عكا، واستمر القتال أياماً وأسابيع، حتى خلصت ذخيرتهم وضاق بهم الذرع، فتركوا بيوتهم الفارحة ومحل قماش لهم عامراً، ومع هذا فما جرى لهم من مأساة في فلسطين، لا يمكن مقارنتها بما يجري لأهل العراق في بغداد، أكد أنّ الفرق بين الشعبين، هو أنّ الفلسطينيين صاروا يكون طوال الطرق التي سلكوها هاربين من نيران اليهود، وأنّ العراقيين اليوم يضحكون على أصوات الرصاص، طوال طريق مجهول، يرقصون على جثث موتى لم تعد جثامينهم تمثلهم عند الله، عاد ليخاطب عبد الأمير وهو في أعلى درجات الانفعال:

لقد فتح أهل العراق بأعمالهم هذه الأيام مخابئ الشيطان، سمحوا لروح الشرّ بالعبث في البلاد التي أرادها سيدنا إبراهيم بلاد أمن وسلام. تغيّرت نبرة صوت ياسين، وكأنه اقترب من البكاء، وسأل:

- لم يفعلون بأنفسهم هكذا؟، ولم يفرحون وأبواب جهنم فتحت تواء،
كما فتحت عندهم في فلسطين.

لكن الثورة طرحت شعارات لنصرة فلسطين، قال عبد الأمير.

رد ياسين: تقول شعارات، والشعارات عمرها ما فعلت شيئاً لأصحابها
المتضررين، مؤكداً أنّ قادتهم سبق وإن رفعوا شعارات تبخرت جميعها في
هواء السياسة العفن. ثم أكمل بنفس حدة الانفعال، إنّ الثورة في العراق
العزیز بدأت بهذا العنف فأعادت لنفسه على وجه الخصوص ذاك الخوف
الذي انتابه في عكا وفي طريق الخروج منها وهو يرتجف هلعاً على عائلته
وأطفال ما زالوا لم ينطقوا حرفاً عربياً بعد.

كان ياسين، قد وصل إلى القرية شاباً ناضجاً عام ١٩٤٩، يشاهد
ماشياً في المعتاد على الطريق الترابي من بابل باتجاه القرية، رجل يرتدي
بنطالاً خاكي اللون، يضع على رأسه عقلاً فوق كوفية مرقطة، يحمل على
كتفه، نماذج قماش نسوي في الغالب مع قليل منه رجالي، يقصّ على من
يرافقه في طريق المشي، قصّة فلسطين واغتصابها من اليهود، بمساعدة قوى
عالمية، دخلت المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى. يرى أنّها ستوسع من
مداخلها لتبتلع المنطقة التي يغفو أهلها على وسادات من ريش نعام.

رد عبد الأمير: أنّه لا يتفق مع هذه الرؤية، فأهل العراق قد بدؤوا،
والثورة تسير بقوة وسوف لن يقف أمامها أحد، وستساند في إعادة حقوق
الشعب الفلسطيني الشقيق.

رد وهو يتسم: الزعل في نقاشات السياسة غير وارد، وهو مكتوب بنار
فلسطين الثورة، لا ينفع أن يزعل منها أحد، ولا يريد لأشقائه في العراق أن

يكتووا مثله، ومثل أهله بنار الثورة وإن كانت غير الثورة. سألته عبد الأمير أثناء الدخول إلى البيت:

- وما هي الخطوة القادمة؟.

أجاب: سببت ليلته عند صاحبه هادي العداي مثل كل مرة يتأخر فيها عن موعد العودة، له عند أهل القرية ديونٌ تصل إلى حدود المائة دينار، لأنّه ومنذ العام الذي وصل فيه، يبيعهم قماشاً بالتقسيط، يثق بهم، ويثقون بمعاملته، قرّر بعد أحداث الثورة التي يعتقد أنّها مجرد بداية لمزيد من العنف والاضطراب جمع ديونه، ثم اصطحاب عائلته استعداداً إلى هجرة ستكون الثانية، خاتماً حديثه وهو يعبر عتبة الباب: هكذا كُتبت على أهل فلسطين الهجرة، كما ستكتب على أهل العراق هجرة وربما أكثر من هجرة، لأنّهما يتشابهان معاً في فهمهما للثورات.

.....

قلّ الحماس الثوري لجواد بعد فضّ المظاهرة التي أراد استمرارها إلى باب السور، وانصرف غالبية المشاركين فيها، عدا ثلاثة شباب استمروا جالسين إلى جواره وعلى التخت المقابل، كأنّهم ينتظرون منه حكاية من حكاياته عن تجاربه البغدادية.

كان جواد معروفاً بسرد تجاربه الشبابية، يسردها قصصاً حال نزوله من إحدى سيارات علي الحمزية العائدة من بغداد، يفضل ركوبها لأنّه معفو من دفع أجورها مائة فلس بأمر من علي صاحبها وهو جار له في الزقاق، يقف حال نزوله من إحداها عند تقاطع طريق (بغداد - حلة) مع طريق

القرية الترابي، يفتح أزرار بدلته العسكرية بعد النزول مباشرة في الصيف على وجه الخصوص، استعراضاً لشعر صدره الغزير، يصاحب أيّ شاب يصادفه ماشياً على الطريق، وغالبية الشباب خاصة المراهقين يفضلون مصاحبته لسماع جديده. أسلوبه المشوق في الحديث والجديد الذي يتحدّث عنه تدفع إلى المصاحبة من لحظة النزول حتى دخوله الزقاق.

سأله كاظم طه، الجالس إلى جانبه على التخت عن لقاء عابر مع فتاة حضرية سبق وإن تطرّق اليه؟.

أجاب وهو يُكبّر من المغامرة ويتوسّع في التفاصيل الصغيرة، يحوّلها إلى أكثر من مغامرة مشوّقة، قال: الدخول إلى (الكلجية)^(١) لمنتسبي الشرطة والجيش ممنوعٌ بقوانين ضبطية، لكنّه يدخل فالأمر عنده يستحق المغامرة، وأضاف، لقد لحق به في تلك المحلة جنديّ من الانضباط العسكري، وهو ماشٍ بملابسه المدنية، راوغه حتى ضيعه بين الأزقة، خرج منها دون تحقيق رغبته في معاشرة تلك الفتاة الحضرية، كانت قد وصلت حديثاً حسب معلومات سرّ بها صديق له شرطي عاشرها قبل ليلة، عاد بعد دقائق إلى المحلة من جهة أخرى ليحقّق رغبته في المعاشرة، قال وجدتها جميلة، كطلّة قمر، وقد امتلأت غرفتها دون الأخريات بعطر مثير، عند تحقيقها شعر بالنشوة مضاعفة، شبهها بانتصار في معركة مصيرية، لم يدفع الأجر السائد ربع دينار للمعاشرة، كان قد تحدّد لتلك الحسناء الحضرية تقديراً لجمالها المفرط وعمر لها قلّ عن العشرين عاماً، دفع مائة فلس، سعر تفضيلي فيه

١. الكلجية، المكان الذي تمارس فيه الدعارة رسمياً وبإشراف صحي رسمي آنذاك، كانت موجودة ومعترفاً بها من زمن العثمانيين، وسمح بوجودها الانجليز بعد الحرب العالمية الأولى واستمرت إلى العام ١٩٥٨، إذ أغلقتها الثورة وباقي المحال المشابهة في عموم العراق.

خصم، خصّته به القوادة (حسنة ملص) بسبب معرفتها له شرطياً في السراي وزبوناً دائم التردد عندها منذ سنين.

طلب جواد من صاحب المقهى (على الله) شايّاً، وقد انفتحت قريحته في سرد وقائع رجولته فأضاف:

أنّ اختيار البيت المقصود وعندما لم يجد في ربوعه مبتغاه بنتاً حسناء تكفلها السيدة (حسنة ملص) لم يئأس، فالمغامرة في الوصول إلى الغاية بشأن الجنس فنّ تسيّره الرغبة الجامحة، فيجد نفسه ماشياً في (كوكنزر بمحلة الصابونجية)^(١)، يشبع غريزته هناك في أحد البيوت التي يعرفها. يتلذذ جواد في الحديث عن هذه المواضيع بنشوة وكبرياء، ومن جانبه يتهيج المراهق شوقاً لروايات جلّها مغامرات تستهويه في عمر مبكّر، ومع كل التفاتة تعجب من الشباب السامعين يزيد جواد من جانبه الغوص في ذكر التفاصيل بدقة تصل حدّ الوصف الدقيق للفعل والمشاعر، وأحياناً تمثيل الدور بإيماءات يَدَيْن لا تبطلان الحركة طوال تقديم الإيجاز مثل فنان يقف واثقاً على خشبة مسرح في الهواء الطلق.

مراهقو ذاك الزمان يسألون بجرأة، يسمعون بشغف، لأنّهم يجهلون كل شيء عن العلاقات الحميمة مع الجنس الآخر، يعدّها الكبار من المحرّمات.

١. محال هي الأخرى تحوي على بيوت للدعارة أغلقت كذلك بعد الثورة، لكن بعضها استمر في ممارسة الدعارة السرية إلى يومنا هذا.



حاتم خلف الباوي. جندي مطوع، ثم ضابط^١



عبد الأمير علوان الربيعي



فلسطينيون مهاجرون من حرب ١٩٤٨



عبد الواحد عربي الموموري



محلة الكلية قبل عام ١٩٥٨



حسنة ملص. أشهر قوادة في بغداد^٢

^١. تطوع في صنف الهندسة الآلية الكهربائية من الثالث متوسط، واستمر في الجيش ورفي الى رتبة ضابط وأعدم في الثمانينات.

^٢. كان وما زال اسمها ذائعاً في عموم العراق. صارت بعد عام ٢٠٠٣ مضرراً للمقارنة في جوانب الشرف بينها قوادة ملتزمة وبعض رجال السياسة الذين اتهموا بخيانة الأمانة والفساد.

هَوَّة عرس

سكت سعيد وصحبه، بعد استدارة حادّة للسيارة في شارع لندني مضاء جيّداً، عبرت عنه يسرى تعديل مسار اقتضته الضرورة، بعد الابتعاد عن بيت السيد عاصم، وعليها العودة لتعديله، وبعد تعديله قال سعيد: كانت العطلة الصيفية قائمة، والوقت طواها فائضٌ ممل، جاءني سلمان إلى البيت ظهراً، اقترح الذهاب إلى النهر بقصد السباحة، إذ كانت هي والتجوال مشياً، السبيل الأكثر ملاءمة لتغيير الأجواء. أجبته، أيّ جائع وقد اقترب الغداء.

لم يوافق على انتظار الغداء. فخرجت مسرعاً على الطبق (الطبق) الذي حفظت فيه الوالدة خبزها مغطىً بقطعة قماش، أخرجت رغيفاً لي وآخر له، كانا بمثابة وجبة غداء تناسب القصد من الخروج.

وصلنا إلى النهر مع ثالثنا مهدي رمضان، قضينا وقتاً في السباحة، وسيلة لهُو هي الأمتع صيفاً، عدنا منه مشياً، أخذنا الطريق مع ساقية الرهيمية، مروراً بصومعة التمر، وجدناه قد أقام قريباً منها وإلى جوار الساقية، مبيّض النحاس (الرباب)^(١) سوادي، موقداً له. منظرُ القدور التي تكدّست من حوله مثيرٌ للانتباه. قدران كبيران في الحجم يحتلان غالبية المكان، وإلى جوارهما قدورٌ أخرى، وكومة نواة تمرٍ تكدّست حطباً لنارٍ يحتاجها قويّة لتسخين القدور قبل الجلي. قال مهدي، وهو متابع جيد وصاحب أفكار في الرياضة والسياسة تسبق عمره: هذا القدرُ الكبير على

١. المبييضجي، هو صاحب مهنة تبيض قدور وأواني النحاس، وذلك بإزالة الصدأ العالق على سطحها الداخلي، وطليها بطبقة من القصدير.

جهة اليمين عائد إلى بيت توفيق، والآخر إلى يساره لبيت شهاب، فهما اللذان يطبخان ثواباً للإمام الحسين في العاشر من محرم، جلبا قدريهما لتبييضهما استعداداً لهذا اليوم الذي بات على الأبواب. دعم قوله ببيت شعر للجواهري، إذ كان من صباه يقرأ شعر الجواهري وباقي الشعراء.

وقف بمواجهة سوادي صفّ أطفال، طفلاً بعد آخر يحملون في أحضان أثوابهم كميات من نواة التمر يبيعونها له سلعة لازمة لتعزيز كفايته منها إذ يستعملها وقوداً للنار.

لم يعر اهتماماً لنا ونحن نتفرج، عزلَ قدراً كبيراً كان قد سخن تَوّاً، وضع في داخله رملًا جلبيه يابساً من شاطئ النهر، ووضع فوق الرمل قطعة جلد، وقف عليها داخل القدر، وصار يحرك قدميه بتواتر، يشبه بعضها حركات رقص أفريقية.

استمرّ هكذا يتحرك واستمرت قدماه تلامس الجلد والرمل حتى تأكد من نظرة واحدة أنّه قد أزال الصدأ وباقي المواد العالقة. خرج من القدر واثقاً، أفرغه من الرمل، أذاب مادة القصدير مع قليل من النشادر، سكبها داخله، أخذ بعدها قطعاً من صرّة احتفظ بها إلى جانب مواد أخرى. بدأ يدعك أرضيته وحوافه، بيدين قويتين، ولما تأكد من نضاع بياضها قام بغسلها في ماء جارٍ للساقية القريبة من الموقد. طلب من صانع كان يساعده، عزله لأنّه اكتمل.

كان مبيّض النحاس هذا يعاود الحجيء إلى القرية مرّة في السنة، هي حاجة القدور النحاسية إلى التبييض، انقطع عنها تماماً بعد الثورة ومقتل الملك، قال عنه شباب يعرفون أصله، ومكان سكنه في محلة الجامعين بمدينة

الحلة، إنهم شاهدوه بعد الثورة بأيام قائد فصيلة في المقاومة الشعبية، منصّباً لا يلائم عمله مبيض نحاس متنقل.

.....

مشينا نحن الثلاثة عبر بستان الرهيمية وفي نهايتها عرجنا على بستانٍ لكاظم الناييف يجاور المدرسة، وقفنا عند ناعور لها تُركَ عاطلاً مهجوراً، بعد هجر الأصحاب مهنة الزراعة، حتى بات المكان أطلال ناعور، وجدنا جوار أطلاله جوقة شباب شكّل وجودها دائرة، كان بينهم جبار أخذوا أمكنة لهم جالسين على تراب الأرض، وضع جبار منديلاً فوق مكان جلوسه حماية لثوبه الأبيض، ومثله فعل البعض ممن كانت ثيابهم بيضاء.

مدّ كاظم وسطهم بساطاً عتيقاً من الصوف، كان قد جلبه وحزمة ورق لعب (الدستة)، فهو أكثر الموجودين ولعاً بلعب القمار، وبعد إكماله المهمة متقنة، طلب من كل واحد منهم سحب ورقة، ومن تكون ورقته الأعلى يبدأ من عنده التوزيع.

كانت الورقة التي سحبها جبار هي الأعلى (آس)، أخرج من جيب ثوبه ربع دينار، أشرّ أنّه (الدارة)^(١)، نظر اليه الباقون باستغراب، فالمبلغ بنظرهم كبير، فهِمَ بفطنته المعهودة استغرابهم، فأوماً بسؤال يتضمّن في متنه إجابة:

- هل نسيتم أن اليوم عيد؟.

١. الدارة، هي مجموع المبلغ الذي يضعه من يمسك الورق، ويوزعه على باقي اللاعبين، أي الذي يدير دفة اللعب. وهذا المبلغ يمكن أن يزيد حدّاً يتفق على سقف أعلى له أو يترك لمن يدير تقدير سقفه ليكتفي يأخذه ربحاً له أو يتآكل المبلغ بتتابع الخسارة، لينتهي، وتنقل الدفة إلى اللاعب الذي يلي.

وزع الورق، وبدأ مشوار اللعب قماراً (٢١)، زاد مبلغ الدارة ليصل إلى دينار.

رمى كاظم الجالس إلى يمين جبار على الدارة، مائة فلس، قال بمقدارها ألعب (أخون^(١))، طلب ورقتين فوق ورقته، رمى الورق على البساط منوهاً بأنه (احترك) ولعن حظاً عاثراً لهذا اليوم بان من أوله.

استمر دوران اللعب، زاد مبلغ الدارة، ليصل إلى دينارين، كان سلام، آخر واحد إلى يسار جبار، قال: (اشلع^(٢)).

وضع جبار الورق على البساط، قال بهدوء: (اطبخ^(٣)).

غضب سلام، غضباً شديداً، قال: ألا تثق بي.

أجاب جبار: هذا حقٌ لصاحب الدارة.

علت الأصوات وكاد الموقف يتطوّر تصاعداً إلى عراك، لولا تدخل كاظم خبيراً في اللعب يعتقد به، وهناك روايات تقول إنه من جلب هذا النوع من اللعب إلى القرية من قرية كويرش عندما كان فَرَّاشاً في مدرستها الابتدائية، قبل أن ينتقل بوظيفة حارس إلى مدرسة عمران في القرية، بالإضافة إلى أنه الأكبر عمراً، وله احترام خاص من جميع اللاعبين، أفتى بحق صاحب الدارة الطلب من اللاعب الذي يشكّ في عدم وجود نقد كاف عنده إظهار مبلغ يساوي مقداره المبلغ الموجود في الدارة قبل الشروع

١. الخونة، مصطلح شائع عند لاعبي القمار، يعني المبلغ الذي يلعب عليه اللاعب الذي يصل اليه الدور.

٢. إشلع، مصطلح في هذا النوع من القمار يعني أن اللاعب يقامر بكل مبلغ الدارة.

٣. اطبخ، تعني بلغة لاعبي القمار أن يضع اللاعب المقابل مبلغاً مالياً يساوي الموجود في الدارة، ويحصل هذا في حالات الشك بأن اللاعب لا يملك المبلغ كاملاً.

بسحب الورق. أخرج سلام دينارين رماهما على ما موجود فيها بعصبية.
قال بامتعاض واضح: غشيم. طلب ورقة فأعطاه جبار إياها.

- روح إلك، أي كفى.

سحب جبار على ورقته ورقة ثم ثانية، تحيّر في أن يسحب الثالثة، لكنّه
توقّف ليعلم أنّه يحتكم على ثمانية عشر. رمى سلام ورقه، لاعناً حظه.

قال: لديّ سبعة عشر.

استمر اللعب ثقيلًا كما يعتقد كاظم، انسحب منه البعض بعد خسارة
نصف راتبه الشهري والتحق به آخرون. صارت الدارة عند عباس، وجاء
الدور إلى جبار ليلعب. عكس الحظ اتجاهاته، راح بعيداً، خسر ما كسبه
في الدارة، وأكمل مبلغاً من عنده لتغطية الخسارة، أعلن أنّه سيخون هذه
المرّة بفلس، هو آخر ما عنده، عساه سبباً لعكس دورة الحظ النحس. ثم
طلب ورقتين على ورقته. نظر فيهما، بتأنٍ، ثم أوماً بأطراف أصابعه.

- روح إلك.

سحب عباس لنفسه ورقة، أخذ نفساً من لفافة عملها بيده، وعمل معها
عشرين أخرى أحضرها معه تكفي لخمس ساعات وهو يلعب لعباً متواصلاً
تتوقّف خلاله المؤثرات في المحيط، ثم سحب أخرى، ومن بعدها أخرى.

اكشف.

ردّ جبار: ستة عشر.

أنا عشرون. ثم سحب الفلس من أمام جبار.

شكّ جبار في الأمر، وأعاد حساب الورق، وجده قد زاد عن ثلاثة وعشرين. أخرج سكيناً كان في الجيب الجاني، وفي حركة سريعة وضعها على رقبة عباس.

قال: أقسم بالله العظيم، وهذا عمران بن علي (سأقطع لوزتك إذا فعلتها ثانية، وإذا لم تعد لي الفلس فلسين حالاً) وأكمل القول: كم مرة قلنا، الغش حرام.

.....

عاد سعيد وصاحبه، من الجولة، التي عدها من جولات التسكّع في ربوع القرية، التي تكثر سبيلاً لاستنزاف الوقت الفائض. في الطريق نوه مهدي بأن القمار من مظاهر البرجوازية، وغير محبّد في النظم الاشتراكية، واستمر يتكلّم عن الموضوع بمعرفة سياسية ومعرفية متقدمة إلى أن توقفوا قريباً من المقهى، سند كل منهم ظهره على حائط قديم بمواجهتها فيه تصدع وبعض ميلان إلى جهة الداخل، دقائق كانوا طوالها مشغولين بالنظر لمن يجلس داخل المقهى يلعب الدومينو، يمنون أنفسهم بالوقت الذي سيدخلونها لاعبين. تجمّع فجأة رجال من القرية وبعض شباب، توجهوا إلى تحوت لها سحبوها مسرعين إلى الشارع، وضعوها وسطه عرضاً، أغلقوا سبيل مرور سيارات كانت تقل عروساً خفاجية في زفة عرس فخمة من ثلاثة سيارات ملئت برجال مستمرين بإطلاق النار في الهواء احتفاءً بعروسهم، لم يستأذن أولئك الشباب صاحب المقهى في استخدام معدات مقهاه في عملية غلق الطريق، ولم يعترض هو على سلوكهم مألوف كلما

رُفَّت عروس من بنات القرية إلى عريس من غير أهلها، صارت التخوت مانعاً رصيناً، جلسوا عليها صفّاً، وصفاً آخر وقف خلفهم. عاود سعيد القول: تجرأت وصاحبي على الوقوف مع الواقفين في الصف. نهض هجهوج العويز، حارس القرية (الوحاش) وإلى جانبه كاظم زميله في الحراسة، تقدّما خطوة، انتصبا في وقفتهما، أشر هجهوج ببندقية حكومية انجليزية، سلاح الحراسة الرسمي إشارة تعني التوقف، شعرت لما أشر بها قدراً من النشوة القائمة على مبدأ القوة، وكأنّ شحنة من الطاقة انتقلت من البندقية إلى عقلي أشعرتني بنشوة لا توصف، تمنيت لحظتها لو أني حاملها، قلت مع نفسي لو كنت حاملها فعلاً، لاستخدمتها في الحال وأثرت انتباه الجالسين في المقهى والماشين قريباً منها.

توقفت سيارات الزفة، عشرة أمتار عن خط التخوت. نزل من أولاهها رجل أسمر طويل القامة، واثقاً من نفسه، ملابسه عربية أنيقة، وقف في المواجهة كأنّه شيخ حصيف، حضر ليحسم أمراً فيه اختلاف.

قال هجهوج من مكانه: العروس لن تمر ونحن أصحاب نخوة^(١).

ألقي الرجل العماري السلام وابتسامة الرضا قد بانّت واضحة على عضلات وجهه وكلتا شفثيه. تقبّل النهوة بمودة وهو العارف جيداً بخبرته العشائرية مستلزماتها القيمة. أخرج من جيب زبونه^(٢) حافظة نقود جلدية،

١. النهوة، يحقّق لابن العم عرفاً عشائرياً كان قائماً، أن ينهي (يمنع) زواج ابنة عمه من غير أبناء عمومته، ويتقدم هو لزواجها أسبقية أولى، والفتاة لا تتزوج ما دامت النهوة قائمة. من بعد ابن العم تتحدّد حقوق النهي بدرجات أقل، حسب القرابة.

٢. الزبون، لباس من قماش سميك نسبياً يلبس فوق الثوب، طويل له ردنان طويلان، مفتوح من الأمام على طوله، يلف به الجسم، يشدّ من الوسط بحزام من الجلد أو من القماش ذاته، على حوافه من الطول إلى الطول تطريز بخيوط للماعة.

ومنها أمسك بإصبعين مبلغاً، من فئة ربع دينار، وزع على الشباب الجالسين كل منهم ربعاً، وأعطى لكل حارس نصف دينار واكتفى بربع واحد مناصفة بيننا الثلاثة، ولصاحب المقهى ربع أيضاً ثم قال: أبشروا أولاد عمران، هذه حلاوتكم.

أزحنا بلمح البصر التخوت، أعدناها إلى أماكنها السابقة، فتحنا الطريق، مدّ هجهوج بندقيته، سحب أقسامها ومثله فعل كاظم، أطلقا في الهواء إطلاقتين أعقبهما حسين عباس، فتعالت أصوات الرصاص، ملأت أجواء القرية، ومرت ابنتها عروساً محتفى بها ومسموحاً بزواجها من شاب قصدها من غير أهلها.

.....

بعد المشاركة الأولى في أعراف القرية بنجاح، اقترح سلمان، العودة إلى السباحة في النهر، فالماء من وجهة نظره قبل المغيب منعش، وليس له نية العودة إلى البيت مبكراً، فقصدنا النهر من جهة الشريعة للمرة الثانية هذا اليوم، نظرت إلى الجانب الثاني منه كأني أحصي المرات التي عبرتُ فيها ساجحاً إلى ذاك الجانب المحسوب على قرية سنجار، كانت لا تزيد على الثلاثة، خلعت ثوبي من على جسمي، رميته على أرض تحاذي الحافة يكسوها نبات السلهو، وعمل سلمان ومهدي الشيء ذاته، ومن بعدها دخلنا النهر، نقلد في السباحة الأكبر منا عمراً. توقف لاعبو (السبيرات)^(١) من الفتية في سن المراهقة، عن تبادل قذف الحجارة بينهما

١. السبيرات، لعبة الصبية والشباب في سن مبكرة تتكون من فريقين، يشيدان مواضع من حجارة طينية، على شكل نصف دائرة بينهما مسافة تقرب من الخمسين متراً فأقل، يقومون عبرها بتبادل الهجمات بينهم قذفاً لكرات طينية.

فريقان متقابلان، ليوجهوا، شتائم إلى شاب من قرية سنجار كان يقف في المقابل ينظر إلى الشريعة. قال أحدهم: إنّه ينظر إلى بنات قريتنا. سأل الثاني، كيف له أن يتجرأ.

مسك الثالث (المعجال^(١))، وضع في قاعدته حجراً ودار بذراعيه ثلاث دورات، أفلت إحداها في الدورة الرابعة، فانطلق الحجر صوب، الشاب السنجاري، لكنّه لم يصله، سقط في الربع الأخير من النهر. أشّر ذاك الشاب بأصابعه إشارة تحدٍ، فأوقف الفريقان لعبة السبورات، وتوحدوا فريقاً واحداً، شرع في قذف الحجارة، باتجاه الصوب الثاني، في وقت زاد فيه عدد الشباب السنجاريين، وزادت مستويات تحديهم للجمجمائين، عن طريق الإشارة.

قرّر الشباب، عبور النهر إلى ضفته الثانية، هجوماً مباشراً على السنجاريين، وقرّرت من جانبي العبور معهم، فلعبة التحدي هذه مثيرة، ونشوة الرجولة المبكرة قد بدأت مفاعيلها تسري، كنّا الثلاثة في الخط الثاني لمجموعة العابرين إذ إننا في السباحة ما زلنا بطيئين لم نكتسب المهارة الكافية بعد.

اقتربنا من حافة الجرف السنجاري بخمسة أمتار أصابني حجرٌ انطلق من أحد المدافعين عن الجرف وقع على مقدمة رأسي شعرته ثقيلاً وشعرت

١. المعجال، آلة لقذف الحجارة مسافة أبعد من اليد، وهو عبارة عن قاعدة منسوجة من الصوف أو حتى الخام العادي أو الجلد، ترتبط بذراعين من النسيج المفتول من الصوف أو القماش لا يزيد طول الواحد منهما على الخمسين سنتمراً، توضع الحجارة في القاعدة، يبدأ صاحبها ماسكاً الذراعين معاً وتدويرهما حتى تزداد سرعة اللف لتعطي زخماً، يفلت عندها أحد الذراعين، فتنتطلق الحجارة بالاتجاه الذي يريد.

وكأنّ رقبتى اقتربت من أن تدخل صدري عنوة، واقترب الوعي في داخلي أن يهرب.

صاح سلمان: لقد أصيب سعيد وقد يغرق، عاد اثنان من العابرين المهاجمين إلى المكان الذي كدت أغرق فيه، ودم مخلوط بالماء يغطي هامتي. اقتربوا مني، وضع إبراهيم يده اليمين تحت صدري، وأدار جسمه دورة كاملة ليسبح على الظهر، ومهدي يراقبه مساعداً عند الحاجة، عاد بي إلى جرف القرية، وبعودتهما ضعفت قوة الهجوم عدداً أفشلته تحدياً للسنجاريين الذين هم أيضاً أوقفوه بعد تطور الحال إلى دم وخسارة لم تكن متوقعة، ومن يومها قرّرت أن لا أعبر إلى ذاك الجرف، ولو مشياً على الأقدام، عند انحسار الماء وإمكانية العبور مشياً.



صورة، رسم لمبيض النحاس



مهدي رمضان أمين الدليمي . معلم



حسين عباس الباوي



إبراهيم محسن . جيل المعلمين الثالث



جبار گاطع الخفاجي . صاحب محل



كاظم عمران الخفاجي . حارس المدرسة

جني محصول التمر (الغصاص)

تركث يسرى شارعاً كانت قد أوقفت السيارة على حافته، والفندق وقاعة الحفل، وحكاية الثورات التي حصلت في البلاد وما رافقها من عنف أوقعها في دوامات استمرّت لم تنقطع.

دخلت وسيارتها متماسكة في السير وسط لندن المزدهم بالسيارات، تحركت أمتاراً حتى جسر البرج المبتلّة أرضيته برذاذ مطر خفيف، فتحرّك مسار الذاكرة من جديد عند سعيد وهو مسترخ في الكرسي الأمامي، عينٌ على هيكل هذا الجسر وتصميمه جعله معلماً يحمل قرناً ونصف القرن من تاريخ لندن الحديث، وعين أخرى على أصحاب له يتأمل استجاباتهم لما يخرج من مكبوتات أسفل خلايا العقل، صارت تخرج بغزارة من ذاكرة وكأّتها مثقوبة، قال:

لنغير من وجع الألم الذي رافق التغيير والثورة ومقتل الملك، لنعد إلى التراث، إلى بيوت الآباء في القرية التي هي نسخة من بيوت الأجداد، إلى طبيعة العيش التي افتقدنا هدوءها وعمق العلاقات بين أصحابها، وأضاف: كانت بيوت ذلك الزمان في غالبها مختلفة الأحجام صغيرة نوعاً ما (إلا القليل منها) متلاصقة أسطحها، سقوفها وبعض أبوابها جذوع نخيل، وبعضها الآخر بلا نوافذ ولا أبواب، كانت لفأس فرهود ذكرى في كل واحدة منها.

فرهود ذلك الرجل الذي عزل نفسه عن أبناء جيله، احتفظ دون قصد منه بجسم نحيف خال من الدهون، مثل أجسام يمتلكها فقط رياضيو العدو

لمسافات طويلة، واحتفظ كذلك ببصر ضعيف، ورثه عن أبيه، وذراعين قويَّتين، وفأس لا تخطئ، ومطرقة تُوغَلُ في الضرب القاسي على أوتاد عدَّت من خشب التوت، لها رأس مدبَّب يضعها واثقاً في صدعٍ تفتحه الفأس بجسد الجذع الممدَّد للنخلة، شاب رأسها فييس أو تعمَّد أحد إيباسه.

النخلة في معتقدات أهل القرية في ذاك الزمان كائنٌ له روح، يتعمَّد البعض قتل روحها، مثل قتل البعض للبعض لما يصعد الغضب مستوى يتجاوز حدود السيطرة عليه، وإذا ما أُريد قتل الروح لإحدى النخلات غيلة، لتنفيس الغضب يُسكب قليل من النفط في قلبها من الأعلى، فترقع ميتة بلا روح.

فرهود لا يدقق في سبب الموت ولا ييباس نخلة، يصله البدن ميتاً، ليهيل على أوتاد أعدها لضربات مطرقة قوية، تشقّه في المحصلة إلى أربعة جذوع متقاربة في السمك والطول، وكأنّها قُطِعَتْ بمنشار مآكنة يديرها حاسوب من هذا الزمان.

ترك فرهود ووالده من قبله، كلٌّ في زمانه بصمة في بيوت القرية جذوعاً ممهورة بأسمائهم لعشرات السنين، لكن في أزمنتهم تلك لم تكن هناك علامات تمهر بها البضائع والمنتجات، ولا إشارات من هذا القبيل، فضاعت حقوقهم في أن يخلدhem التاريخ من علامة يضعونها على جذع نخلة صقلته فؤوسهم أو أعمدة أعدوها ركائز حملٍ لعوارض سقوف أحد مضائف القرية، فصنّفوا بسببها أصحاب مهنة انقرضت نهاية خمسينيات القرن العشرين مع مقتل الملك، وظهر عصر الثوار وهم يحقّقون إنجازاتهم

بقفزات سريعة، يرونها سبيلاً للخلاص من الاستعمار، ويرى أتباعهم في القرية وخارجها أنّ زمن الجذوع قد ولى وأن استبدالها بمديد الزوايا (الشيلمان^(١)) يعد مكسباً ثورياً سيسهم في اندثار سقوف بيوت قوامها جذوع، تنساب بينها ثعابين، وتكثر بين حوافها عقارب صفراء.

.....

إنّ حكايات فهود كما يذكر سعيد لم تندثر، بقيت عقوداً من بعده ماثلة في عقول الأبناء يردّدونها في مجالسهم، يذكرون أنّه كان مخلصاً في عمله، ودقيقاً في مواعيده ويذكرون أخاً له عبيس كان سباحاً سريعاً ذا قدرة لم يبلغها أحد في البقاء تحت الماء من أبناء القرية والمدينة معاً.

عنها أشار إلى أن قدرة عبيس للبقاء تحت الماء غطساً، لو حوكت بمعايير الزمن الحالي ووسائله للتسجيل والاحصاء لكان مؤكداً تسجيل بقاءه تحت الماء رقماً عالمياً، وتسجيل اسمه في سجلات موسوعة غنيس للأرقام القياسية (Guinness)، ولتأكيد صحة قوله هذا، ذكر أنّ عبيس حينما يغوص في الماء يستغرق في البقاء تحته وقتاً يثير قلق المتفرجين ظناً منهم باحتمالات غرقه اختناقاً، وذكر أيضاً أنّه ولما كان صبيّاً كان قد اصطف مع صبية آخرين على تل قرب المغتسل يواجه قرية سنجار، كان يقفز منه مستعرضاً قدرته على القفز سامي علي الناصر، وهم كذلك يستعرضون، حضر عبيس ماشياً وخلع الثوب من على جسمه النحيف، رماه جانباً وهو مستمر في المشي، ركض باتجاه حافة النهر وقفز من أعلى نقطة إلى

١. الشيلمان، حديد يشبه قضبان سكة القطار وأحياناً منها، يوضع على السقف بتواز ومسافات تبعد الواحدة عن الأخرى بمقدود المتر أو أقل أحياناً، وتحشى بالطابوق بطريقة تسمى شعبياً العكادة.

الماء، قفزاً صعد فيها إلى أعلى كمن يطير، ثم دار بجسمه في الهواء، ليكون رأسه إلى أسفل، نفذ إلى الماء ويداه تسبقانه مثل السهم، حبس الواقفون أنفاسهم ظناً بموته، لكنه ظهر بعد فترة حسبت طويلة عند الجرف المقابل من جهة سنجار، القرية.

أخذ نفساً عميقاً، غاص ثانية، ثم ظهر قريباً منا يلوّح بيديه.
كان سريعاً في كل شيء لا يجاريه أحدٌ في المشي وصعود النخيل، وعن سرعته في صعود النخيل والنزول منها أشار سعيد:

كان موسم جني التمر (الغصاص)^(١) نحر بحلوله في بستان الرهيمية فلاحها خضير خلف جدياً، عادة قديمة انتقلت مع الأجيال، يرجعها البعض إلى طقوس البابليين، وصل عمال أغلبهم نساء وقليل من الرجال جلّهم من مدينة الناصرية (طواشة)^(٢) لجمع التمر من تحت النخيل التي يقصّ الصاعود^(٣) عذوقها، لقاء أجرٍ متفق عليه (حكة)^(٤) تمر للفرد الواحد في اليوم الواحد، يعودون به إلى ديارهم، خزّين عيش (مجيل)^(٥) لمدة عام.

كان عبّس صاعوداً في ذلك الموسم وجميع المواسم من يوم بلوغه سرّ الرشد، وكان معه حمزة الدواح صاعوداً كذلك، تعودا المزاح فيما بينهما أثناء العمل، ومزاحهما هذه المرة منازلة بينهما قوامها:

١. الغصاص، جني التمر وجمعه بعد النضج.

٢. الطواشة، العمال أو العاملات في مجال جمع التمر في الغصاص.

٣. الصاعود، من يصعد النخلة ليلقح طلعتها أو يُشذّب كرمها وسعفها اليابس أو يقصّ عذوقها في موسم الغصاص.

٤. الحكة، بكسر الحاء، وحدة قياس للوزن كانت مستخدمة زمن العثمانيين واستمرت إبان الحكم الوطني بسنين، تعادل بحدود أربعة كيلو.

٥. المجيل، المواد التي تخزن مثل الحنطة والشعير والتمر كذخيرة لمدة عام.

من يقصّ عذقاً من نخلة وينزل من أعلاها إلى الأرض أسرع من صاحبه الذي يقصّ من أخرى مماثلة في الطول وبوقت يُضبط مساوياً للبدء بالنزول، يربح أجر صاحبه أربع (حگگ) من التمر.

رد عبيس بالقول وهو يضاحك، هذا لعب أطفال، والأحسن منه أن تحدّد تلك النخلة الطويلة (العيطة^(١))، ثم أشّر بيده إليها وأكمل:

من تطأ قدماه الأرض نزولاً من أعلاها قبل قطعة ليف يقذفها حال النزول يكسب أجر صاحبه.

وإذا لم يصل أي منهما قبل قطعة الليف يتنازلان معاً عن أجرهما إلى الطواشة.

وقف خضير أسفل النخلة العيطة حكماً في لعبة المنازلة هذه، أشّر على النخلة العيطة مضماراً لسباقهما، خاطب حمزة: توكل على الله أنت أولاً.

اصطف الطواشون رجالاً ونساءً، فسحوا المجال واسعاً، له أن يبدأ.

ربط (التبليّة^(٢)) على النخلة التي صارت مضماراً للسباق، صعد وعيناه إلى الأرض، صعوداً فيه حماس واضح، وصل إلى حافة الكرب اليابس، أعطاه خضير الإشارة بأن يبدأ، قذف قطعة الليف التي صحبها معه، ثم نزل سريعاً، وجدها قد حطّت قبل وصوله الأرض بثوانٍ معدودات، ووجد تعليقات من المشاهدين لا تخلو من البهجة.

١. العيطة، النخلة الطويلة.

٢. التبليّة، حصيرة بعرض يقرب من الثلاثين سنتمراً ويزيد قليلاً في بعض الأحيان، تحاك في الغالب من ليف النخيل، يثبت في أحد أطرافها جبل معدني (سلك) بطول يكفي لتطويق النخلة، وعند استخدامها للصعود، يضع الصاعد الحصيرة على ظهره، ويلتف السلك على جذع النخلة، ثم يربطه إلى الطرف الثاني للحصيرة بجبل من القنب، ويصعد أو ينزل بجعل مركز ثقله على أسفل الظهر، وقوة ارتكازه على القدمين.

عاود خضير الإشارة إلى عبيس، وبعد إعطائه قطعة الليف ذاتها، طلب منه أن يبدأ.

تسلَّق عبيس النخلة العيطة سريعاً وهو يضحك، بلغ حافة الكرب ومازال يضحك وكأنَّه واثق من نفسه، تسلَّم إشارة البدء بالنزول.

قذف بيده اليمين قطعة الليف وشرع بالنزول سريعاً كمن يركض في مضمار سباق للعدو السريع.

حطَّت قدماه على الأرض وما زالت قطعة الليف تتمايل محلقة في الهواء. صَفَّقَ الجمهور المشاهد لمسابق كسب الرهان.

خاطبه حمزة، بصيغة اتِّهام ودِّي: إنَّك قذفت الليفة إلى أعلى، فأخذت وقتاً في النزول أكثر. ضحك عبيس، ثم عاد إلى عمله، ربط (التبليّة) على نخلة أخرى وأكمل مشواره مُصنَّفاً الأسرع صعوداً للنخيل في القرية طوال زمنين.

.....

حلَّ المغيب، فتوقّف الجميع عن العمل في مجال جني التمر، انقسموا مجموعتين، واحدة للرجال وأخرى للنساء، فَرَشَتْ كل مجموعة ذاك الفرش الذي كان معدّاً فرشه تحت النخلة لجمع التمر النازل، جلسوا من حوله، لتناول عشاءهم خبزاً ومرقاً بلحم من بقايا الجدي المنحور، تناولوه بشهية عالية، واستمروا جلوساً في المكان لأغراض السمر، وآخرين عادوا إلى بيوتهم لإكمال يومهم، ساهرين في ساحة معدّة للسهر، أو عند جار لبيتة ساحة تصلح للسمر.

وبالنسبة لي أشار سعيد وآخرون مثلي، خرجنا للمشي، تجمّعنا خمسة على شاطئ النهر بيننا جاسم كاظم، نسمع حكايات يرويها محسن منخي، وكأنّه حكواتي محترف، حكى في تلك الليلة حكاية عنتر وحبّه لابنة عمّه عبلة ومن بعدها ختم بحكاية الزير سالم وفحولته وشعره ومقتله بعد مشوار حرب البسوس طويلة الأمد، توجهتُ بعدها إلى البيت، كان الليل قد انتصف، وجدت وكأنّ الجميع قد أخذ مكانه على السطح غاطين في نومهم، شخير الوالد يدلّ على أنّه وإياهم في نوم عميق، وقفت على طولي يحيط بيّ الظلام من جميع الجهات، تأملت السطوح الثلاثة الملاصقة لبيتنا، لم أقف على الاستمرار بالوقوف خجلاً، تحركت قليلاً، أخذت الابريق النحاسي من مكانه إلى جانب الستارة، بدأت رشّ السطح تفريغاً لهومومي، فاحت رائحة التراب زكية، صرّثُ أشمّها كمن أدمن على شمّها منقوعة بما ينزل من ماء قبل النوم، لكّيتي لم أنم.

تحسّست مرور الهواء على بعض قطرات استقرّت على جلد ذراعي المتعرق، ومع هذا لم أنم، أخذت الحصيرة المتروكة مطوية وفراش من القطن المندوف داخلها مددته إلى جانب عشرة أجساد مُدّت متراصفة إلى جوار بعضها، واثنان منفصلان للوالدين، كأنّهما بهذا الانفصال الصوري يُطبّقان قوانين الخصوصية، وقریباً من أن أغفو طرق سمعي حواراً لجارنا الجنوبي مع زوجته؛ عن طفل يريد إنجابه تحديداً في هذه الليلة.

قالت الزوجة في ردّ لطلبه، وكأنّ في رفضها تتحدجج: سيكون تسلسله العاشر، ألا يكفيها تسعة؟.

قال، وكأنّه يسرّها بكلام لا يريده أن يتسرّب:

إِنَّ الأَطْفَالَ فِي الكِبَرِ عَزُوزَةٌ. أَجَابَتْهُ بِاسْتِعْلَاءٍ:

لَكِنَّكَ شَخْتٌ مُبَكَّرًا مِنْ هَوْلِ الْحَيَاةِ، وَمَكْسِبُكَ كِفْلًا لَا يَكْفِي
عَشْرَةَ. رَدَّ عَلَيْهَا وَهُوَ يَلْهَثُ:

كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ، وَفِي أَوَّلِ يَوْمٍ يُولَدُ، مَعَهُ رِزْقٌ مِنَ اللَّهِ لَا يَنْقُصُ مِنْ رِزْقِ
التَّسْعَةِ، فَاتَّكَلِي عَلَيْهِ خَالِقًا مَنَحْنَا الْقُوَّةَ فِي أَنْ نَنْجِبَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، وَلَا
تَكُونِي سَبَبًا فِي الْحِيلُولَةِ دُونَ إِكْثَارِ الْأُمَّةِ، أُمَّةٌ يَرِيدُ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ أَنْ يَتَفَاخَرَ
بِهَا يَوْمَ الْحِسَابِ بِأَنَّهَا الْأَكْثَرُ وَالْأَعْلَمُ وَالْأَقْوَى.

اسْتَسَلِمْتُ تِلْكَ الْجَارَةَ أَخِيرًا إِلَى مَشِيئَتِهِ، سَمِعْتُهَا تَقُولُ الْأَمْرَ لِلَّهِ وَحْدَهُ،
فَمَا حِيلَتْنَا نِسَاءَ هَذَا الزَّمَانِ غَيْرَ أَنْ نَسْتَسْلِمَ، ثُمَّ خَفَّتْ صَوْتُهُمَا حَتَّى
تَلَاشَى وَلَمْ يَعْدُ يُسْمَعُ.



فرهود غلوة الخفاجي



جسر البرج. لندن



الطواشات



عطية شلال الربيعي. ضابط صف



صالح عزيزي الخفاجي. جيل المعلمين الثالث



الصاعود

يوم دخول المذيع

انتهى يوم عمل ثانٍ لجني التمور في بستان الرهيمية، افترش القادمون من الناصرية الأرض ليناموا استعداداً ليوم عمل جديد، وعاد الآخرون إلى بيوتهم ليكملوا يومهم مثل أمسهم (تعلولة^(١))، في ساحة السمر، كانت لغالبية الأزقة سوح سمر، يختلف حالها عن حال البيوت، فأصوات الأطفال تسمع وهم يلعبون في الساحة المكشوفة، بينما يلهو الشباب أزواجاً في أماكن مستورة، ويتذكر الرجال ومن معهم من النسوة العجائز شبابهم، في سوح يجوع الجميع إلى تبادل الحديث على أسطحها الترايبية. وعن ساحة سمرهم، قال سعيد:

ساحتنا تحاذي البيت نهاية الزقاق، تطوّقها ثلاثة بيوت لجيران ورثوها عن أجدادهم، بينها بيت حسن جعاز، تطلّ على باحتها من ثلاث جهات، يوم كانت بيوت القرية تغوص في الظلام قبل حلول عصر الكهرباء، ويوم كان موسى صاحب أحد البيوت الثلاثة فلاحاً في البلدية، يقصّ على المتسامرين في كل مساء حكاية أهل المدينة، الحلة وما يراه فيها من أعاجيب نساء، شعر بعضهن أصفر، لا تفوته شاردة منها ولا واردة في الذهاب إليها والعودة منها على دراجة هوائية سوداء، نوع (فليس)، يعرف أهل بيته والبيوت المطلّة على واحة السمر وصوله من جرس ثبّنه على مقودها يدقّه مرتين، إيداناً لزوجته صندل باستعجال نصب سفرة الغداء؛

١. التعلولة، هي الفترة الزمنية التي تعقب العشاء، يجلس فيها الأشخاص أو العوائل لفترة من الليل لقضائه في تبادل الحديث، وليس لها وقت محدد، لكنها في الأزمنة التي سبقت وجود الكهرباء كانت تنتهي مبكراً.

مادته في غالب الأيام خبز وقليل من البصل، تَعَوَّدَ تناوله أولاً ومن بعده الصلاة. كان ذاك اليوم يوم الجمعة، والطقس صيفياً، تولّت إبانة صندل تنظيف واحدة السمر قبل المغيب فهو دورها في التهيئة والترتيب لهذا اليوم.

رَشَّتْ أرضيتها ماء كانت قد جلبته تَوّاً بالمشربة من ساقية لبستان الرهيمية تجاور بيتها، توالّت من بعدها النسوة إكمالاً للمستلزمات حال الانتهاء من وجبة العشاء، ولما أصبحت سماء القرية مرصّعة بالنجوم فرشّن وسطها حصراً على شكل مربع، لكلّ عائلة حصيرتها، ومخدّة يتكى عليها ربُّها الرجل في جلسته المعتادة.

جولة السمر هذه الليلة مثل كل ليلة، بدأ الحضور توالياً على المكان، كان أولهم خضير خلف حاملاً عدة تدخينه، كيس تبغ ودفتر لف وقداحة، تسير من بعده بنت داؤد، الزوجة التي يحلو له مناداتها بهذا الاسم كنوع من التدليل. تبع خضير باقي الجيران، اكتمل العدد، رجالاً ونساءً، صبية وبنات كتّنا نلعب تارة، نتشاجر تارة، وأخرى نسترق السمع، لما يدور من حديث بين الكبار.

قَدَّمْتُ صندل أول وجبة شاي، أشاد بجودته الجميع، ومن بعده بدأ تبادل الحديث، تكلم خضير عن عبّيس كيف نزل من النخلة العيطة في الأمس قبل نزول قطعة الليف إلى الأرض، وعرج على مشاركته جندياً في حركات مايس عام ١٩٤١ ضد البريطانيين، عنها قال:

كان جندياً سائقاً لأمر وحدة عسكرية انتقلت ليلاً من معسكر الرشيد في بغداد إلى الحبانية، للحيلولة دون تقدّم البريطانيين في الحرب إلى العاصمة بغداد. كان التنقل مقيداً بالسرية وحتمية الوصول إلى الحبانية قبل

الضياء الأول. أطفأت جميع السيارات أنوارها حال التحرك التزاماً بالسرية، وصلت الهضبة مع أذان الفجر. بدأت المعركة في اليوم الثالث للوصول، نفذ الهجوم لواء مشاة بريطاني مع كتيبة دبابات على مواضع فوجهم الدفاعية في ربوة سن الذبان. صمدوا بقتال ضارٍ ليومين كاملين، كان بعضه بالسلاح الأبيض، انسحبوا بعده قسراً تحت ضغط العدو، حامت فوق خط انسحابهم طائرة أقلعت من قاعدة الحبانية واستهدفت سيارة الأمر بعد انتهائها من ضرب رتل السيارات المنسحبة وحرقت أكثر من نصفها وتعطيل النصف الآخر. أطلقت نيران رشاشها غزيرة باتجاه السيارة، أصابت الأمر وخزان الوقود، فشبت النار في بدنهما. عجز الأمر عن التحرك.

توجّه جنود من العدو إلى موقع السيارة، صارت مشاهدتهم بالعين المجردة واضحة، تقرب جندي من فوجهم كان قد نزل من سيارة أصيبت قبل قليل، حمل وإياه الأمر على الكتف بالتناوب، حتى أطراف مدينة الفلوجة، طرق باب بيت في بستان قريب من النهر، خرج رجل بملابس عربية ولهجة أقرب إلى اللهجة البدوية، وعرف عن نفسه "متعب". طلب منه المساعدة.

ردّ بترحاب قوي: ابشر، ثم أشر بضرورة الإسراع في دخول البيت، ونادى على ولدين من أولاده الخمسة كانا قرييين منه، أمرهما بمساعدة الضيوف، وإدخالهم إلى المضيف، وإبدال ملابسهم العسكرية بملابس عربية على مقاسهم.

ساعة من الزمان مرّت، وصل في نهايتها قريباً من البيت جنودٌ بريطانيون. خرج اليهم سبهان كبير أولاد الحاج متعب، يعمل فَرَّاناً داخل معسكر الحبانية، قابلهم عند عتبة الباب، سأله الضابط أمر المجموعة، فيما إذا شاهد جنوداً ينسحبون ومعهم جريح؟. أجاب بلغة انجليزية بسيطة، تعلّمها بالمخالطة أثناء العمل:

نعم، لقد مروا من هنا قبل نصف ساعة باتجاه مركز مدينة الفلوجة، كانوا يفتشون عن سيارة تنقلهم إلى مستشفى، لا يظنّ الوقت قد أسعفهم في الحصول على سيارة.

عرض عليهم سبهان الضيافة مؤكداً حلول وقت الغداء. شكره الضابط وأمر جنوده بالاستمرار بالسير في اتجاه المدينة دون الحاجة إلى تفتيش البيت.

توقّف النزف تماماً أوّل الليل. جلب سبهان جملاً، يعلو ظهره هودجاً، تم وضع الأمر داخله وساروا وإياه ما تبقى من الليل ونصف النهار في صحراء أوصلتهم إلى أبو غريب، وهو معسكر اتخذت فيه وحدات عراقية وضع الدفاع عن بغداد.

خضير الذي تكلم عن حرب مع البريطانيين قاتل فيها وعن حرب في الشمال مع الأكراد شارك فيها، شخصية جادّة كان وطوال عمله فلاحاً في بستان الرهيمية يعمل فيها يومياً من لحظة صياح الديك إلى أن يبيت الدجاج في أقنانه، يسعى في تعامله وفي شؤون حياته إلى الكمال لكنّه لم يدرك مسعاه، رغم حدّة طبعه يحسب على الشخصيات الاجتماعية المرحّة، يمتلك ذكاءً جغرافياً فريداً، يستدل على المكان الذي مرّ به وإن

كان في الصحراء بسهولة، رجل طموح قضى عمراً يفتش عن ذاته، كأَنَّهُ لم يجدها حتى مماته، التحق بالعسكرية جندياً ولم يبلغ العشرين من العمر، وتركها مبكراً، ليعمل سائقاً سيارة صالون أجرة اشتراها مناصفة مع صديق له نحاساً، تركها وغادر بغداد عائداً إلى القرية التي يعشقها وإلى الزراعة التي ظنَّ أَنَّهُ سيبدع في شأنها.

حاول تطبيق بعض أفكاره فلاحاً في بستان الرهيمية، إذ بدأ تجربته في السقي بوسيلة بدائية (الغفة^(١))، تراه يتقابل وابنة داود يمسك كل منهما بيديه الحبال المربوطة بها، يسقطانها في الماء بزواية مائلة تساعد على أن تمتلئ بسرعة، ليسحبها الحبلين إلى أعلى وبحركة عكسية يدلّقان الماء في حوض يؤدي إلى الساقية، وهكذا تتكرّر الحركة لنصف نهار ليسقي قطعة أرض مزروعة، مساحتها عدّة أمتار، لكنّه استمرّ في طموحاته، أدخل زراعة الخضراوات وبيعها في القرية يوم كانت من قبل ذلك عاراً لمن يزرعها أو يبيعها.

راج إنتاجه فشيدَ ناعوراً مكان ناعور كان موجوداً قبل عقود، ليغطي أكثر من نصف البستان زراعة بجميع المحاصيل للمواسم الشتوية والصيفية. فكّر بنصب مضخّة ماء آلية، ليزيد مساحة الأرض المزروعة، توقّف بعد سلسلة الثورات التي أعقبت مقتل الملك وشجّعت أغلب أصحاب البيوت المطلّة على البستان على فتح أبواب عليها للنفاز منها، إذ عاد منها مساء يوم كان فيه محبطاً، أخبر شريكته ابنة داود، أَنَّهُ سيترك الفلاحة، لعدم

١. الغفة، وعاء على شكل طبق يحاك من الحلفاء، يدهن بمادة القير، يربط بالحبال من الجهتين المتقابلتين.

امتلاكه طاقة الدخول في خصام مع أحد من أهل القرية، فتركها فعلاً وعاد إلى السياقة.

.....

وضع موسى المخدّة على ساقيه، طلب قدح شاي آخر من صندل، ثم بدأ الحديث قائلاً: هذا اليوم وبينما كان في طريقه لنقل الشذب وتنظيف شجيرات وردٍ تفتّحت عطرةً في أرجاء الحديقة المحاذية إلى النهر في حي بابل، ألمّ به العطش وكأته في صحراء الربع الخالي ظهراً، طرق على باب بيت كأته قصر لحاكم بلدة، خرجت منه امرأة سبحان خالقها مثل قمر الزمان، بيضاء، على وجنتيها الصافيتين قليلٌ من الحمرة الربانية، خُيِّلَ إليه أنّها لو شربت ماءً، سييان من حوافي حنجرتها وهو في طريق انزلاقه رقراقاً إلى معدة لها تبدو وكأنّها التصقت بالظهر فأعطت قوامها رشاقة لا توصف.

التفتت صوبه صندل التفاتة عدم رضا دون تعليق، ولما لم يجد ردّة فعل منها قوية أو تعليق أكمل حديثه، على أنّه دُهِل من أول نظرة إلى وجه سبحان خالقه، مسح عينيه من بقايا عرق كان يتصبّب عليهما بطرف الكوفية للتأكد من صواب نظره، عدّل وقفته، أخبرها بعطشه، وحاجته إلى ماء يشرب. ابتسمت ابتسامة رضا أم عطفٍ، لم يستطع تمييزها ثم غابت دقيقة، عادت من بعدها تحمل بيد نقية مثل المرمر، كأس ماء تعرّقت حافته الموشّحة بماء الذهب، تذوقه على شكل جرعات، كان في الطعم أقرب إلى ماء زمزم. انتظرت هي خلف الباب، نصف جسمها الكائن تحت الصدر مخفيّ حتى أكمل آخر رشفة ماء، لولا الحياء لبقّي يرشف منه

قليلاً لساعات، ولأبقى عينيه شاخصةً بوجهها الجميل وصدرها الناهد،
لأنّه شعر لحظتها كمن لا يريد أن يغادر. عند هذا الحدّ أخذت الغيرة من
صندل مأخذاً فخاطبته سائلة:

كيف له أن يعرف طعم الماء زمزماً من لم يحج؟. ومن ثمّ أكملت، وإذا
ما حجّ فسوف لن تُقبل له حجّة وهو يحملق في وجوه النساء، كأنّه لم يرَ
امرأة في حياته، ولم تملأ عينيه امرأة تجلس إلى جواره. أفرغت صندل نصف
ما بجعبتها، سكتت قليلاً ومن ثمّ أكملت النصف الباقي مخاطبة موسى
بالقول:

يبدو أنّك، وكعادتك مستمر بتزويق الكلام.

ضحك الحضور، تناوب الموجودون الحديث، حتى صدرت الإشارة
لجلب المذياع (الراديو) الذي اشتراه خضير أخيراً بالتقسيط بربع دينار في
الشهر، ليشارك جلسة السمر لهذا اليوم. كان المذياع ماركة سيرا الانجليزية،
صندوق خشبي يصل عرضه إلى حدود الأربعين سنتمتراً يعمل بتقنية
اللمبات، يحوي عدّة أزرار عاجية، ولوحة زجاجية تشعّ بلون يقترب من
الأخضر، يتحرّك وسطها مؤشر أحمر، يدعى باللهجة المحلية (الميل).

وضع المذياع على صفيحة معدنية فارغة، وأبقيت بطارية له تشبه
بطارية السيارات منفصلة عن جسده إلى الجوار مستقرّة على طابوقين
رصفتا معاً. حال ربط الاسلاك الموصلة منه إلى البطارية نطق من وسطه
المذيع مشتاق طالب معلناً نشرة أخبار الثامنة مساءً، كان الصوت
مشوّشاً.

طلب موسى من صندل القرية من المذيع أن تحرك السلك الممدود إلى العمود الخشبي. ولما حرّكته، بان الصوت واضحاً، نوّه عن وباء كوليرا خطير ينتشر في أفريقيا، يخشى من انتشاره إلى باقي البلدان بينها العراق، حاولت صندل السؤال عن الكوليرا فلم تستطع نطق الكلمة بشكل سليم، فأجاب خضير قائلاً إنّها (أبو زوعة)^(١) ألم يتكلّم عنها الأهل من قبل، لقد أصيب بها شقيقه الأكبر بداية شبابه، وهي مرض معدٍ نقله إلى القرية قبل خمسين عاماً خياط الخزف الصيني (الفرفوري) سليمان، الذي جاء القرية في جولة عمل كعادته من قبل، بعد غياب لثلاثة أشهر مستمرة، راح خلالها إلى مشهد لأداء زيارة الامام الرضا، وصل القرية وقد لفّ كوفيته على رأسه كما يفعل أهل بغداد، بدأ المناداة بشكل متكرّر (خياط فرفوري) منذ دخوله باب السور، توقّف أمام الزقاق، نصب مَشْعَلُهُ في الجهة المقابلة، بساط من بقايا أكياس خاطها مع بعض، وضع عليه مثقباً وأسلاكاً معدنية والواحاً، ومادة النورة. جلس بطريقة كفّ فيها ساقه الشمال، وأثنى اليمين، أسند عليها يده لما بدأ عمله بثقب أجزاء صحن جلب اليه، ربطهما بسلك معدني أعاد له الروح، أخذ أجره فلساً واحداً، وكان

شقيقه قد أخذ له إبريق الشاي (القوري) الذي انقسم إلى نصفين وهو في الموقد، طلب منه سليمان الانتظار إلى جانبه، بدأ يقصّ عليه وقع زيارته إلى الإمام الرضا ومشاهداته طوال الطريق متنقلاً على الدواب، آلاف الموتى الذين فتك بهم أبو زوعة، وكيف نجا منه بأمر الله، وحيداً من عشرة أصيبوا من بين أفراد القافلة التي وصلت إلى مدينة الحلة بالأمس. تفحص

١. أبو زوعة، مرض الكوليرا، أو الهیضة في اللغة العربية.

الابريق، قرّر أنّ سعر إعادته إلى الحياة فلسان، مسك بعد الاتفاق مثقباً موصولاً بقوس، حرّكه رواحاً ومجئاً حتى حدوث الثقب المطلوب في كل قطعة من القطعتين اللتين انفصلتا عن جسم الابريق في حادثة الموقد، لصقها بمادة النورة المخلوطة بصفار البيض، طوّقها بشبكة دعامات من قطع معدنية مستطيلة.

جرّ حماره من بعدها، وتوجّه نحو الباب الشطاني ليعلن عن وجوده بوتيرة نداء مستمر. وقبل نهاية الشارع، جلس على الأرض، يتقيّاً، حتى كاد يفقد وعيه، تجمّع من حوله الشباب بينهم شقيقه أخذوه إلى الجامع، ومات فيه.

قال حايط: إنّ موته كان بسبب أبو زوعة.

في اليوم الثاني لنقل سليمان إلى الجامع وتنظيف ملابسه من القيء قبل الوفاة، كانوا على الغداء، وحال الانتهاء منه شعر شقيقه بألم شديد، بعده تقيّاً، مسك أسفل بطنه بيديه وأشّر على مكان الألم، شكّا معدة تكاد الخروج قسراً من فمه، وحال الانتهاء من نوبة قيء مرّت شديدة وحلّت أخرى أكثر شدّة، بعدها أخذت حرارة جسمه بالارتفاع إلى حدّ كادت تهرس جسمه الممتلئ، لم يعد قادراً على النهوض من مكانه، صار القيء ناشفاً، بعد نشاف الخزين من ماء الجسم. أخذته الوالدة في حضنها رشّت جسمه بماء كان قد جلبه الوالد من بئر الإمام عمران، بعد زيارته ظهراً والدعاء في مقامه للشفاء، راحت تبكي بحرقة، ولما زادت حالته سوءاً وتوفيت الجارة صاحبة الصحن الذي رتّقه سليمان، من أعراض مشابهة قد واجهتها في اليوم ذاته، وانتشرت أخبار وفيات أخرى بين الشباب الذين

نقلوه إلى الجامع، قصدتُ الوالدة سيّد حمزة، وهو كاتب أدعية، طَلَبْتُ أن يكتب له دعاءً، أعطته الاسم كاملاً، كتبه على ورق أسمر، وضعه داخل تجويف لقطعة قماش مربّعة الشكل، كان قد هيّأها من قبل، ثم خاط دبوساً في جانبها، أشار عليها بتعليق (الحرز^(١)) من الدبوس في أعلى ثوبه، وسيشفى من هذا البلاء الذي أراده الله سبحانه اختباراً لهم، بعد أن قلّ المصلّون في مساجده، وعمّ الفساد.

هزت صندل رأسها بعد هذه المعلومات عن الكوليرا، وتقرّبت من المذيع وجلست إلى جانبه، تفحصت جميع أركانه بعجب بان على وجهها الأسمر. أعادت النظر إليه باستغراب واضح، وفتحت عينيها التي اتّسعت قليلاً لزيادة التحديق. سألتها موسى بصوت يعلوه الحزم:

— ماذا تفعلين؟.

أجابت والدهشة تغطّي قسمات وجهها الأسمر:

تريد التّعرّف على الكيفيّة التي جلس فيها الرجل صاحب الصوت في صندوق لا يتّسع لطفل رضيع.

حاول الحضور؛ كلّ من مكانه شرح موضوع الصوت، فشلوا جميعاً في إقناعها بكيفية تحوله ووصوله، لعدم معرفتهم بآلية البثّ وانتقال الموجات عبر الأثير، لهذا استمرّت تسأل، وبقيت هكذا تسأل، لكنّها لم تصل إلى قناعة، عندها اعتقدت أنّ هذا فعل ساحر أو ضرب من عمل الجان.

١. الحرز، تعويذة يكتب عليها الشيخ أو الملا آيا من القرآن؛ ظناً بقدرتها على حماية حاملها من المرض، وهي تكاد تكون قد اختفت في المدن على وجه الخصوص.



بنت داؤد



خضير خلف العبيدي. فلاح الرهيمية^١



خياط الفرفوري



معركة سن الذبان



الشرطي حسن جعاز الخفاجي من جلاس ساحة السمر



العريف مضحي هجهوج المعموري. من جلاس ساحة السمر

^١. بدأ حياته جندياً ثم سائق سيارة، فسائق في دائرة الري، وفلاح في الرهيمية. أول من أدخل زراعة الخضروات وبيعها في القرية، إذ كانت هذا معيماً من قبل.

عميد القرية شعيب

أخبرت يسرى سعيد أن يكمل ما بدأه قبل قليل، ظنت أن توقفه بسبب نعاسٍ ألمّ به، لا تريد انتقاله إليها عدوى نعاس في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فتنبهه إلى توقفه وعاد إلى حيث القول، إنّ المغرب كان قد حلّ موعداً للصلاة في ربوع القرية، بان صوت الأذان واضحاً وتضاعفت شدّته من مكبرات صوت (سماعات)، وُضعتْ على عمود بقي صامداً لعدّة عقود. نُصب اثنان منها، تنقل الصوت مجسّماً إلى جميع الجهات دون تمييز، كأن لوضعها اعترافاً غير مكتوب بالحاجة إلى صوت مثير قوي يُدكّرُ القوم بالصلاة.

لم يكن هذا الاعتراف موجوداً عندما بدأ المؤذّن عباس الجاسم، يُقيّمه مباشرة من على سطح الجامع، يوم كان يدور حول نفسه دورة تأخذ صوته بعيداً إلى جميع الجهات حتى نهاية الأذان. كان ذاك الدوران ونقاوة الصوت قبل دخول الكهرباء وفرض هذه السماعات، عندما كانت غالبية المصلين من ذاك الزمان يؤدونها في بيوتهم، وكانت ثقافة الصلاة في الجامع محدودة، الا في أيام عاشوراء.

صوت عباس ينتقل من حنجرته صافياً، نقيّاً إلى أرجاء القرية المقيدة بالباب الشطاني إلى باب السور، بلا مؤثرات صوت، والمصلون القليلون على حالهم يلتحقون فور سماعهم صوته وفي جميع الأوقات، ويوم خرجت القرية من سبات ظلمتها وحلّت في ربوعها الكهرباء عام ١٩٦٣، ملّ الرجل رفع أذانه دون سماعات، أراد بكامل وعيه مجارة العصر، كسر

القاعدة التقليدية لإيصال الصوت إلى طبقات إذن تعوّدت عليه هكذا نقيّاً لعشرات السنين، وكاستجابة لحالة الملل وكسب مرضاة الله ومسايرة التطور الحاصل في الحياة، ابتاع من عنده سمّاعات، وضعها على عمود بقي صامداً فوق سطح الجامع المبني بلا منارات إلى هذا اليوم. وللسمّاعات هذه حكاية، لا تخلو من الطرافة، خلاصتها، أنّ المؤدّن عباس الجاسم انشغل بنصب السمّاعات طول نهار كامل، مع محمد شهاب، العارف وحده من أبناء القرية بأمور تأسيس الكهرباء، مهنة كان يدرسها طالباً في إعدادية الصناعة آنذاك. أتمّ نصبها عصرّاً، جرّهما، فكانت نتائج التجريب مبهرة، صوتٌ ضخم موزّع بين أربع جهات، يسمعه في النهار من كان ماشياً في باب السور، وفي الفجر، تتضاعف المسافة إلى حدٍّ يقترب من تلال الامام عمران.

عندها حمد الله، لتأمين غايته في إيصال الصوت الإلهي للأذان طرياً إلى آخر بيت في جانبي القرية. شكر محمد الذي لم يأخذ أجر يديه، تقديرّاً له كمؤدّن القرية، ورجل خير.

خرجاً معاً من الجامع، مرّاً من أمام مقهى (على الله)، سلّم عباس على الجالسين فيها، ردّوا السلام عابراً ولم يعيروا اهتماماً لموضوع السمّاعات، لانشغال أغلبهم بلعبة الدومينو، وقليل منهم في لعبة الورق (الكونكان). ومع هذا سار إلى البيت تغمره السعادة بإنجاز طالما تمناه ثواباً يبقى له إلى يوم الحساب.

حضر في اليوم الثاني مدفوعاً بالرغبة القوية للتجريب العملي، حتى كان حضوره، أبكر من باقي الأيام، فتح آلتة المثيرة مستعجلاً، وقف أمام

الميكرفون المنصوب، تلا الأذان بصوته الرخيم، انتبه أهل القرية إليه مسموعاً من خلالها بوضوح، وهم يتّام على سطوح بيوتهم في شهر أيلول.

عاود الكرة منتشياً في وقت الظهر وفي المساء لهذا اليوم الخميس، ويوم الجمعة الذي تلاه، عاودها كذلك ثلاث مرات، لكن أعداد المصلين داخل الجامع بقيت على حالها، لم تتجاوز الخمسة أشخاص.

.....

حضر عباس في اليوم الرابع، نشطاً مندفعاً، ما زالت نشوة استخدام التقنية الحديثة لنقل الصوت والتنبيه إلى الصلاة تسيطر عليه، وجد جار الجامع محمود موجوداً في باحته، سلّم عليه، ظنّ أنّه قد حضر الصلاة على غير عادته، يقضيها في البيت. ردّ محمود السلام بغضب مصطنع.

بغت عباس من مناداة محمود لشخصه بالاسم الصريح، لأوّل مرّة من جار جرت عادته المناداة بالكنية الدارجة أبي حبيب. هزّ رأسه الكبير فوق قامته المديدة ثم دعاه إلى الصلاة مُعلّقاً بالقول، إنّها خير من النوم.

انفرض محمود كالمسلوع صائحاً بصوتٍ نبرته أعلى من الأول ومقدار الغضب فيه أشد:

- عن أي نوم تتكلّم؟.

ثم أكمل سؤاله جواباً مفاده، أنّ (السّماعات) الجديدة لم تدع لهم مجالاً للنوم، إنّها توقظ الأحفاد مذعورين، حيث لا طاقة له بهم في ساعات الفجر هذه. ردّ عباس بهدوء وكبرياء:

لكنّها تذكّر بالصلاة ومن واجبه التذكير، أمّا الأحفاد فسيتعودون، على صوتها يوماً بعد آخر.

زادت حدّة الغضب عند محمود، وبرزت أوردة رقبتة عند الكلام. أجاب أن كلمته لا تتجزأ، ولا تكون اثنين، لا بد من إغلاق السماعات والعودة بالأذان كما كان بلال يؤذّن للمسلمين، يوم كانوا مسلمين بحق.

أدار عباس ظهره لمحمود وأبّجه صوب المنبر بدأ بتشغيل السماعات في طريقه لرفع الأذان بثقة عالية في النفس وبالحماية الإلهية الجبّارة، ودار محمود هو الآخر إلى وجهته عائداً إلى بيته القريب، عاد حاملاً (حدرته)، دخل في اللحظة التي وضع فيها عباس كلتا يديه على أذنيه ليبدأ الأذان. هجم عليه بقصد تكسير الجهاز. رجع عباس قليلاً إلى الوراء فتفادى ضربة كانت محققة على الرأس، ثم تقدّم نحوه بسرعة وبثقل جسمه القوي مسك الحدة من قسمها الحديدي، تعالى عندها الصراخ، وطلب الاستغاثة، وتحوّل دور السماعات في ذلك الصباح من نقل صوت الأذان إلى نقل صخب الشجار، عالياً فضّه شعيب؛ كان قد حضر إلى الجامع ليؤدي الصلاة.

عباس الجاسم، الذي عمل في الأصل فلاحاً في أرض يملكها مع أخوة له في منطقة الجوبة، كان معروفاً بطيبته وورعه، طويل القامة ذا جسم خشن، وبشرة بيضاء تميل إلى الحمرة، مهيوماً في مشيته، عند تشييع أحد أبناء القرية في توديعه الدنيا إلى مثواه الأخير على وجه الخصوص، تبرّع لرفع الأذان في الجامع، ويتبرّع في السير أمام الجنازة عند التشييع، صوته جهوري ممّيز، ولما يتكلّم في المجالس يتكلّم بصوت عالي النبرات يسمعه من يكون

جالساً في الطرف البعيد، يعزه أبناء جيله، يعدّونه من وجهاء القرية، ويكونون له الاحترام، وباقي أبناء القرية صغارهم والكبار، منفتحون على الدنيا أكثر من غيره، رغم توغله بعيداً في شؤون الآخرة، يناقش في مواضيع السياسة وحق العامل والفلاح في حياة أفضل؛ يفسّر البعض هذه المقدرة ويردّونها إلى عقليته المنفتحة وإجاداته القراءة والكتابة، ويردّها البعض الآخر إلى موجة الانفتاح على اليسار بعد ثورة تموز ١٩٥٨ الذي انفتح له مجتمع القرية وصار عموم الشباب من جيل أبناؤه من اليسار بينهم ولده حبيب. عاش عباس من العمر قريباً من الثمانين، شيع طواها عدداً من أبناء جيله والجيل الذي سبقه وآخرين شباب، وشيعة أخيراً أبناء القرية تشيعاً مهيباً وفاءً له وخدمة أداها الجامعهم الوحيد.

.....

غريب أن يكون الجامع في زقاق شبه منزوٍ وشارع القرية موجود، والأراضي في ذلك الزمان ميسورة أكثر من هذا الزمان، قال فؤاد الذي سنحت له فرص عدّة للتواجد في حرمة، صحة أخواله في زيارته لهم خلال بعض المناسبات.

أجاب سعيد: لم يكن هناك جامعٌ في القرية قبل تأسيس الدولة العراقية، ويوم استقرت هذه الدولة المؤسّسة حديثاً، وبدأ الأبناء بالتطوُّع في مؤسّساتها العسكرية جنوداً وشرطة، اطلعوا على أحوال المدن، شاهدوا جوامعها وعرفوا أدوارها في التعليم والعبادة، أحسّوا بالحاجة إلى مثلها في قريتهم التي تحاذي المدينة، وإلى ممارسة الطقوس وإقامة المناسبات الدينية كما يفعل سكان المدينة. جلسوا في المضيف كعادتهم، باتوا يناقشون

الموضوع، يفكرون بسبل تحقيقه، تنبّه عباس شبيب لموضوع عدّه مهماً، قال عليّ الأرض؛ سأقتطع مساحة من داري أخصّصها جامعاً لوجه الله تعالى، ومن عنده قال الحاج عباس عبد الحسين صاحب المضيف وكبير عشيرته، وأنا سأتبّع بكلف التشييد كاملة.

ذهب شعيب جواد في اليوم الثاني إلى مدينة الحلة بتكليف من الحاج عباس، لإحضار الأسطة محمد، بناءً يعرفه الحاج جيداً، هو من جدّد له بناء المضيف. حضر محمد في اليوم ذاته، خطّط الأساسات، وحدّد الطلبات، قال سأحضر في مثل هذا اليوم الأسبوع القادم، أجد الطابوق والنورة والجنود وباباً خشبياً كي نشرع في البناء.

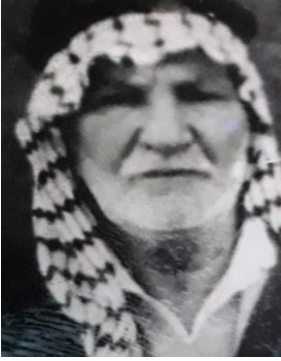
راح شعيب وبعض رجال القرية يحفرون الأساسات، نزلوا في الأرض حفراً أقل من نصف متر، نحروا جدياً ودفنوا مجتمته في الركن الجنوبي من الأساسات. حضر الأسطة محمد ثانية يوم السبت كما وعد مع عامل له مساعداً يناوله الطابوق، وفي السبت الذي تلاه أذنّ على سطحه إبراهيم بليل لأوّل صلاة.

شعيب، كان في وقت بناء الجامع أكبر الموجودين عمراً، قيل إنّه ولد في خمسينيات القرن التاسع عشر، وقال عن نفسه، عاصر حكم السلاطين العثمانيين عبد المجيد، وعبد العزيز وعبد الحميد الثاني ومحمد رشاد، عايش كذلك أيام الحرب العالمية الأولى، وتأسيس الدولة العراقية، والحرب العالمية الثانية، وعاصر ملوك البلاد الثلاثة، والجمهوريات الأولى عبد الكريم وعبد السلام والثانية جمهورية البعث الأولى عام ١٩٦٣، ومن بعدها الثالثة عبد الرحمن، ومات عام ١٩٧١ قبل أن يكمل البكر جمهوريته الرابعة.

استمرّ نشيطاً، واستمرت أسنانه أعلى فكّيه، يشيع الشباب القريبون منه أنّ أسنانه هذه (لبنية) نمت بعد سقوط جميع أسنانه القديمة. فقد سمعه في سنه الأخيرة، الأمر الذي كان يسبّب له قدراً من الانزعاج. يقول عن نفسه يوم يحضر المضيف، إنّّه من جيل حايط، زامله في صباه وشيخوخته، نقل عنه عدداً من التنبؤات.

كان فلاحاً هميماً، له بستان ورثه عن أبيه في منطقة الجوبة، استمرّ يعاينها ويخدم نخيلها ويحرق أرضها وهو في هذا العمر الطويل، معتمداً على ذاته، إذ لم يرزقه الله من الخلفة الا بنتين. كان يذهب إلى بستانه مبكراً بعد أدائه صلاة الفجر في الجامع، يمتطي حمراً أبيض رافقه زمناً طويلاً. ليعود منها بعد صلاة الظهر ممتطياً صهوته فوق (شبكة) حشائش متنوعة يجلبها يومياً إلى بقرته الحلوب. ذاكرته جيّدة، يروي في جلسات كان يحضرها بمضيف الحاج عباس عن العثمانيين، وسبل تجنيد الشباب قسراً وهروبهم في الطريق، وعصيان العشائر للولاة والحكّام العثمانيين، ومشاركة عشائر القرية في عديد منها، بأسلحة لهم بسيطة؛ بعضها فؤوس.

سجّل عمر شعيب كما كان يقال في وقته رقماً قياسياً، قيل بلغ المائة والعشرين عاماً، هو الأطول عمراً من بين أبناء القرية الذين سبقوه، وربما في عموم البلاد وهو الرقم الباقي مسجّلاً باسمه (بشكل غير رسمي) حتى الآن، إذ لم يبلغ هذا العمر من جاء بعده من الأبناء والأحفاد.



المؤذن عباس جاسم الربيعي



الجامع مع السماعات



شعيب جواد السلامي، المعمر في القرية



محمود عبد جواد السلامي



محمد شهاب العبيدي، أول خريج صناعة



حبيب عباس الجاسم، حيل المعلمين الثاني

تتبع الأثر

تنبه سعيد إلى ذكريات تفاعل معها الأصحاب وهم في جولتهم الليلية بشوارع لندن، قال: حزمت أمري عائداً إلى القرية ثانية بعد أشهر من مرور رتل الدبابات، لأرتق فتقاً زاد في خام الذكريات، وصلتها، في يومي الثاني، ترجلت عند باب السور، وتقدمت خطوات في شارعها، تكوّن انطباع أولي أنّ جدران غالبية بيوتها العريقة، قاومت تقلبات الزمن، ظلت ماثلة في أماكنها تتحدى الزمن، وكذلك قسّام زيدان، الشاهد الباقي من أهلها على هذا التحدي، كان لحظة التقائي به بداية الشارع ماشياً كأنّه خارج من مستشفى عظام، تعابير وجهه شفافة كما كانت أيام الشباب، كذلك الوثوق بالنفس والتألف معها، باقيتان وقد أكسباه قدراً من التقدير والاحترام، زاد عن تلك التي رافقته من أيام الشباب. توقفت عنه مسافة خطوتين عمداً لألقي السلام احتراماً له، فهو عميد الباقين على قيد الحياة من ذاك الزمان، ميّزني كما توقعت بصعوبة، تعود إلى ضعف في مستويات النظر البعيد والقريب، لازمته منذ الصغر. سلّم بعد التأكّد بحجارة، سأل عن مناسبة الوقوف في المكان بعد نصف قرن وتيف من التحرك الدائب خارجه والزمان، فكانت الفرصة سانحة للمشي معه بطيئاً في هذا الشارع الذي بقيت صورته واضحة في العقل طوال عقود، سأل:

- ألا ترى ما حلّ بالقرية من تحوّل، بعد مرور رتل الدبابات من باب

السور؟.

فكان في مقابل سؤاله سؤالٌ سألته، وهل تعتقد أنّ هذه هي المرّة الأولى التي يحدث فيها هذا التحوّل؟.

أجاب: لكن وقع الرتل في مسألة التغيير الذي جرى في خواصر القرية هو الأكثر حدّة وتأثيراً، إذ وبعد مروره من أمامها مزهوّاً بنصره السريع على خصمٍ ملّ جنوده القتال، اتّجه صوب بابل الأثرية، جثمت دروعه على خزين أرضها المدفون، خلافاً للقواعد الدولية في التعامل مع المناطق الأثرية، أوحى لمن اقترب منه وسمعه وتقرّب إليه، أنّه آت لتغيير الواقع في كلّ اتجاه، فتكون في عقول الأصحاب رغبة في التغيير، شحذ بسببها البعض ذواتهم ليحققوا فعل التغيير، فجاء تغييراً على حساب النخلة والبستان ومكانة القرية جزيرة وحارسة للآثار. تنفّس قسام ألماً، وأكمل رؤياه عن التغيير، قال: ظلّ اللاهثون أنّ الوقت مناسب للتخلّص من عبء البستان قبل استعادة الدولة وعيها ومنع التغيير الكيفي ومخالفة القوانين. فسّر قليل منهم شعارات التغيير إيجاباً في كسر طوق الحصر، ذاك الذي دام مئات السنين. فانطلقوا حال التفسير في عدة اتجاهات، أسقطوا عن قريتهم حقاً منحة التاريخ في أن تكون مميّزة بموقعها بين تل أثري وبين نهر وبستان، حارسة لمقابر أهل بابل من ذاك اليوم الذي انتهت فيه حضارتهم إلى هذا اليوم الذي ستصبح أحداثه تاريخاً، تكثر فيه الفواصل والقطوع، كأنّ أحفاد بناء هذه القرية الجمجمة، القائمين عليها اليوم لا يريدون إبقاءها جزءاً خالداً من ذاك التاريخ المدفون، أو إنّهم يسعون إلى التمرّد على تاريخ أجداد يعتقدون أنّه لا ينفع وحاضر تلمّسوه لا ينفع، فوجدوا في الرتل فرصة للتمرّد، ووجد قائد الرتل فيهم قوة تعزيز لتمرد مطلوب حدوثه.

كان قسام في حديثه هذا يعبر بكلمات نابغة من جوف ملاءته غصات وشجون، كأنه غير راضٍ على تغيير حصل، فنوه إلى أنه صار يرى وكأن نخيل القرية، وتلال الآثار، وعظام سكنتها الأوائل باتوا أعداءً لجيل ساعٍ إلى التمدد تمرداً على حساب بسايتهم والنخيل. ضرب بكفّ له على كفّ تعبيراً عن الانزعاج وأكمل من أن التمرد هذا على الواقع المعاش لم يكن قد حصل اليوم ولا بالأمس القريب، حصل فعلاً يوم شرع الثوريون قوانين الإصلاح الزراعي دون أن يدرسوا الطبائع والعادات، دفعوا الفلاح إلى أن يتمرد على بستانه، يتركه كارهاً مالك أرضه، جاحداً بعمته النخلة.

.....

استمرّ قسام ساكناً بعد تقديمه رؤية فلسفية عن التغيير، بصيغة محاضرة وكأنه كان يلقيها منهجاً على تلاميذ الصف السادس الابتدائي. سألته:

- لم السكوت؟

أجاب: إنه تذكر مالك أرض القرية كامل الجادرجي وتذكر زارعي نخيلها الذين تركوها من ذاك الزمان، متيقناً أنهم لم يتركوها بسبب شكاوى ظلمه إقطاعياً، كما كان يدعي رجال الثورة، لأنّ كامل وبحكم آرائه السياسية التقدمية تركهم يزرعون، يزدون من ثروتهم الحيوانية كما يشاؤون، يشاركونهم فقط في الناتج السنوي للنخلة، صار في السنوات الأخيرة لا يسدّ التكليف.

مدّ يده في جيب الثوب الأبيض، أخرج منديلاً ونشّف قطرات ماء ظهرت على جبينه المتعرق من شدة الحر وأكمل سرد رؤيته عن كامل،

قائلاً: إنّ الرجل قد تنحّى جانباً حال صدور قانون الإصلاح الزراعي، أبقى في آخر أيامه وبعد اعتزال السياسة خيوط العقّة مع أرض أجداده قائمة، في بيت بناه متواضعاً قبل سنين على ضفة النهر في بستان (الطرمبة)^(١)، بات يتواجد في ربوعه بعد صدور القانون، عنه روى زيدان خلف، حارس هذا البستان مؤكداً أنّه يأتي يوم الخميس، يجلس في الصباح على كرسي من الألمنيوم بشرائط من السفيف النسيجي الملّون يضعه الفلاح في حديقته المحاذية إلى هذا البستان، الذي أبقته له الحكومة حصّة خالصة من أراضيه المصادرة، زاخرة بأشجار الحمضيات ونخيل المكتوم، اعتاد الجلوس ومسك جريدة الأهالي التي استمرّ صدورها متقطّعة بامتياز، بقي باسمه حتى وفاته شيخاً جاوز السبعين عاماً بقليل، ومن بعد الجلوس، اعتاد النهوض بهمة ليمشي ساعة زمن في طريق ترابي وسط بستان، تحفّه نخيل المكتوم بأسقة الطول تتظلل بأفياؤها أشجار البرتقال، يبدأ من ذاك البيت لينتهي عند بوابة تحاذي الطريق العام حلّة - بغداد، يلقي عليه التحية، يقف أمام غرفة له من الطابوق مبنية جنب البوابة الرئيسة ويتبادل الحديث عن أحوال القرية وبعض من أهلها الكبار، وفي إحداها سأله عن كيفية تعرّفه على شخوص الماشين على الأرض من آثار أقدامهم؟. أجاب، إنّها فراسة يمتلكها في التعرف على الرجال خاصة للصوص (الحواف)، من شكل الأثر الذي تتركه أقدامهم على الأرض وهم حفاة، لكلّ قدم من أقدامهم رسم مطبوع في ذاكرته، حتى اعتاد من تُسرق له بقرة

١. الطرمبة. كلمة بالعامية الشائعة قديماً، وهي إيطالية الأصل تعني حنفية الماء، تكاد أن تكون قد اندثرت بحكم قلة الاستخدام، وأطقت هذه التسمية على بستان الجادر جي التي أصبحت الآن جزءاً من حي الجزائر في مدخل الحلة، مجاور مستشفى مرجان.

أو شاة من أهل القرية والمناطق المجاورة لها، المجيء اليه مبكراً، ليكشف معه عن الأثر، ثم يقرّر بعدها أنّ فلاناً ابن فلان هو صاحب الأثر. وبعد القرار ودون نقاش، يقوم المجني عليه بالذهاب إلى الجاني، يساومه على إعادة البقرة أو الحمار المسروق أو الشاة لقاء (الحلاوة) الفدية، مبلغاً من المال يجري الاتفاق عليه تراضياً بين الطرفين أو عن طريق وسيط.

.....

كان زيدان أشيب قصير القامة، أسمر اللون، نصفه ملاك ونصفه الآخر عالم أثر، ذا رأس كبير بعض الشيء وعيناه سوداوين، أصغرتهما كثرة التحديق بالأثر، أبقاها تفيضان بالتحدي، وأبقى منخريه مبهرين كأثما يشمان الأثر، كان واثقاً من التشخيص الذي يعطيه، ومن الرأي الذي يقوله لما يتعلّق بصاحب الأثر، مثل طبيب اختصاص، يتابع مآل التهاب انتشر في جسم مريض وفي أكثر من مكان.

كان العجادرجي في تلك الجولة ضجراً بعض الشيء من أخبار السياسة، كأنّه يحسّ أنّها جولته الأخيرة. هم بالتحرّك من أمام غرفة زيدان، فطقوسه في المشي لا تحتل التوقف طويلاً، ألقى تحية الوداع، ابتسم ابتسامة شكر معبّرة، خطا خطوة واحدة ثم عاد يسأل عن كيفية تعرفه على شخص ابن طوكان التي كانت قدماء محيرة، كما ورد على ألسنة كبار قريّتكم الجمجمة.

نزل زيدان من على التخت الذي أخذه مكاناً للنوم والجلوس منتشياً بجرعة فخر دفعته إلى السرد المتوالي لموهبته في التعرف على الأثر، وكأنّه من رواة عصر كان وحيداً فيه، قال: كان الليل حالك السواد وصار القمر

يتأخر في الظهور ليلة بعد أخرى حتى أضحى يشاهد عند الفجر، وكان فيصل الأول قد وصل إلى العراق حديثاً ليتوج ملكاً على البلاد، صحا شلال من نومة على سطح بيته المجاور إلى السور، ليؤدي صلاة الفجر، شاهد فتحة في السور، فنزل ماسكاً فانوس بيته الوحيد، إلى فناء داخلي لدار ورثها مبنية بطابوق المدينة الأثرية، لم يجد بقرته السوداء. تجمّد في المكان بقوة مثل عجوز شم رائحة الموت. ولما أدرك بعد المسافة عن الموت توجه نحو سلاح وحيد يملكه في البيت وهو (المكوار)، أخذه من مكان له عند زاوية الباب، وعاد راكضاً باتجاه الفتحة التي فتحها السارق وكانت كافية لإخراج البقرة دون عناء. توجه إلى بستان المومنين، سار إلى الامام لاهثاً مسافة تصل إلى ألف متر على وجه التقريب، وعاد إلى السور، تلفت يميناً وشمالاً، مثل أمٍ فقدت طفلاً تاه في زحام، لكنّه ودون إدراكٍ واعٍ للاتجاه المطلوب عاود الركض مهموماً باتجاه اليسار ظاناً أنّها الجهة التي سار عليها اللصوص والبقرة.

بعد دقائق من اللهاث، وضربات قلب زادت كثيراً بسبب الجري تيهاً، يئس من أن يظفر بالبقرة وأطراف الخيط، وبعد أن مرّ الفجر دون أمل يذكر، وأسقطت الشمس ذيول أشعتها على السور، أخذ عباءته وواصل يحكي قصة البقرة، ورغبته في التعرف على الأثر.

استغرق التدقيق وقتاً طويلاً، إذ إنّ الأثر الظاهر على سطح الأرض الترابية يبدو مشوّهاً، دفع إلى التعقّب سيراً بطيئاً وكأنّه سيرٌ في حقل ألغام، ظهر بعدها الأثر واضحاً في ثناياه خسفة على حافة الكعب.

نظر زيدان إلى كامل كأنّه يريد التأكد من جدية الإصغاء، اعتقاداً منه أنّ شخصاً مثله لا يعير اهتماماً لحكايات أهل الريف، ولما وجده جاداً، أكد أنّه قد قارن الأثر بالصور المخزونة في عقله لآثار أقدم كثيرة. صاح في وقتها وبصوت حاد، إنّّه هو، وتابع الأثر وصاحب الشأن شلال إلى جانبه، وجداه والبقرة قد دخلا بيتاً في الغصيرات^(١)، عرف أنّه منهم وأنّه هو ابن طوكان من سرق البقرة. ولما حلّ الظهر قصده شلال، استردّ بقرته لقاء دينار واحد ثمن الفدية، مع إصراره؛ أي ابن طوكان على تقديم الغداء قبل العودة بالبقرة إلى بيته في القرية. تناولوا غداءً حضره بعض من الجيران، أشادوا بشجاعة ابنهم رجل ليل، وكرمه في إقامة مآدب الغداء بعد كل عملية سطو نظيف.

همّ شلال بالخروج، مسك حبل بقرته بإحكام، سارا معاً وقبل بلوغ باب الدار المحاكاة من الجريد، وبعض حبال من الليف. سأله:

- بالله عليك ألم يكن ابن خلف هو من ذلك على الأثر؟.

ضحك، ضحكة راضٍ عمّا حدث، تعني الإيجاب.

سمع الجادر جي القصّة كاملة ولم يعلّق على تفاصيلها رغم احتجاجه المبطن على قيمها، عاد من بعدها إلى البيت، بقي فيه حتى حلول مساء السبت، قفلَ بحلولة راجعاً إلى بغداد بسيارته الخاصة، نوع شوفليت أمريكية الصنع، كمن يريد إفراغ هموم البلاد والسياسة التي حملها منذ أول أيام شبابه في عشرينيات القرن حتى ستينياته.

١. الغصيرات، قرية صغيرة باتجاه جدول النيل.



جريدة الأهالي



قسام زيدان السلامي. جيل المعلمين الثاني



المكوار



القوات الأمريكية في بابل



بعض المعلمين للمدرسة من خريجها عام ١٩٧١



يوم تتويج الملك فيصل الأول

القديس حنتوش

ضحك قسام عند النظر إلى مجموعة أطفال جلسوا على ضفة النهر يلعبون لعباً بأجهزة لوحية، صار أحدهم منفِعلاً، يشتم آخر بحرقه، لعدم تمكنه من قتل الوحش في لعبة الكترونية. نوه إلى أنّ صحّة هؤلاء الأطفال النفسية بسبب هكذا ألعاب تحدّ للذات الفردية، ستكون متدنية من حيث السواء عن صحّة أطفال ذلك الزمان الذي كانت لعب التحدي خلاله بسيطة ومثيرة لتحدي واقعي ملموس، سواء بالدخول في كوة الدخان الصادر عن مائدة المكافحة الخاصة بالبعوض عند مرورها في الشارع مرّة في كل موسم أو في الجري خلف العربة (الربل) وأحصنتها الدغماء، يوم تدخل القرية مع أحد أبنائها قادماً من المدينة بعد مغادرة سيارة عبس لها في آخر مشوار بعد انتهاء الدوام الرسمي، أو تلك العربة التي اعتاد (حنتوش) استئجارها يومياً لنقله إلى القرية عصراً، مع قالب الثلج المرصوص، وربع قنينة الخمر من عرق العصرية المعهود، وإن كانت العربة قد حصّن دفاعاتها الحوزي حمزة، عدّة خطوط من الأسلاك الشائكة بين الدولابين الخلفيين.

كان حنتوش إنساناً طيب القلب، ودوداً مسالماً، متسامحاً، كأنّه من أتباع المسيح، أمين على تطبيق وصيته القائلة: (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر)، مجاملاً حسن المعشر، ضعيف البنية، تكاد بعض عظامه تُرى من خلف جلده الأسمر، لا يلبس العقال، مناكفاً أبناء جيله، تراه في المعتاد مرتدياً ثوباً أبيض وحزاماً أسود، وغطاء رأس (العركچين) غيّر

كثير الاستخدام لونه الأبيض حتى صار مائلاً إلى السمرة. لا يجب التواجد بين الحشود البشرية.

عاش مقتنعاً بعيشه، من عربة لبيع المشويات (الفشافيش) يمتلكها ثابتة (بسطية) يفتحها قبل الدوام الرسمي وسط مدينة الحلة، قريباً من مديرية الشرطة، ويغلقها، ناهياً مشواره وراضياً قبل المغيب بساعة.

جاد في عمله طوال ساعات العمل، لا يغشّ، يُقَلِّب أسياخ مشوياته من اللحم الطازج، وقطع الكبد وقلوب الخرفان وبيض الغنم، يحرك نارها ب(مهفة) من الخوص غير لونّها الدخان، وأثر سلباً في قوة بصره التي ضعفت في نهاية المطاف.

صاحب مزاج وهّاج في الليل، يتسكّع في دنياه بسخريّة الزاهد، لا يحسبها دنيا اتصال ولا يعير اهتماماً لمآلها الفاني، يحسّ بالجميع أهله وأصدقاء، تحفّ به مع كل عَوْد للقرية بعربة (ربل) جوقة أطفال سدّج حال نزوله منها حاملاً قالب الثلج، وقطرات ماء تزداد أعدادها، نازلةً على ثوبه الأبيض مع كل خطوة في المشي حتى تخوم بيت أهله وسط الزقاق، كأنّها زخات مطر صيف، تتوقّف منحسرة عند حزام جلدي أسود ترابي يحزّ البطن من وسطها.

يستمر حنتوش في مشيته دون اكتراث لزعيق الأطفال من جوقة السدج، يدخل الزقاق ثم البيت، يضغط بخطواته المتأنية على نعلٍ نصفه متآكل جراء المشي كذلك أسود ترابي، وعلى جسم نحيل يتموّج، كأنّه يعاني مشكلة أبدية في الاحتفاظ ببعض أجزائه المتناثرة في سعيها إلى الهروب منه دون وعي.

كان الرجل متمرداً على نفسه وعلى عادات القرية وتقاليدها، حاول مغادرتها أكثر من مرة، قاصداً بغداد ليتوه في شوارعها، لكنّه لم يقوَ على التيه، فيعود إليها وقالب الثلج على كتفه مثل كل مرّة، وكأنّه لم يغادرها ولا في أي مرة.

.....

سقط حنتوش أرضاً إلى جانب عربة الشواء المطعم، فحملة حسون الحمادي فزّاش المدرسة، تصادف مروره إلى جانبها، وهو في طريقه ماشياً لإيصال تلاميذ من المدرسة يشكون أمراضاً إلى مستوصف صحّة الطلاب. طرق الباب على طبيب المستوصف سامي الشيخاني، استأذنه بعرض حنتوش الذي سقط من طوله فجأة.

أوماً سامي بالموافقة على إدخاله، ثم طلب مده على أريكة الفحص، وقد فعل حسون ذلك. فحصه الدكتور بإمعان وتأنٍ، ثم أمر بمساعدته للجلوس على مصطبة في الممر.

حملة حسون ومن معه من التلاميذ المرضى، أجلسوه على المصطبة، كان متعباً لا يقوى على الجلوس، مدّ جسمه على طولها وعاد حسون إلى الطبيب كي يستفسر عن حاله. أخبره، يعاني تليفاً في الكبد من الدرجة الرابعة وهي الأكثر خطورة وحدّة، وعليه ترك الكحول حالاً، وعدم الاقتراب منها إطلاقاً، ونصح بعرضه على طبيب باطنية زميل له، وهو أمين الرفاعي في أقرب وقت.

انتقل الدكتور سامي بعد اتمامه تشخيص حالة حنتوش، إلى التلاميذ المرضى، طلب إدخالهم واحداً بعد الآخر.

عائنه هذا الطبيب، اللبناني الأصل، صرف لأربعة منهم دواءً من الكينين، وأعطى الخامس دهناً أسود لفته المضمد الصحي بورقة، طلب منه وضع كمية من هذا الدهن المرهم على ورم بسيط في ساقه، مع وجوب تكراره يومياً إلى أن يصبح للورم رأساً نافذاً يخرج الدم المتواجد في الساق، وذلك إيداناً بالشفاء.

نسي حسون صاحبه حنتوش راقداً على المصطبة وهم بالخروج من المستوصف في رحلة عودة إلى المدرسة ماشياً مثلما جاء، تأكد من تلاميذه المرضى، عددهم ثمانية، وثالثة، أوقفه الدكتور سامي الذي تصادف خروجه لاستقبال زوجته النمساوية وكلبها المدلل، فهي تزوره عادة للترويح عن تواجدها في بيئة تشعر بمرور الوقت فيها بطيئاً، ومن بعدها تكمل المشوار مشياً في شوارع الحلة حتى حديقة النساء. سأل:

- هل ستعود هؤلاء الصغار إلى المدرسة مشياً؟.

- نعم هو كذلك.

حدّق الطبيب فيهم واحداً بعد الآخر، كأنه يعيد فحصهم سريراً ثم نظر إلى حنتوش الذي لا يتحرك من كثر الوهن.

- كيف سيمشي هؤلاء الأطفال المرضى وكذلك الراقده هناك شبه الفاقد للوعي أكثر من ساعة، وفي هذه الأحوال التي لا يقوى على المشي فيها الكبار؟.

- لكنّنا تعودنا المجيء والعودة مشياً، وهذه ليست المرّة الأولى، ثم أنّ المعارف لا تصرف أجوراً للنقل.

قرّب الطبيب إذنه اليسرى من فم زوجته التي تكلمت بلغة ألمانية غير مفهومة قائلاً: إنّ اليوم ليس مثل الأمس، المشي في أجواء المطر والبرد، يؤثران في صحة الأطفال المرضى، سيرسل الفّراش ليجلب لهم عربةً (ربلاً) تعيدهم إلى القرية على حسابه الخاص.

حضر الربل، وكانت الصدفة قد لعبت دوراً في أن يكون صاحبه حمزة الذي تعود نقل حنتوش وقالب الثلج يومياً إلى القرية، ساعد حسون في نقل حنتوش إلى الربل، استقر جالساً في المكان الذي اعتاد الجلوس عليه في الخلف، وأخذ حسون مكاناً له إلى جانب حمزة، وتوزّع التلاميذ على باقي المقاعد الشاغرة.

انطلق حمزة بربله سريعاً، وبعد انطلاقة بدقيقة، خاطبه حنتوش، راجياً المرور إلى جوار السيد ميخا لشراء حصة اليوم من ربع العرق، بالإضافة إلى ربع آخر دون نسيان قالب الثلج المعتاد.
ختم كلامه بعبارة فيها حسرة:
(من يضمن عمراً قد يكون بلا غد).

.....

استدرك قسام وقع كلامه، غيّر قليلاً من مجراه، كأنّ في داخله رغبة لإضافة شيء إلى التاريخ، فأضاف:

كان الطب في مدينة الحلة ذاك الزمان مستنداً إلى ثلاثة أطباء عرب، إذ وبالإضافة إلى سامي لبناني الأصل، هناك زميلان له سوريان جاؤوا إلى الحلة بنفس الفترة الزمنية هما أمين الرفاعي، ويوسف جبوري، خدموا مدينة الحلة بإخلاص، ولم يكن هناك طبيب أسنان.

توقّف قليلاً ليكمل ضحكة بانث على شفتيه، واستمر يتذكّر السنين التي سبقت مجيء الشيخاني وأولئك الأطباء، منوهاً بأن جدّته عاجلت الجرب بمزيج الكبريت والدهن الحيواني، والطفح الجلدي بوضع قطرات من مرارة خروف على البقع، أمّا الأسنان فتلك مشكلة، عاناها شخصياً مع الحلاق ناصر (أبو ويه) يوم أرسل والده على هذا الحلاق، لتخليصه من ضرر حرمة النوم ليلتين، إذ حضر ناصر بعد إكمال حلاقته شعر طلاب المدرسة جميعاً، يوم لم يكن في القرية حلاقٌ من أهلها.

كان ناصر خشن المظهر، مترهل البطن، رأسه كروي مدوّر، طلب منه الجلوس على صفيحة وضعها إلى جانب الحائط وطلب من والده مسك يديه. تناول كماشة لقلع المسامير سوداء اللون يعلوها الصدأ.

قال افتح فمك، فتحه بصعوبة يساورها الخوف، حاول مع ضرر أكله التسوس، فشلت له محاولتان متكررتان، فغيّر خطته. قلع السن السليم الذي يجاوره أولاً، ثم توجّه إلى الضرر المتسوس، تعالى الصراخ أولاً ومن بعده لم يتذكّر ما جرى. تنبّه إلى الوالدة ترشّ ماءً على وجهه، لإفاقة من الغيوبة، بكى ساعتها، بكاءً استهجنه ناصر في وقتها، وذر قليلاً من الرماد على الجرح، أوقف النزف.

وهنا تحوّل قسام في حديثه من السرد إلى التهكم، قال:

إنّ الكلب المدلل (دوبي) جاء مع زوجة الدكتور سامي النمساوية عند مقدمها إلى الحلة في أربعينيات القرن العشرين، واستمر معها إلى حين مغادرتها ما بعد الثورة بقليل من السنين، رآه وإياها يمشون في شوارع الحلة عدّة مرات، كان كلباً من فصيلة الشيزو، صغير الحجم، تخرّج معه عصراً للفسحة بموازة النهر، يبتسم لها الحليون، يحبّونها، ينادونها المدام، وينادونه، المستر، بقيت مقيمة في الحلة، حتى وفاة زوجها، تركتها عائدة إلى النمسا لتقضي ما تبقى لها من العمر، ودّعها أصدقاء ومحّبون حليون إلى مطار بغداد، قبلتهم بلوعة مغادر بلا عودة، ودموع تنهمر على وجنتيها الجميلتين.

إنّ موقف التعامل الحضاري الودود لذاك الزمان مع سيدة أجنبية وكلب لها يتنزهان في شارع عام، استفزني قال سعيد، فسألت قسام:

- ماذا سيجري لو تكرّر المنظر ومشت سيدة مع كلبها في الشوارع ذاتها في هذا الزمان.

- سيحدث أن لا تكمل مشيتها. لا تعثر على كلبها في طريق العودة، إذا استطاعت العثور على نفسها وسط جمهور يرى العالم من حوله بعين واحدة، قالها قسام واثقاً من قوله وأكمل:

إنّ الزمن في المعتاد يتغيّر إلى الأحسن أو بالأحرى يتقدّم وقعه إلى الأمام، أما وقع هذا الزمن على هذه البقعة من أرض الله الواسعة فإنّه على ما يبدو يتجمّد، بل وعلى العكس يعود بأهله إلى الوراء. لقد أحدثت الحروب التي استمرت سنين داخل البلاد، وتلك التي نشبت مع الجيران خارجها، ردّة في السلوك الاجتماعي العام أعادته قروناً إلى الوراء، وأسهم

التفسير الخاطئ لأصول الدين الذي رافقها في تعزيز هذه الردة قروناً أخرى إلى الوراء. ضحك باستهزاء ثم سأل:

- هل تصدّق أنّ بنات هذا الجيل يلدن جداتهنّ؟.

- لم أفهم قصدك، كيف يتم هذا؟.

- جدات بنات اليوم عشن سافرات، يختلطن بالمجتمع بشكل طبيعي، يعملن في جميع الأعمال، وبنات بناتهن اليوم قسم منهن منقبات، وقسم آخر يطالبن بإلغاء القوانين المدنية التي سنّت لتأمين حقوقهن، ويجاهرن بتعدّد الزوجات، وإيقاف التعليم وبقاء المرأة في البيت آلة تفريخ. هزّ يده متأسفاً على ما أصاب المجتمع والبلاد منذ أيام الحصار، ثم عاود حديثه قائلاً:

لنعد إلى موضوع حنتوش، إذ وصل الربل الذي يُقْلُهُ وأربعة تلاميذ مرضى، توقّف أمام الزقاق، ونزل منه بمساعدة التلاميذ الذين كانوا في الأمس يركضون خلف الربل ساخرين، أوصلوه وقالب الثلج إلى البيت.

بدأ طقوسه في الشرب مبكراً قبل مغيب الشمس، واستمر حتى انقضاء الليل، فكان ليله آخر ليل في حياة قضاها متمرداً على ذاته، إذ أصيب في صباح اليوم الثاني بنوبة سقوط لم يفق منها طوال نهار، هبط في آخر ساعاته صمت الموت على بيته أخذاً روحه بهدوء.

بقي حنتوش من أول يوم أدرك فيه المعنى الفاني للروح إلى آخر يوم سلّمها فيه، وحيداً منعزلاً بين قالب الثلج وبيت العائلة، دون أن يتألف مع أي منهما، ودون أن يكون عائلة.

وصفه الشاعر علي أمام تجمّع لرجال اصطفوا عند ركن الزقاق الذي يسكنه، يوم أخرجوا نعشه، سعيًا لتشيعه رتلًا يتقدمهم المؤذن عباس، قائلاً: كان حنتوش وسطاً بين قديس ومقاتل فشل في الانتحار إثر هزيمته في معركة فاصلة.

وبعد إكمال قوله هذا أعطى المؤذن إشارة حمل النعش واطمام التشيع، تشييعاً كان وكأنّه حفل توديع لجزء من تاريخ القرية عزيز، سعى أهلها إلى وضعه أمانة في مقابر القرية بوادي السلام.



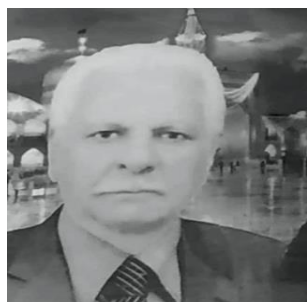
الريل



المكافحة بالدخان



من آثار بابل



مهدي هجهوج المعموري. مفتش في البريد



معلمو المدرسة عام ١٩٦٧



لوحة لحلاق يقطع أسنان

تجاوز سعيد جنازة حنتوش، تأسّف على وقع حياة له كان متمرداً عليها، وتذكّر حكاية علي محمد أو كما يلقب في ربوع القرية بعلي الحمزية، وقبل أن يسرد حكايته أشار إلى أنّه من الغريب في الأمر أنّ لقب الأم شمل أغلب أبناء القرية المعروفين باسم علي في ذلك الزمان، أي إنّ اسم الأم حلّ محل اسم الأب لمن كان اسمه علياً في الغالب إلا قليل من الاستثناءات. سأل عاصم، طالباً التوضيح: لم هذا التخصيص؟.

- أعتقد لأغراض التفریق، إذ إنّ الكثير من العوائل تسمّي مواليدها علياً، والكثير من الآباء تتشابه أسماءهم، لذا اتّجه المجتمع دون قصد لتسمية البعض بأسماء امهاتهم، وهو على وجه العموم لا يقصد منه التصغير، كما هو شائع في مجتمع المدينة.

أكمل سعيد تعليقه العرضي وعاد إلى صلب موضوع علي، مبيّناً أنّ علي الذي احتفظت به أمه دون شقيقته التوأم عليّة، يوم أبقتها راقدة بكامل دثارها تحت نخلة على الطريق أيام الهجرة الثانية إلى شط ملا، بدأ مساعداً لسائق باص (سيكِن) واشترى من بعده سيارة لحسابه، عيّن فيها سائقاً لخوف في داخله من السياقة، ولما فتحت وكالة سيارات شوفرليت البيع بالتقسيط قبل الثورة بسنين اشترى سيارة ثانية، أكمل لها نجار القرية، توفيق عدّتها من الكراسي والأعمال الخشبية، ثم ثالثة حتى أصبح أسطوله من السيارات بعد الثورة يزيد على الخمسة.

لكن علي صاحب هذا الاسطول عاش مهموماً أكثر من أخيه هاشم الذي اشترى سيارة واحدة ساقها بنفسه، على خط بغداد - حلة تنعم بواردها إلى يوم وفاته في مكة خلال موسم حج أوصل فيه أبناء القرية لأداء الفريضة. يُرجع أصدقاء علي وأبناء ذلك الجيل السبب إلى طبع حال دون امتهانه السياقة، ودفع به إلى أن يكون فريسة سائقي سياراته وتحايلهم المستمر عليه، وهو الشخص البسيط الذي يصدّق ما يقال له.

وجدته جالساً عصر يوم جمعة إلى جوار قبر طفل على تل صار مقبرة للإمام، توقفتُ عنده، غلقتُ كتاباً للجغرافية كنت أراجعهُ لامتحان الثالث المتوسط مشياً والشمس تقترب من دخول محاقها، كان قد أسند مرفقه إلى حافة القبر ومدّ ساقيه إلى الأمام، أبقي عينيه شاخصتين على الطريق العام حلة - بغداد.

جلست إلى جانبه، مدّدت ساقِيّ مثل ساقيه جوار القبر، سألته بعد أن ردّ السلام عن أسباب جلوسه هكذا وعيناه صوب الطريق مفتوحتان لا ترمشان. أجاب: هذا مكان جلوسه عصر كلّ يوم، يتابع منه والشمس تنزل خلفه شاهدة على عودة آخر سيارة من سياراته إلى الحلة، يحصي وصولهن واحدة تلو الأخرى، يتأكّد من سلامتهن واحدة بعد أخرى.

- كيف تعرف السيارة والمسافة من هذا التل إلى ذاك الطريق وهي ليست قريبة؟.

أجاب وما زالت ساقاه ممدودتين إلى الأمام ونعل يغطيه التراب إلى جانبهما، أنّه يعرف السيارة من لونّها، ويعرف السائق من سرعة يتجاوزها.

توقّف عن الكلام ليشير بسبابته اليمين إلى سيارة خشبية لون قمرتها حمراء، مرّت على الطريق تواءً، أكد أنّها واحدة من سياراته، سائقها جبار، سرعتها مائة كيلو متر في الساعة، وجبار هذا لا يسمع الكلام عن عدم زيادة السرعة على الثمانين.

أتمّ الحديث عن باقي السائقين، وضع وصفاً لكل واحد منهم، وعن آخر سيارة مرّت قبل أن ينهي جلسته، قال عن سائقها الذي أخفى اسمه، (سَيَرِّي له علة)، هزّ بيده تعبيراً عن حيرة في داخله وأشار إلى شكّ يغمره أنّ ذاك السائق سارقٌ لكنّه لا يحتكم على الدليل، بعد أن كسب الصانع إلى جانبه، وأصبح مشاركاً له في السرقة.

وماذا حلّ بالسيد علي واسطول سياراته؟. سأل عاصم وعلّق بجملته ما بعد السؤال قائلاً: (أفترض أن يكون قد امتلك أو خلف من بعده شركات للنقل وأساطيل سيارات).

أجاب سعيد: مات مدهوساً بسيارة بلدية كان يعمل عليها مساعداً. هل يعقل هذا وكان له عديد من السيارات في زمن الانفجار الاقتصادي للعراق، خمسينيات وستينيات القرن الماضي؟، سأل عاصم ثانية.

- نعم، أكلت الثورات سياراته، بعد فشلها في تنظيم العلاقة بين العمال وأرباب العمل، وأضعاف سلطة الضبط الذاتي في نفوس العاملين. أفقره كذب السائقين وتمردهم عليه لأنّه رجل طيب، كان بعضهم يعطيه نصف الوارد ويقسّم بالله أن هذا كله. وبعضهم الآخر يشكو الأمر إلى الله من استنزاف الوارد في تصليح السيارة وهي ما زالت مضمونة صيانتها من الشركة حسب

العقد، حتى وصل حداً لم يعد فيه قادراً على دفع مستحقات الأقساط الشهرية إلى الشركة، فحجزت على سيارته، وأعادته إلى نقطة البداية مفلساً.

.....

لكن علي لم ييأس من الحياة، نوه سعيد بأنه عمل بعد إفلاسه، بناءً لحيطان (الطوف^(١))، لم يوفق فيها مهنة بدأها صانعاً في طفولته أيضاً. سأل عاصم الذي استهوته حكاية علي وكفاحه غير المثمر في الحياة: - كيف؟.

أجاب سعيد: أذكر أنّ جاراً لنا استأجره لبناء حائط من طين يفصل بيته عن البستان، بعد أن تهدّم بتقادم الزمن وقلة الإدامة. استمرّ علي في حضوره يوماً لتهيئته الخميرة اللازمة من التراب والماء وقش التبن. تقلبها بالجرفة وسحقها بقدميه، إلى اليوم الذي تأكّد فيه نضجها مادّة لبناء الطوف^(١).

خرج من بيته قبل شروق الشمس، في يوم كان عطلة رسمية بدأ عمله وحيداً، أتمّ طوفاً من طين عند الغروب، وقبل المغادرة وقف أمام الجار قائلاً: (خلوا بالكم على الطوفة، دعوها تنشف).

أبتعد أمتاراً معدودات. صاح الجار: لقد سقطت الطوفة. ردّ علي بصوت كأنّه يكلم نفسه:

"اذبحلك عز"، واحمد الله أنّها لم تسقط على أحدكم.

١. الطوف، في اللهجة الدارجة محلياً هو الجدار المبنى من الطين.

بعد هذه الحادثة جلس علي مهموماً في المقهى وطلب من (على الله) شايًا، وطلب أن يسجل حقه خمسة فلوس ديناً عليه إلى أن يفرجها الله.

ردّ عليه (على الله) في الحال، أن يأتي بأي وقت ويشرب من الشاي ما يشاء على حساب المقهى بدءاً من اليوم إلى أن يفرجها الله.

كان صاحب محسن جالساً على التخت المجاور، سمع الحديث كاملاً، وكان في ذلك الوقت مسؤولاً في الحزب والدولة.

قال مخاطباً علي: أبو حسين قدّم طلباً للتعين في البلدية، وتعال بصحبته في صباح الغد، عساها تفرج، وبعون الله ستفرج.

حضر علي في صباح اليوم الثاني مبكراً ويده طلب خطّه مضحي العزاوي بقلمه الرصين، وقف في الشارع على الجهة المقابلة لزقاق الوزن، ينتظر. حضر صاحب في الموعد المتفق، ركبا سيارة عبس، ثم عبرا الجسر القديم باتجاه البلدية، دخل صاحب إلى مكتب رئيس البلدية أولاً، وبعد دقائق نودي على علي فدخل ويده طلب التعيين. أخذه رئيس البلدية، وهّمّش عليه، موافق على التعيين بصفة مساعد سائق سيارة على سبيل التجريب. ضغط على زرّ الجرس على طاولته، طلب من الفّراش أن يأخذ الطلب وارداً، ويوصله إلى مدير الإدارة. أدار وجهته إلى علي قال: يمكن المباشرة بالعمل هذا اليوم.

التحق علي بعمله على الفور، عرفه منتسبو البلدية منضبطاً، مخلصاً، لم يتأخر عن الحضور إلى الدوام، ولم يتركه دقيقة واحدة الا لسبب ما.

في صباح يوم خميس نادى عليه سائق السيارة الحوضية، طالباً التهيو وإياه لسحب ماء من النهر بغية سقي أشجار الجزرات الوسطية في حي

بابل. قام من مكانه، وقف خلف السيارة، بدأ إشارات الدلالة رجوعاً إلى الوراء، انهمك في موقف المساعدة، يكرّر كلمة (ارجع)، ظلّ يكرّرها عدّة مرات دون أن ينتبه إلى الحائط من خلفه، وفي المقابل لم ينتبه السائق إلى منخفض بسيط في الأرض نزلت فيه إطارات السيارة الخلفية، اقتضى اجتيازه الضغط على دواسة الوقود حدّ أن رجعت فيه السيارة بسرعة فاقت قدرته على إيقافها، جعلت جسم علي مضغوطاً بين الدعامات الحديدية الخلفية للسيارة والحائط.

لم تخرج من فمه كلمة توقف، بشكل واضح، ولم يسمعها السائق، ولم يتوقف. أشر شاب كان يتفرج على المنظر، رافعاً يده إشارة إلى التوقف. تنبّه إليها السائق وتوقّف، ثم تلقى إشارة أخرى أن يتقدّم، وحال تحرّكه كي يتقدّم سقط علي على الأرض ينزف دماً من صدره الذي تهشّم.

شجر مرّة واحدة، وانقطع النفس نهائياً. ختم سعيد كلامه عن علي بالقول: كانت حياته وطريقة مماته غريبة.

أثنى على قوله هذا فؤاد، مؤكداً أنّ حياة علي لو كانت قد حصلت في غير زمانها لصارت قصة زاهد تضاف إلى قصص أهل القرية وحكايات لهم تمتد جذورها غائرة في عمق التاريخ، ولكان أهلها في حاضر زمانهم قد دفنوه في أحد التلال التي دفن تحت ترابها زهاد ذلك التاريخ.



السيارة الحوضية



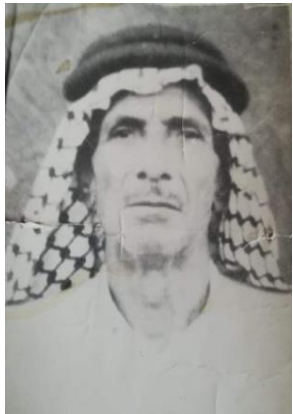
صاحب محسن. جيل المعلمين الثالث



مرقد الامام عمران عام ٢٠٠٣ بعد التحديث



حيطان الطين. الطوف



جواد شاوردي الخفاجي



في بستان الرهيمية

عمران، مدرسة القرية

توقف نثّ المطر قليلاً، نزلت آخر قطرات منه مشبعة بالنقاوة مثل بلورات الكريستال، انكسرت على حافاتها الأشعة الصادرة عن مصابيح الإضاءة فأظهرت حزم ألوان جميلة تشبه تلك المكوّنة للطيف الشمسي الظاهر أعلى نخيل القرية قبل إعدامه، شجّعت سعيد على التوسّع في حديث كان قد بدأه عن تجواله في ربوعها، قال: منظر القرية من على التل المقابل لها يستثير الماضي من الذكريات، بساتين نخيل تمتد تواريخ إنباتها إلى زمن بعيد، لم يبق منها إرث بساتين، ولا شواطئ لها كانت تفيض في غالب السنين. تناقصت أعداد شجر الصفصاف، مثلما تناقصت أعداد النخيل. وتصدّعت جدران مدرسة عمران الابتدائية أحد معالم القرية بفعل السنين، تأكلت حيطانها، تكسّر بلاط أرضيتها وزجاج الشبايك، يوم انشغل عنها القوم في دولتهم بحروب وانتصارات على الورق كدّست عناوين معاركها على الرفوف، لم يعيروا طوالها اهتماماً للزجاج ولا إلى التغذية وكتب التلاميذ. حالها صار حال عجوز ملّ الأهل أمراضه فتمنّوا له الموت.

تنبّه لها قائد رتل الدبابات حال مروره من جانب القرية متّجهاً صوب مقر قواته في مدينة بابل الأثرية، ليسجّل في سجلات التاريخ أنّه كان هنا، وقد انتصر من هنا في حرب لم يكن في ساحتها أعداء. أمر بإبطاء السير والتوقّف عند باب المدرسة، خرج من سيارة قيادة مدرّعة تغطيها عشرات الأسلاك منتصبة إلى أعلى، اعتقد بداية أنّها بناءً بابليّ قديمّ حافظ عليه الآباء رفعة لتاريخهم، وحفاظاً على تراث أجدادهم، أخرج من جعبته

خارطة تحدّدت على سطحها أسوار بابل ومنشآتها القديمة وما بني حديثاً خلافاً لضوابط التاريخ والآثار. صحّح له هذا الاعتقاد فاضل منخي، معلّم متقاعد من بين صفوف جيل المعلمين الثاني في القرية، كان قد مرّ إلى جانبها في طريقه إلى المقهى لتبديد وقت اعتقده فائضاً عن الحاجة. توقّف ليتفحص ما يريد هذا القائد من مدرسة رافقته ذكرياتها عقوداً من الزمان، أشار بلغة إنجليزية كان يجيدها، إنّها مدرسة القرية، أخذت اسمها من مرقد الإمام. قال القائد بعد لمحة خصّ فيها خريطته: الإمام أومران.

ضحك فاضل من هول تعجبه دقة التسجيل وطريقة اللفظ، ضحكة يتميّز بها عن الغير بعلو الصوت، ثم أكمل: لقد تردّى وضع المدرسة، بسبب الحروب والحصار وعدم إعارة الاهتمام، وهي المعلّم المهم لهذه القرية الموعلة بالقدم، إنّها اليوم بحاجة أكثر من غيرها إلى الترميم، مثلما يحتاج وضع الأمريكيان الذين جاؤوا إلى هذه البلاد أول مرة عبر التاريخ كذلك إلى الترميم.

- لم أفهم القصد؟. سأل القائد بطريقة توحى وكأنّه غضب.

- القصد، أنّ الأمريكيان بحاجة إلى إثبات حسن النوايا وتوثيق العلاقات، فالعراقيون طوال سنوات كوّنوا بسبب مواقف لهم والسياسة الخاطئة لحكوماتهم أفكاراً عن أمريكا قد لا تسهم في تكوين علاقات ودّ وتفاهم كما تريد، والمجال مفتوح لترميمها، تغيير بعضها والبدء من جديد، وخير بداية ستكون من هذه المدرسة، ومدارس أخرى في عموم البلاد.

اقترب منه القائد، قال مخاطباً له: لقد تمّ إقناعه بسهولة وبلغة إنجليزية تكاد تكون خالية من الشوائب. ثم سأل:

- من أين هذه اللغة؟.

- إنها قصّة طويلة، سيرويها حال الشروع بالترميم. عندها التفت القائد إلى ضابط بمعيته، خشن المظهر، يشبه رجال الكابولي، حرك بعضاً يحملها مشيراً باتجاه المدرسة، قال: يجب إعدادها شباب.

.....

شرعت قوات الهندسة الأمريكية بترميم المدرسة كما وعد قائد الرتل، وعاد فاضل، المعلّم المتقاعد إلى الخدمة مديراً لها في عهد حسبه عهداً جديداً غير ذاك العهد الذي أحاله على التقاعد قبل الأوان، وذات صباح وهو واقف يشرف على تسلّم المدرسة بعد الترميم، حضر قائد رتل الدبابات إلى الموقع ليطمئن بنفسه على صيغة الترميم، بعد استئراء الفساد سبيلاً لإنهاء الأعمال والمقاولات. تقابل وفاضل صاحب فكرة الترميم، في نفس المكان الذي تقابلا فيه من قبل.

بادر القائد بالقول، لقد وقيّ بوعده. ردّ فاضل وهو كذلك باق عند وعد الإجابة عن سؤال له عن كيفية تعلم اللغة الإنجليزية.

هزّ القائد رأسه علامة الرغبة في السماع، فتشجّع فاضل بالقول، إنّه كان ومنذ الدراسة المتوسطة والثانوية، يرغب بالقراءة والكتابة باللغة الإنجليزية، مغتماً بالثقافة الإنجليزية، يقصد مدينة بابل الأثرية مشياً، في أوقات العطل وبعد الدوام في بعض الأيام، يراجع دروسه طوال الطريق إليها ذهاباً وخلال العودة منها، وحال مواجهة سائح أجنبي، يقترب منه، يكلمه عن بابل وعن القرية بلغة إنجليزية مليئة بالأخطاء، يقابله هو أو هي بتصحيح العبارات واللفظ وبابتسامات من أغلبهم تثير في داخله دافعية أكثر على التكلم باللغة الانجليزية، وبالتدريج تحسّنت قدراته في هذه اللغة،

وزادت جرأته في مواجهة الأجانب وإجراء الحوارات معهم، بالإضافة إلى هذا، صار له أصدقاء من دول عديدة تتكلم الإنجليزية، يرسلونه ويرسلهم، ولما أكمل الدورة التربوية في الحلقة، وتعيّن معلماً في المشخاب، اتجه لتدريس اللغة الإنجليزية، والذهاب إلى بابل أيام الجمع والعطل الرسمية التي يكون فيها موجوداً في القرية، يتواصل مع السواح، حتى صار وكأنّه مرشد سياحي من الطراز الأول أو آثاري محترف، زيّد معلوماته بقراءة مصادر عن الحضارة البابلية باللغتين العربية والانجليزية، وفوق هذا توجّه من ذاك الزمان وإلى هذا الزمان باصطحاب عديد من السواح إلى بيته، خاصة أولئك الذين يرغبون في مشاهدة العيش في القرية أو الذين يرومون الكتابة عن بابل والمنطقة، يستضيفهم أياماً، تضاعفت بسببها معرفته العامة وكثرت مفردات لغته الإنجليزية، وزاد حبه للإنسان من أي مكان، ومن أي دين يكون.

.....

توقفتُ عند أبواب المدرسة في عودتي الثانية إلى القرية، قال سعيد، وقد اكتمل ترميمها وعادت إليها الروح مدرسة ابتدائية كما كانت من قبل، سألت قسام الذي كان موجوداً قريباً، يقضي وقتاً في المشي:

- أين رمى الدهر يارث مؤسسها ومديرها القدير عباس هوبي، وهل سجلت له المدرسة سيرة تضعها ماثلة للأجيال القادمة؟

قال: لقد سجّل هو عن عباس الكثير، وتحفظ له الذاكرة بالكثير.
سألت:

- هل لي بسماع ما تحتفظ به ذاكرتك، لأضيفها إلى الموجود في ذاكرتي؟.

استحسن الفكرة، قال: عباس وحال تخرجه من مدرسة بابل الابتدائية في قرية كويرش، دخل دار المعلمين الريفية في المحاويل، تصادف تخرجه منها مع تأسيس مدرسة عمران عام ١٩٤٧، فُنسِبَ إليها معلماً ومن بعد مديراً استمر في منصبه هذا لفترة زمنية تحسب طويلة في معايير الإدارة التعليمية.

كان عباس هادئاً بطبعه خارج حدود المدرسة، قليل الاختلاط بالآخرين الا مع بعض من أبناء جيله، حازمٌ في إدارته، شديد البأس داخل أسيجة المدرسة، وصفوفها، لا سيما مع تلاميذ الجيل الذين تزيد أعمار بعضهم قليلاً عن متوسط حدود القبول المعهود في المدرسة.

كان جاداً مخلصاً منذ اليوم الأول الذي فتحت فيه المدرسة أربعة صفوف لاستيعاب جميع طلاب القرية الدارسين في مدرسة بابل، وأضاف من بعده صفّاً لكل سنة تتم حتى اكتمال صفوفها ستة نظامية.

التزم بشروط القبول للدراسة في السنين الأولى بحدّ أدنى لعمر التلميذ وهو سبع سنين، لم يتيقّد بالحدّ الأعلى، تركه مرناً وحسب اجتهاده، كان ميالاً لاستيعاب كل صبية القرية الذين تأخروا عن الالتحاق بالدراسة، على هذا كان من بين الصفوف الستة للمدرسة، تلاميذ تفوق أعمارهم أعمار غيرهم من التلاميذ، يقترب وصف بعضهم بالمتمردين، وكانوا كذلك، شجارات بين أغلبهم تحدثُ يومياً تؤكد انطباق ذاك الوصف الذي حدّده عباس ويكرّره في مجالسهم غالبية المعلمين، إذ إنهم كانوا يتحرّكون في الساحة كثيراً، يتكلّمون مع بعضهم أثناء الاصطفاف كذلك كثيراً.

لقد أدار عباس المدرسة مقتدرًا منذ تأسيسها وإلى حين إحالته على التقاعد بداية سبعينيات القرن الماضي، بعد قليل من اعتلاء حزب البعث العربي الاشتراكي إدارة الدولة والمجتمع وتوجهه لتبعيث الإدارات المدرسية، إذ حضر إلى بيته المسؤول الحزبي للقرية، وهو خريج المدرسة ذاتها، خاطبه باحترام يستحقه، كأستاذ له عليه فضل، ولأجيال من بعده، مديراً للمدرسة كفؤاً، شخصية مرموقة، ومحل تقدير أهل القرية والحزب. دخل في الموضوع مباشرة، قال: هناك توصية لتقديم الدعم من المكتب التعليمي، لترشيحه نقيباً للمعلمين، ترشيحاً مبدئياً يتطلب الانتماء إلى الحزب، الذي يشيد كثيراً من أعضائه بقدرته مريباً تخرّج على يديه العديد من الأجيال، ويشيد به كذلك وجهاء القرية وكبارها.

لقد قضى جل خدمته مستقلاً، لم ينتم إلى أي حزب سياسي، ويفضّل البقاء هكذا مستقلاً يخدم مدرسته وأبناء القرية، قال عباس.

- لكن الحزب الآن يدير الدولة، وهو الأقدر على تحديد الصيغ المناسبة لخدمة المجتمع والقرية.

أجاب عباس بحزم: التعليم في العالم يخضع لنظريات التربية، بعيداً عن تأثير السياسة وسيطرتها، وعلى هذا يكون، بقاء المعلم في خانة الاستقلال السياسي هو الأصوب، وهذه بطبيعة الحال وجهة نظر شخصية.

الحزب جاء بثورة، والثورة سبيل التغيير من أجل مصلحة الشعب والدولة، والتعليم هو الأداة المثلى للتغيير، ولا بدّ أن يتغيّر، قال المسؤول.

امتعض عباس بشكل مكتوم من نقاش بدا وكأنّه لا يجدي نفعاً، قال:
أي تغيير للتعليم على وفق منطق الثورة سيضره، وربما يعيده سنوات إلى
الوراء، ومحصلة هذا خطأ يضر الثورة والدولة على حدّ سواء.
- يبدو أن لا أمل في الموافقة طوعاً للانتماء إلى الحزب.

غيّر عباس من وتيرة الحديث ليبدو أقل امتعاضاً، مؤكداً أنّه لو لم يقدره
تلميذاً وابن قرية، لما تكلم بصراحة، ولو لم يعرفه شخصياً لما تكلم بهذا
المستوى من الصراحة، ومع هذا يتوقع نقله من الإدارة، وإذا تقرّر هذا
فيرجو إحالته على التقاعد، وهو مستعد لذلك على الرغم من عدم بلوغه
السن القانونية للتقاعد، لقد فكّر بعد خدمة ربع قرن مديراً للمدرسة أن
تمدد خدمته مكافأة لإخلاصه وفرصة لتقديم المزيد لأهل القرية، التي تحتاج
من الجميع المزيد. ترك عباس وعائلته القرية راضياً بعد إحالته على التقاعد
وانتقل إلى السكن في حي الجمعية، حي من أحياء مدينة الحلة، وزعت
قطع الأرضي فيه بين المعلمين.

كانت المدرسة طوال فترة إدارته لها تتقدّم خطوات لتضاهي في أدائها
مدارس الحلة في كم التحصيل ونسب النجاح، وكذلك في الرياضة إذ
تأسّست فرقاً لكرة الطائرة والقدم من أولئك الطلاب الذين تزيد أعمارهم
على المتوسط، الموصوفين بالمتمردين، فكان فريقاً لكرة الطائرة يرأسه قاسم
سعود حصل على المراتب الأولى في عموم مدارس الحلة، إلى جانب فريق
للقرية تدعمه المدرسة برئاسة فاضل منخي، ومهدي هجهوج، وحبيب
عباس وصالح عزيز وصاحب محسن والمعلم قاسم عبس، فريقان ينافسان
معاً فرقاً معروفة في عموم مدينة الحلة.



المدير عباس هوني وسط معلمو المدرسة بداية الستينات



مدرسة عمران عام ٢٠٢٠



كشافة المدرسة ١٩٦٤



معلمو المدرسة ١٩٦٣



مشاركة المدرسة في الاستعراضات عام ١٩٦٦



فريق كرة الطائرة للمدرسة عام ١٩٦٥

قسوة معلم

أوقفت يسرى سيارتها، بيّنت أنّ لها حاجة بوضع عنوان داؤد على جهاز الاستدلال الآلي (GPS)، بعد أن سرحتُ بعيداً في شوارع لم تعرفها من قبل.

قال سعيد: كنت عائداً والمعلم قسام من أمام المدرسة الابتدائية بعد ترميمها مشياً باتجاه الشارع، تذكّرنا معاً خريجين لها لمعوا وأجيال معلمين درّسوا في صفوفها ودرّسوا تلامذتها فأبدعوا، قاطعني بالقول، لم يبقَ على قيد الحياة من جيل معلميها الأول سوى المعلم مطهر العزاوي، محتفظ بعقل نير، وإن جاوز التسعين من العمر، اقترح زيارته فهو يحمل تاريخ هذه المدرسة كاملاً في ذاكرته الجيدة، فأخذت بعضي وقصدته ساكناً في حي الجمعية. طرقت باب الدار، خرج ذاك المعلم من ذاك الجيل الذي دخل دار المعلمين الريفية من السادس الابتدائي وتخرّج منها ملماً بمعرفة تكفي للتربية والتعليم باقتدار، وقف أمام الباب الخارجي للدار بطول منتصب، رغم آثار السنين، خاطبني بصوت مسموع: اقترب أكثر كي أعرفك، فالنظر صار ضعيفاً.

دخلتُ من بعده غرفة الاستقبال، وحال الجلوس شعرت أنّه باقٍ معلمي كما كان أنيقاً في ملبسه، رشيقاً في قوامه، قاسٍ في ضوابطه، قصصت عليه قصة فاضل منخي وترميم المدرسة، وقصّ عليّ بعد التعبير عن فرح غامر بالترميم، وقائع وظروف إكمال الجيل الأول من أطفال القرية، لدراستهم الابتدائية في مدرسة بابل، مشيراً إلى أنّه وبعد غياب الملا إبراهيم وأخيه اسماعيل، وانتهاء زمن الكتاتيب، بدأ وابن عمه ياسين، وكريم

عمران، وعلي العمران، الجيل الأول في التسجيل بتلك المدرسة التي فتحت بعد تأسيس الملك للدولة العراقية بقليل، كان يذهب اليها صيفاً وفي الشتاء مشياً حافي القدمين، لم يشعر يوماً أنّه مختلف عن أحد من التلاميذ بسبب أنّه حافٍ، لأنّهم أو لأنّ أغلبهم حفاة.

ولما يكون ماشياً وحده بالصدفة يستمر في المشي، يتلفت من حوله على الطريق الترابي المار عبر المغتسل وبين التلال، فالمشي على هذا الطريق وحيداً يكون موحشاً وإن تكرر مئات المرات. يسمع أحياناً صغيراً تصدره التلال، وأحياناً أخرى يملأ سمعه هزيزٌ تحمله الرياح، يوم يشتد الهبوب، يطمئن إلى الطريق عندما يكون ماشياً معه أو بقربه أحد الزملاء المذكورين أو عباس هوبي، أول وأكبر من دخل تلك المدرسة من ذاك الجيل.

أكملوا السادس الابتدائي، سجّلوا جميعاً في دار المعلمين الريفية القائمة في المحاويل، ثم انتقلوا وإياها إلى بغداد، عاشوا حياة بغداد غريبة عن حياتهم الاعتيادية في القرية وعموم الريف. حال التخرج منها، صاروا معلمين، وكان نصيبه، مدرسة عمران الابتدائية، عليه يمكنه القول، إنّهُ عاصرها سنين طويلة.

أخذ رشفة من قدح الشاي، وعاد إلى الحديث قائلاً: كان المعلم بالقرية في ذاك الزمان مهاباً. لم يظهر ماشياً في الشارع الا لعمل يؤديه، ولا يجلس في المقهى ليلعب الدومينو، يتحاشاه التلاميذ وينسحبون سريعاً من الشارع الذي يقضون جلّ وقتهم على أرضه يلعبون حال مروره قريباً منهم. ترك جلّ معلمي ذاك الزمان بينهم من جاء المدرسة من الموصل مثل محمد وسالم

وحازم وعبد القادر أثراً إيجابياً في نفوس أهل القرية وتلامذتها وجيران لهم في بيت سكنوه لعباس الموسى إيجاراً.

.....

سكت قليلاً ليتناول رشفة أخرى من الشاي، فاستأذنته في الحديث، عندها وضع القدح على الطاولة وبات يسمع، تقييماً لمعلم يعدّ تقييمه استثناءً من التعميم الذي أورد تفاصيله قبل قليل، هو المعلم محمد حسين، ذلك المعلم القادم من ريف الحلة، تاركاً مقادير من الأثر السلبي في نفوس تلاميذ ذلك الزمان وما زالت صور بعضها ماثلة في العقول، رجوته أن أروي بعضاً منها إذا سمح. ابتسم قليلاً، وانتظر ما يجعتي، فبدأت: كان محمد معلماً قاسياً، نحيلاً من شدة لؤم القسوة، يعامل التلاميذ الأطفال بكلّ الطرق غير السوية، التي عامل بها الأسلاف الأوائل أعداءهم، حتى أصبح جميع التلاميذ على حدّ سواء في فريق مملوء بالكراهية المبطنّة له بوصفه مُعلِّماً قاسي القلب، وصار الأطفال بسببه وأسلوب الضرب الساري في ربوعها قادرين على تحمل الألم الجسدي مثل حجير يكرهها صاحبها على الجري السريع وخزاً بإبرة مخيط مدبّية، وصار في مقدورهم صغاراً في مقتبل العمر تحمّل أي كم متواصل من الضرب بذاك السعف الأخضر، لكنهم يجهشون بالبكاء اذا تمرّقت ثيابهم ضرباً، وكان يفعلها عمداً ليزيد شدة البكاء. إنهم سيكون ليس بسبب الضرب، بل لأنهم يفكّرون بكيفية مواجهة غضب الآباء الذين لا يملكون نقوداً تكفي لشراء ثياب جديدة.

أتذكّر أنّي كنت في الصف الثاني، وكان المعلم محمد مرشد صفنا، وكنت مازاً على الطريق الذي يتوسّط التل المقابل للمدرسة، بقصد إكمال مهمّتي في رعي البقرة بعد أداء الامتحان النهائي، وجدت أربعة تلاميذ من صفّي يقلّدون زميلنا حسن عمران في تمزيق كتب السنة بعد أداء الامتحان، احتجاجاً على الدراسة وأسلوب المعلم محمد يوم لم يسأله في امتحان القراءة أي سؤال، وعوضاً عن السؤال، طلب منه الغناء، فغنى بصوت مشهود له وجميل، وحصل على الدرجة الأعلى عشرة من عشرة.

مرّق حسن كتبه إمعاناً بالاحتجاج على عدم السؤال وهو الطالب المجتهد، قبل العودة إلى بيت أهله في قرية أبو عجاج مشياً، وباقي المقلّدين لفعله من التلاميذ المحتجين أغلبهم حفاة يتّبعون خطواته في عملية التمزيق، يؤازرونه في نوبة تصفيق هستيرية فرحاً بالخلاص من كتب ليس لها معنى في عقولهم سوى الاقتران بالنجاح، وكأّهم في موقف تمرّد على حالهم أو تحدّي لمعلم يخافونه حدّ الغثيان.

أبطأتُ سيرتي في حينه ثم توقّفتُ قريباً منهم، حاولتُ ثنيهم عن ارتكاب فعل التمزيق، أيديني

تلميذ في السنة الثالثة مرّ راكباً حماره، عائداً إلى البيت في قرية أبو عجاج، سألتهم:

- لم تفعلون هذا؟.

- ولم لا نفعل؟. ثم ضحكوا بغير انتظام، وتركوني أتابع طريقي، وأنا أضحك مثلهم دون إدراك لطبيعة الضحك أو أسبابه.

ضحك مطهر أيضاً، عند هذه النقطة، قال: كان الضرب أسلوباً متبعاً للتعليم التلقيني في ذاك الزمان، وكان استخدام العصا لأتفه الأسباب وارداً، ظناً بأنها وسيلة وحيدة لتقويم الخطأ وتعزيز مشاعر الخوف اللازم للالتزام والتقيّد بالنظام، ومع هذا بتطوّر الزمن والالتزام بالنظريات الحديثة للتربية خفّ اتجاه العقاب القاسي في عموم المدارس.

- لكنّ المعلّم محمد كان قاسياً بطبعه، يتمتّع بإهانة التلميذ وهو طفل غضّ، ثمّ أكملت: جاء المدرسة يوم خميس حلاق يدعى ناصر.... قاطع مطهر الحديث.

- ناصر (أبو ويّة).

- نعم، حضر متعهداً لحلاقة تلاميذ المدرسة، ماسكاً حقيبة جلدية تغيّر لونها وصار لون التراب، كان يوم خميس، وكان الجوّ حاراً، جلب له القُرّاش حسون صفيحة (تنكة) فارغة، اتخذها قاعدة لجلسة الحلاقة، وضعها في آخر ساحة التجمع، ونادى على طالب من الصفّ الثالث، ثم وقف جانباً بانتظار إنجاز مهمّة حلاقته، بغية مناداة آخر ينتظر حسب حروف الأبجدية.

جلس التلميذ على الصفيحة، لفّ ناصر قطعة قماش رصاصية (الإزارة) على رقبته متدلية على الكتف، حضر المعلم محمد حسين بعصاه وخاطب الحلاق بنبرة حادة:

- احلق نمرة صفر، فالصيف قادم والقمل منتشر لا يفرّق بين تلميذ وتلميذ. مدّ عصاه إلى الشعر الناتج من الحلاقة أكواماً على الصدر، كأنّه يفتّش عن قملة في بقاياه، أرخى التلميذ رأسه، بقي هكذا مطأطأ الرأس

متوجّساً من ظهور قملة يمكن أن يتّخذها المعلم ذريعة لإسقاط العصا على الرأس قبل اكتمال الحلاقة، لكنّه لم يجد في بقايا الشعر قملة، قال مخاطباً التلميذ:

- اعطِ عشرة فلوس أجرة الحلاق.

نادى حسون تلميذاً آخر ليجلس محله على الصفيحة، وجد بين شعره المجدّد أكثر من قملة، فتلقّى أكثر من ضربة.

كان ناصر متمكّناً من مهنته حلاقاً، ومتمكّناً من آلة يدوية، لا تملّ أصابعه من تحريكها لجزّ الشعر، بدأ مشواره بعد قرع جرس الدوام وأنهاه نهاية الدرس الأخير وموس الحلاقة ناسيت استمرّ فاعلاً في تحديد الشعر ولم يتبدّل، واستمرّ المعلم محمد واقفاً يفتّش عن قمل بين التلاميذ كان يعيش في رأس البعض متنعماً بالعيش.

.....

عباس المدير ما كان راضياً على قسوته، قال مطهر.

لكنّه يقسو كما قلت ويتدخّل، كمن يفتّش عن سقطات يستغلها كي يقسو، وفي سنيه الأخيرة بالمدرسة بدأ بعض التلاميذ المشاكسين شتمه بالكتابة على حيطان الحمامات، وبدأ آخرون يتحدثونه، إذ وفي الامتحان النهائي للسادس الابتدائي، أخذتنا المدرسة صفّاً كاملاً إلى مركز مدينة الحلة لتأدية الامتحان الشامل، خصّصت معارف الحلة لمبيتنا والإقامة مدرسة حمورابي الابتدائية. جهّزت أسرةً في قاعات المدرسة لأغراض النوم

وصفاً للمراجعة اليومية، وخصّصت لكل تلميذ منّا ثلاثة دراهم مصرف جيب يومياً، وللمعلّم المشرف غرفة قريبة.

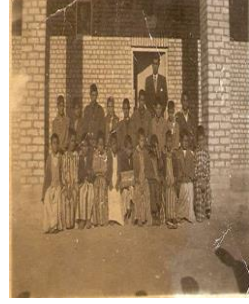
كان معلم المادّة يحضر قبل يوم الامتحان عصراً، يشرع بمراجعة شاملة لمادته، وفصل تقوية للضعفاء، ثم يعاود الحجيء صباح يوم الامتحان يرافقنا حتى القاعة الامتحانية في مدرسة المتوسطة المركزية، يجيب عن الأسئلة التي نسألها، ليقف منتظراً في حديقة النساء حتى خروج آخر طالب من القاعة، يدقق الإجابات ويقدر الدرجة، يعيدنا مجتمعين إلى مدرسة حمورابي ليبدأ معلم آخر، يكرّر التوجيهات ذاتها: (هيئوا مستلزمات الامتحان. أكتبوا أسماءكم وأرقامكم قلم الرصاص. حافظوا على بطاقتكم الامتحانية. اكتبوا اسماءكم وأرقامكم الامتحانية... الخ).

كان آخر امتحان لمادة المعلم محمد، جاء مثل غيره قبل يوم عصراً، ودون اتفاق منّا وجدنا أنفسنا في سينما الفرات، يقودنا لمشاهدة فلم أمريكي يعرض على شاشتها أحمد علي شهاب، عدنا مع المغيب، كان المعلم محمد في انتظارنا يغلي، شعرنا وكأنّنا انتقمنا من قسوته.

إنّ قسوته كانت تبرز واضحة من سلوك العكس لدى أغلب معلّمي ذلك الزمن حيث الود والرعاية واحترام الطفولة، خاصّة المعلّم البغدادي سعد عبد الحسين، معلّم اللغة الإنجليزية، وقاسم معلم الرياضة إذ إنّ واحدهم يتعامل مع التلاميذ كأبائهم أو أخوته الصغار، جاعلاً المسافة النفسية بينه وبينهم قريبة، يلاطفهم عندما تكون الأجواء مناسبة، ويشدّ عليهم في حالات التقصير، فكانت موادها مرغوبة وشخصياتها محبوبتين، وضعاً مصالح تلامذتهم أولاً، يدافعان عنهم، يختلفان مع المعلم محمد،

نسمعهم يتجادلان معه بحدة، بعد كل نوبة قسوة يرتكبها. كان المعلم سعد لما بدأت المدرسة توزيع حبوب لدهن السمك (أوميگا ٣) مع حليب يأتي إليها مساعدات معبأ في براميل، يشرف بنفسه على التوزيع، ويعطي من يريد المزيد.

في بداية هذا المشروع، أوقفنا الفرّاش حسون في طابور بدايته عند موقد لغلي الماء وخلطه بمسحوق الحليب ونهايته قريبة من باب السياج الخارجي، تقدّم الأول في الطابور وملاً كوباً، والثاني من بعده قدّم قدحاً، سكب فيه حسون ما يعادل كوباً، قال سعد امأله، وتقدّمت أنا أحمل قدحاً هو في الأصل زجاجة لمشروب السيّفون، قطعها الوالد نصفين بسلك معدني حار، نظر إليها المعلم سعد، سأل عن مصدرها، شرحت له الطريقة، ضحك، وفي اليوم الثاني سلّمني كوباً جديداً، قال هذا هدية منه لتلميذ مجد. كان هناك معلمون، يظهرون القسوة، لكنّهم ليسوا قساة في واقع الحال، قال مطهر وأعطى مثلاً، قال كان المعلم علي شهاب واحداً منهم، توحى هيئته بالقسوة، لكنّه ليس قاسياً، تخافه التلاميذ وتحترمه، وتتجنّب المخالفة في درسه، لكنّه لا يلجأ إلى الضرب، ولا يحمل عصا، اكتسب هذه الصفة على الأغلب، كونه جاء من العسكرية ضابط صف. كان علي معلماً، منضبطاً، جسمه معتدلاً، صوته قوياً لما يحضر في الاضطفاف ويعطي إيعازات التجمع والاستدارة في طريق الذهاب إلى الصفوف، صادق مع نفسه ومع تلاميذه، قضى معظم خدمته في مدرسة عمران حتى إحالته على التقاعد. كان وبالإضافة إلى كونه معلماً جيداً، كان كذلك أباً جيداً ووجهاً من وجوه القرية باعتراف أهلها في ذلك الزمان.



صف المدرسة الثالث ١٩٥٤^١ جاسم كاظم الخفاجي. من تلاميذ الصف. جيل الجامعيين الثاني سلمان منخي المعموري من تلاميذ الصف جيل الجامعيين الثاني



مجتاً حمزة حسون (مقدم) من تلاميذ الصف أحمد علي شهاب من تلاميذ الصف. جيل الجامعيين الثاني حسن عمران السلاوي من تلاميذ الصف. جيل الجامعيين الثاني



ناظم مضحي المعموري من تلاميذ الصف. قائممقام خضير عباس الخفاجي. مدير مدرسة. حمادي سعد خضير العبيدي، فريق دكتور، من تلاميذ الصف مستشار

^١. من هذا الصف أحمد علي شهاب (مدير عام) سلمان منخي (مدرس) حمزة حسون(مقدم في الجيش) حسن عمران(مدرس) جاسم كاظم(مدير ثانوية) ناظم مضحي(قائمقام)، سعد خضير(فريق في الجيش)، ومن بعد خضير عباس (حمادي) استمروا أول وأكثر دفعة من القرية تنهي دراستها الثانوية ومن ثم الجامعة. فسجلوا جيل الجامعيين الثاني في القرية.

شجرة السدر المقدسة

توقّف نثّ المطر قليلاً، نزلت آخر قطرات منه مشبعة بالنقاوة مثل بلورات الكريستال، انكسرت على حافاتها الأشعة الصادرة عن مصابيح الإضاءة فأظهرت حزم ألوان جميلة تشبه تلك المكوّنة للطيف الشمسي الظاهر أعلى نخيل القرية لما كان هناك نخيل، شجّعت سعيد أن يتم ما بدأه عن التجوال في ربوع القرية وعن مرقد الإمام المجاور لها، قال: ما إن صعد قرص الشمس عالياً في كبد السماء، تبعثرت خيوط أشعتها خليطاً من الصفرة وقليلاً من الاحمرار، رَجَعَتْ على هلالٍ فضي تُثَبَّتْ أعلى قَبَّة زرقاء تجاورها أخرى أصغر حجماً منها بقليل، بانث وكأَنَّها خيوطُ فضية معلقة به رمزاً للإمام راعياً لهذه القرية، عمران بن علي منذ توسده أرضها، كما يتناقل الأجداد في حكاياتهم، وتُورِدُهُ بعض كتب التاريخ.

لقد أضاف لها الإمام، مدّاً أهلها بقدر من الاقتناع في عيش كفاف أوقات العوز، وبعض الهدوء عندما يقع المحذور. هم من بني مرقده عامراً، تمسّكوا به منذ أن سجّي جثمانه على أرضهم وديعة لشهيد في معركة النهروان، قادها والده الخليفة الرابع علي، وانتصر بها على أتباعه من الخوارج، حسبما قالوا أولئك الأجداد وأشاروا إلى أنّ عمران الابن جُرِحَ في ساحتها جرحاً بليغاً، نزع بسببه دماً لم يستطع حكماء جيش والده في ذاك الزمان إيقاف جريانه. توفي في هذه المنطقة المحسوبة على القرية، دُفِنَ في تل هو أعلى تلال بابل، يقول عنه الآثاري الألماني روبرت كولدفاي إنّ معبدًا بابلياً تحت ترابه مدفون، فصار عندهم بابليون مكاناً مقدّساً، يشرف

على مدينتهم العامرة، وصار عند الجمجاويين مرقداً كذلك مقدساً يشرف على قريتهم الساحرة وبساتين النخيل.

لم يكن هو عمران كما درجت عنه التسميات، يبيّن سعيد، ويضيف، أنّ بعض الروايات وشيوخ ذاك الزمان أشاروا معاً إلى أنّ الأصل في التسمية عمر وأجدادهم هم من غيّروه إلى عمران، تماشياً مع معتقداتهم لما يتعلّق بتباين الآراء حول أحقية الخلافة بين والده علي والخليفة عمر، امتدّ السجل فيها خلافاً إلى الوقائع والأسماء، وحقيقة الاستشهاد والدفن وغيرها أمور تمّ الأحياء أكثر من أصحاب لها غادروا الدنيا دون خلاف.

المهم، في رأي سعيد، أنّ الأجداد ورثوا اسمه هكذا عمران وسيورثه الأبناء لمن يأتي بعدهم كذلك عمران، والاسم في الجمل صار محبباً لأهل القرية وبات جزءاً يعتزون به من تراثهم،

شيّد له الأقدمون مرقداً من الطابوق زاد عمره على المائة عام، بني على أعقاب مرقد كان بسيطاً من الطين، لم يعرفوا تاريخه، شيّدوا له قبتين زرقاوين متجاورتين، واحدة له والأخرى لابنته قيل عنها مريم، لم يكتفوا بها، سارعوا إثر خروجهم من حصر المكان بعد مرور رتل الدبابات إلى توسعته وتجديده، وقفوا بالضد من اعتراضات الدوائر المختصة في الآثار التي لا تقبل التوسعة بسبب قوانين الآثار التي تقيد التوسعة والبناء، أصروا على إتمامها لكسب الثواب، أكثر من إيمانهم بأحقية التاريخ والآثار، اختاروا وقتاً لعبت فيه ضغوط السياسة دوراً غدّ مناسباً للتجديد، لا يستطيع فيه الآثاريون أن يقولوا قولاً بالضد من قول السياسيين أو أن يمنعوا توجهاً لهم

في كسب الثواب، فأتمّوا التوسعة والتجديد كما يريدون، بدعم مالي ميسور من خارج حدود القرية والبلاد.

أزالوا ذلك البناء الأثري، دفنوا تاريخه تحت هذا التل فوق أطلال المعبد، ورفعوا الأعمدة والسقوف التي تستند إليها والقبب المشيّدة فوقها من الطابوق المفخور، استبدلوها بالإسمنت المسلّح، وعملوا قبةً جديدةً كذلك بالإسمنت. أبقوا البئر كما هي ماثلةً، حافظوا على بناء لها قيل حفرها الإمام علي بيديّه، ونزل عمقياً في الأرض يزيد على الثلاثين ذراعاً، حتى خروج الماء زلالاً، وهو من ذاك اليوم إلى هذا اليوم، يمدّ الزائرين ماءً يغلى مع أوراق شجرة السدر المباركة، يصبح منقوعاً يُشرب، اعتقاداً بقدرته الإلهية لشفاء جميع الأمراض، ويأخذون منه كميات لرشّها على قبر المتوفي المدفون في المقبرة العائدة للإمام حال تورية التراب على جثمانه قبل وداع الأهل له آخر وداع.

.....

توقّف سعيد لأخذ استراحة، بعد استمراره في الحديث، استمراراً عدّه طويلاً نسبياً، فاستغل فؤاد توقفه، ليتدخل بالقول:

لقد جريثُ ماء البئر مراراً يوم كنت أشرب منه وأنا اتحرك في الصحن صبيّاً أيام العيد في زيارتي لأخوالي في القرية بإلحاح منهم من أنّه ماءٌ أطعم من ماء النهر ويشفي العليل، تجرأت مرّة، وأنا أغرف من دلو لأشرب منه بكلتا يديّ، أخبرت خالي الأصغر بسذاجة ودون قصد أنّه ماءٌ لا استطعم

مذاقه، زجرني بشدّة، محدّراً بعبارة واضحة لا لبس فيها: (إياك ترديدها، ثانية، لأنّك ستسبّب في تحميلنا ذنباً لا نقواه).

ومن بعده صرت أشرب عندما أرافقهم ساكتاً وهم يشربون مقتنعين به زلاً كما يقال. والآن وفي هذا العمر الطويل والمعرفة التي منحنا إياها الله سبحانه وتعالى واسعة، دعونا نحكم الأشياء عقلياً:

إنّ ماء البئر الذي جرّبه مرّة، وجرّبه صبية مثلي قبل إدراكنا معنى الذنوب أكثر من مرّة، وجدنا مذاقه مجّاً، فيه قدر من الملوحة يتحسّسها اللسان، وهو على هذا ماء لا يروي عطشاً. كما أنّ حفره لأغراض الشرب مسألة فيها شكّ حسب اعتقادي، لأنّ ماء النهر الملائم للشرب قريب. والأكثر من هذا أنّ الإمام علي عليه السلام الذي دفن جثة ولده إن صحّت الرواية قد دفنها منطقياً في هذا المكان الذي حصلت على أرضه الوفاة، وأبقى القبر دارساً، تماشياً وتقاليد المسلمين في الدفن بداية الدعوة، والقول المنسوب إلى ابن عمه الرسول (ص): (خير القبور الدوارس)، والأکید من الناحية المنطقية أيضاً أنّه ومن بعد إكمال الدفن، استمرّ في وجهته باتجاه عاصمته الكوفة عابراً النهر، ومن غير المنطقي القول إنّ الخليفة وعسكراً له خرجوا من المعركة تواء، ينتظرون بين التلال عدة أيام كي يحفر قائدهم بيديه بئراً لقبر دارسٍ وسط آثار مهجورة، قرب نهر جار. على هذا يكون في الغالب أنّ الأجداد من أهل القرية، وبعد بنائهم القبر وتشيد المرقد، ومرور فترة زمنية من الدفن ليست قليلة، جعلوه موقعاً للتعبّد، صار له زواجرٌ للتشعّب به إماماً من نسل الإمام علي، ومواقع التعبّد جميعها ولجميع الأديان بحاجة إلى تعزيز الطقوس ذات الصلة

بوجودها بغية الاستمرار، وبحاجة إلى توفير متطلبات الزوار والدفن وبناء القبور لذا حُفرت البئر، وأضفى المعينون تباعاً على وجوده قداسة بإرجاع حفرها إلى الامام علي شخصياً ليأخذ القداسة المطلوبة لعملية التأثير. وماذا عن شجرة السدر المعمرة؟، قال عاصم.

إنّ تفسير وجودها لا يبتعد عن تفسير وجود البئر وبنائها، قال فؤاد، وأضاف، إذ إنّ ورق السدر عندما يوضع في الماء تصبح له رغبة، استخدمت في السابق لغسل الموتى، وهكذا كانت لزراعتها فائدة، وهي بالطبع شجرة معمرة، أما القول إنّ هذه الشجرة المجاورة للبئر حصرياً مباركة وقد امتدت جذورها إلى تحت الضريح، وفتحة لها من الجانب السفلي، يخرج منها دُمٌّ جارٍ طوال شهر محرم الحرام من كل سنة، ليأخذ منه زوار المرقد نماذج للتبرّك والشفاء، كما كان يقول أخوالي وغيرهم من تلك الأجيال، فأنا لا اتّفق مع هذا القول أيضاً، وما يحصل حولها من أقاويل مرّده حسب اعتقادي المتواضع إلى عوامل الإيحاء الناتجة عن قدسية المكان، وتفاعلها مع الشخصيات المستعدة في الأصل لتقبّل الإيحاء، أو بمعنى آخر أنّ الشخصيات التي تميّز طبعها سرعة الاستجابة للإيحاء، هي التي تشفى في العادة من بعض الأمراض والاضطرابات النفسية الجسمية، عندما يوحى لها بعلاج يرتبط بقضايا روحانية.

نعم اتّفق معك في هذا الرأي قال سعيد، وأود التأكيد أنّ هناك كثيراً من المعتقدات عند أهل القرية في ذاك الزمان ارتبطت بالإيحاء والايان بالقدرة على الشفاء، وتحقيق المراد، منها لما كنّا تلاميذ في المدرسة الابتدائية، كان هناك اعتقاد سائد عند أمهاتنا أن تراب القبر الخاص

بالإمام عمران يساعدنا في حال التهامه على الدراسة وتحقيق النجاح، وكن يدفعنا في أن نذهب إلى المرقد في أوقات الامتحانات على وجه التحديد، نزل من على السلم، نلتهم تراباً يكثر على أرضيته، وبقايا مواد بناء (الحصّ) كانت قد تهرّثت من الرطوبة، ومن كان ممّا ينجح يرّده إلى التهام التراب ومن يفشل يعتقد أنّه لم يلتهم ما يكفي من التراب كي ينجح.

وبالمناسبة وطوال تلك الفترات الزمنية التي كنت أقصد فيها المرقد مع زملاء دراستي الابتدائية في أوقات الامتحان نلتهم التراب، لم أر ذلك السائل الذي وُصفَ دماً خارجاً من الشجرة، ولم ألمح لونه الأحمر.

كانت الشجرة حسب مشاهداتي تفرز صمغاً عادياً يميل بعد الجفاف إلى الصفرة. أقول جازماً إنّ السدنة هم من عمل هذه الأساطير عن الدم الذي يشفي، كما هو حال القول عن التراب الذي يسهم في تحقيق النجاح. وهم من وضع لشجرة السدر هذه القدسية، وكانوا في زماننا والأزمنة التي سبقت، يحذّرون من ينوي قطعها باحتمالات الموت لشخصه أو لأحد أفراد عائلته، مرّده يا سادتي بالإضافة إلى القداسة الدينية، إلى جملة الفوائد التي تقدّمها هذه الشجرة لإنسان ذاك الزمان، إذ إنّني أتذكّر أنّ الوالدة كانت وعندما تشكّ بوجود ديدان في معدتنا تغلي أوراق السدر، وتعطينا إياه شراباً وتضع مسحوق أوراقه على جروحنا لتلتئم، كذلك تقوم بغسل شعورنا أثناء الاستحمام، بورق السدر، يوم كان مستعملاً قبل وصول الصابون، وعندما سقطت من على ظهر حمار لنا كان راكضاً

وَكسرت ساقِي اليمين، ذهب بي الوالد إلى (المجرّجي)^(١) الحاج حطي، سمعته يخاطب ولده البكر بالقول: اطحن ثمر السدر (النبق) ثم أخلطه بصفار البيض، لزوم التجبير.

بعد جلب الخليط، طلب منه سحب الساق. مسكها هو من القدم، ومسك والده حطي من أعلى الفخذ، وبدؤوا السحب بقوة، ولما أعادا العظم المكسور في الفخذ إلى مكانه، وضع عليه خليط البيض وطحين النبق، لقّه بقطعة قماش، أحاطها بأربعة ألواح خشبية ثم أعاد لفها بقماش على شكل رباط، لقاً محكماً. قال في وقتها:

ممنوع التّقرب من الماء، تفتح بعد أسبوعين.

لذا أنوّه هنا أنّ فوائد السدر هذه وأخرى غيرها جعلته مهماً لحياة الناس في ذاك الزمان، وللحفاظ عليه، وضعوا له قدسية تديم بقاءه في الوجود.

١. المجرّجي، شخص يمتحن ترميم الكسور في جسم الإنسان، مهنة تعلمها أو توارثها عن الأب والجد، كان معروفاً في المنطقة قبل انتشار الطب الحديث. خبرته تؤهله لإنجاز مهام التجبير وإعادة العظم المكسور إلى مكانه بكفاءة عالية في غالب الأحيان.



مجاز بيت بليل. باب مضيف الحاج عباس الأثرية



الامام عمران بعد عام (١٩٢٠)



البئر وشجرة السدر



تربية الماشية في بستان الرهيمية



ناعور الرهيمية ١٩٦١



شاطئ الجمجمة عام ١٩٦٥

ظهور الإمامين

حاول سعيد التدخل في تعديل مسار السيارة تدخلاً لم تقبله يسرى التي تتحكّم بالمسار، طلبت أن يتركها، لأنّ السياقة في شوارع لندن بهذا الوقت على وجه الخصوص لا تتحمّل التدخل، وبدلاً من التدخل اقترحت الاستمرار بتزويدهم بهذه الذكريات الجميلة عن القرية والحياة في ذاك الزمان. نهته إلى أنّهم جميعاً يسمعون بشغف لماضي عاشوه، يتأملون العودة إلى العيش وسطه فكرياً.

لم ينزعج سعيد عن نهي التدخل في شأن السياقة، بل وعلى العكس منه، أخذ جرعة قوية للاستمرار في عرض الذكريات، حوّل السرد إلى شرح مقارن للعلاقة بين معانٍ لكلمات جاءت في أغاني قدّمتها فريدة فنّاً يعبر عن عيش لأهل ذاك الزمان، وبين وقع العيش في القرية تقاليد وعادات لهذا الزمان وصناعة أساطير، وطقوس تعبد في مراقد الأئمة وأولياء الله، بينها مرقد الإمام عمران، الذي وجد في حدود القرية، وصارت القيمومة عليه حقاً لأهلها منذ الأيام الأولى لوجوده، اكتسبوه طوال السنين المنصرمة، توارثوه عملياً السادة العميدية وآل كعب، وخفاجة اتفقوا على توزيع العائد بين عوائلهم أسبوعياً، يمتلك صاحب الأسبوع، طوال أسبوعه حقّ جنّي المحصول الوارد ندوراً، أغلبها جداء، كما أخذت القرية حقّ السدنة أيضاً، ورثها حمزة الحاج خضير زمناً طويلاً.

حمزة كان الشخصية الأهم في المرقد، قصير القامة ضعيف البنية، ذو عينين عميقتين، فيهما وقار تلقائي، وشاربان شعرهما قليل بشكل مميز،

ميّال إلى العزلة، يحضر إلى المرقد صباحاً قبل شروق الشمس، يفتح أبوابه، ينظّف المكان، ويهيئه للزوار، قليل الكلام حتى عند جلوسه بين جيله من أبناء القرية، وإن تكلم يتكلّم بصوت هادئ يكاد لا يسمع، وهو المعني أيضاً بتغسيل جثامين الموتى الأطفال، عندما لا تتواجد الزوجة، (عليّة المغيريص)، المختصة حصراً بتغسيل النسوة والأطفال وتحيّتهم للدفن. وكذلك بحفر القبور والدفن، لمن يعثرون عليه مقتولاً أو ميتاً بلا هوية، ولأطفال لا يرى ذووهم ضرورة دفنهم في مقبرة النجف لأنهم أطفال، ولفقراء لا يملكون تكاليف النقل والدفن هناك، ولبعض من أبناء الطائفة السنية، يسكنون المنطقة والمناطق الأخرى ولم يحدّدوا لهم مدفناً مستقلاً.

بالمناسبة، أوضح سعيد أن مجموعة قبور يحيط بها بناء يبعد أمتاراً عن باب المرقد المواجهة إلى القرية، كانت مدفناً للسنة، بقي منه في ذاك الزمان ثلاثة حيطان، تهدّم رابعهم وغاب السقف من قبل سنين، ثم تلاشت الحيطان الثلاثة بتأثير عوامل التعرية التدريجية واستغلال طابوقها لبناء قبور جديدة، وكأنّ المعنيين والسدنة والعاملين أوجدوا حقيقة مفادها (الميت حديثاً أولى من القديم).

وبالتقدم لم يبقَ لذك البناء السني أثراً، ولم تبقَ القبور شكلاً مثل باقي القبور، في حين لم تتغيّر إشارة التذكير إليها عند المرور إلى جانبها من أجيال القرية لذك الزمان من أنّها قبور سنة، ذكرها حايط في زمانه أنّها قبور (البيگات^(١)).

سأل عاصم:

١. البيگ، لقب تركي لنزوي الدرجات العليا في الدولة، والقادة بالرتب العليا.

- لم التذكير، وهي قبور مثلها مثل باقي القبور؟.

أجاب سعيد:

لا أحد يعرف السبب، لكنّي أعتقد أنّها قد تكوّنت بسبب ثقافة الاختلاف الطائفي المتجذّرة في النفوس لمئات السنين، وصارت صيغ التعبير عنها بما يشبه الاستغراب، وكأنّ الناظر اليها يسأل نفسه عن سبب دفنها هنا قرب الإمام.

.....

عُرفَ عن حمزة أنّه إنسانٌ مسالمٌ، قال سعيد وأكمل قوله، إنّهُ إنسانٌ يطاوع الآخرين في آرائهم، لا يميل إلى الجدال، وإن كان حدّياً في إبداء الرأي خاصة في مسائل الدفن والتغسيل، إذ حدث وأن جلب له طفل غضّ لم يتجاوز السنتين من العمر، لأب وأم من قرية سنجار كان قد توفي اختناقاً قبل ساعات، قامت الزوجة عليّة بتغسيله وتكفينه ليكون جاهزاً إلى الدفن، وانشغل هو بحفر القبر.

وهو مشغول كذلك في تهيئة اللحد بفأسه المسنّنة، والعرق يتصبّب من أنحاء جسمه النحيف، في شمس ظهيرة كانت تنفث أنفاس لهب على أرض المقبرة، حدّاً بات جوف قدميه يحسّ لدعة تراهما جمرّاً متّقدّاً. جاءته الحاجة عليّة تحمل الطفل ملفوفاً بقماش أبيض، وإلى جوارها والدته حزينة، عقرت جسمها بالتراب، تتلو آياً من القرآن الكريم. نظر والد الطفل صوب القبر، قال: لقد تأخّر الحفر وهذا تقصير.

ردّ حمزة، وعيناه تتقدان غضباً من عدم الرضا، إنّه لم يقصّر ويعرف عمله جيداً، لم يبقَ إلا القليل وينجز المطلوب. ختم جملته، بعبارة الصبر طيّب.

كان ذلك الوالد المفجوع بطفله الوحيد مهموماً لم يتمالك السيطرة على ذاته، خاطب حمزة بقساوة أشدّ: إنّه تقصيرٌ بحقّ العائلة المفجوعة بابنها الوحيد وبحقّ الإمام أيضاً.

خرج حمزة من داخل حفرة القبر ممتعضاً، ترك الجمع مخاطباً ذلك السنجاري:

ليحفر القبر أيّ من الموجودين، وليدفن في المكان الذي يراد أن يدفن فيه، أما عن نفسه فقد انتهت مهمّته شرعاً عند هذا الحدّ.

حاول بعض مشيعين كانوا يدعمون الأب في شدّته إقناع حمزة دون جدوى. حاولت عليّة من جانبها مداراة الموقف.

نادت على شقيقه عمران، كان جالساً داخل المرقد أن يحضر. حضر عمران متوجّهاً صوبها، تناول في طريقه جرعة (برنوطي)^(١)، يخزّنه في كيس يحملها باستمرار، وضع في كل منخر من منخره بعضاً منه، عطس بصوت عالٍ، ثم استأنف السير نحوها.

قال: لتتكل على الله، ثم دخل حفرة القبر أكمل ما تبقى. تناول قبضة برنوطي أخرى ثم تناول الطفل من يديّ عليّة وضعه في اللحد، سدّ الفتحة

١. البرنوطي، مادة تصنع من مواد تبغية ومخدرة، يستنشق عن طريق الأنف، يؤدي إلى العطاس، يسمى في العراق (النشوق أو البرنوطي)، أصله هندي.

بطابوق لم يفخر بعد (اللبن)، ومن بعده، أشر للموجودين بغية المشاركة بتوريته التراب.

قرّر حمزة العودة إلى بيته قبل الوقت المعتاد مهموماً بعد واقعة الدفن، حاولت عليّة ثنيه دونما فائدة، فتوجّهت بدلاً منه إلى البئر، ساعية إلى جلب مقدار عَرَفَتَيْن ماء تُرَشُّ في المعتاد على القبر بعد الفراغ من عملية الدفن.

أنزلت الدلو (السطل)، مربوطاً بحبل من الليف إلى البئر، حاولت سحبه ملائناً، فانزلق من بين يديها، واستقرّ في القاع.

خرجت مسرعة، طالبت حمزة في أن يعود لحلّ المشكلة، باعتباره الوحيد القادر نفسياً وجسدياً على النزول إلى هذه البئر الموحشة، يساعده جسمه النحيل وساقاه القويتان.

تمنّع من العودة أولاً، لكنّه سرعان ما استجمع أنفاسه، قال: أمري إلى الله والواحد القهار.

عاد مسرعاً خلع ثوبه، وضع إحدى ساقيه في الجهة التي على يمينه من محيط البئر، مدّ أصابعها بين شقوق الطابوق، تشبّث جيّداً، ومدّ الأخرى بالطريقة ذاتها في الجهة المقابلة، نزل سريعاً بالتعاقب، كمن ينزل سلماً في عمارة مهجورة، فمحيط البئر يساعد على مدّ القدمين بالاتجاهين المتقابلين، وقدماه القويتان وجسمه المرن تساعده على مدّها والتشبّث بحافات الطابوق المرصوف وإن كان رطباً.

ربط الحبل على وسطه، تسلّق إلى الأعلى بالطريقة ذاتها التي نزل بها،
أكمل المهمة برفع دلوين من الماء، أخذتها عليّة وأتجهت لترشها على تراب
القبر.

.....

كلّ شيء قد تغيّر، بعد مرور رتل الدبابات قريباً من الإمام، قال
سعيد، وأضاف أنّ طريق المشاة القادم من القرية إلى الإمام ضاق لقلة
الاستخدام بعد استبداله بطريق آخر للسيارات.

الساحة الكائنة أمام الضريح لم تبقَ كما هي، ابتلعها التحديث، وغاب
التراب الذي تعودَ الأطفال التهامه لجراح الخوف من الامتحان، بفعل
التجديد. أشجار الكالبتوز التي غرزها عبد علي عبود قبل ستة عقود زادت
أعدادها، غرز الخيّون إلى جنبها أشجاراً أخرى، يتفياً تحت ظلالها الزوار.

تناقصت قبور الفقراء وأطفال القرية المستثنين من الدفن في وادي
السلام، اندرست شواهد بعضها، ابتلعت السنين بعضها الآخر، كأن
الأهل نسوا موتاهم من الأطفال لصالح الموت الذي كثر بين الشباب في
حروب واضطهاد وتغييب قسري استمر عقوداً؛ من ذاك الزمان إلى هذا
الزمان.

توقف الفلاحون الذين كانوا يقدون تلاً يجاور الإمام ليلاً، ليأخذوا من
ترابه الأسود كميات يستخدمونها سماداً لأشجار يزرعوها، يقولون عنه سماد
جيد يطوف عند استخدامه فوق الماء أثناء السقي، ويسهم في تقليل
الحشائش حولها، قال عبود العمران وهو فلاح يدير بستاناً على جدول

بابل مستثمراً هذا النوع من التراب للتسميد، إنّه عثر بين التراب أكثر من مرة على عظام بشرية، أعاد دفنها في مكان آخر من التل، وعثر على بقايا حبوب من الشعير والحنطة في نفس المكان. استمر هذا التل والتلال المحيطة بالإمام كما هي، شواهد آثار لم تصل إلى حافات أيدي المنقبين، قحوف الجرار البابلية ما زالت عليها متناثرة، ولون التراب بقي قريباً من الأسود، كمن يكون حزيناً. الحفرة التي كانت قبل ستة عقود كأنّها هوة لم ندخلها أيام الصبا خشية خروج الموتى من بين شقوقها، لم تكن هكذا اليوم.

قبل أن ينهي سعيد كلامه عن هذا المعلم المهم بحياة القرية في ذاك الزمان وهذا، نوه إلى أن مرقداً آخر ظهر فجأة داخل القرية للإمامين الشقيقين أيمن وأمين، قيل إنّهما أولاد الإمام الكاظم.

كيف ظهرا فجأة، وموتهما إن صحّ قد تمّ قبل نحو ألف وثلاثمائة عام؟. سأل عاصم.

قال سعيد: كانت السيدة زهرة قد تزوجت من رجل، سكنت وإياه القرية في بيت مستأجر لحميدة جويد، صارت من بعد السكن فيه لأشهر قليلة، تتكلّم مع نسوة من جيلها عن نور يظهر بين الحين والآخر في غرفة من البيت تطل على الشارع، وتوجّهت من بعد ظهوره إلى إيقاد شموع في أركانها الأربعة، واقتصرت على صلاة تقيمها ثلاث أوقات على أرضها التي حسبته مباركة.

في ليلة شتوية، هطلت غيومها مطراً غزيراً، رعدت سماؤها رعداً لم يتوقف، ذهبت هي إلى فراشها بعد أداء مراسم صلاة العشاء في الغرفة إياها كالمعتاد، ردّدت أدعية لإتمام الستر وإزالة الخوف، رأت في المنام بعد

غفوة عميقة رجلاً مهيوّباً، يشعّ من وجهه الجميل نورٌ ساطعٌ يغشي العين، وقف في ساحة دارها تحت زخات مطر لن تمسه، أشار لها بيده إلى الغرفة ذاتها، قال: هنا يرقد ولداه أيمن وأمين.

استيقظت من النوم بعد انتهاء الحلم ترتجف، تنصبّب عرقاً، مبهورة، لم تهدأ، لم يغالبها النعاس، وكأَنَّها نفضت مكتفية من نوم دام أياماً، أخذت تتحرك في أرجاء البيت دون سيطرة من عقلها على جسمها الذي صار يتحرّك بإرادة غير إرادتها، نقلت إبان ذاك التحرك موجودات الغرفة إلى خارجها، نظّفتها مرتين، بحزّت وسطها، علّقت راية في أعلاها كانت خضراء. قصّت على أفراد عائلتها في أول الصباح تلك الرؤيا، وما فعلته طوال ليل لم تهدأ خلاله ولم تتوقف عن الدعاء، ثم قصّتها على المعارف الذين فسروا جميعهم تلك الرؤيا تأكيداً لحديثها بوجود قبر الإمامين، باستثناء ابنها البكر، الذي قال إنّ الجيران قد سخروا منها ومن تهوّات تحصل لها بعيدة عن الواقع، وأكدوا أنه ضحك ساعتها بصوت عال، وتعتمد العبث في هذه الغرفة التي تحسبها مقدسة.

قالت مخاطبة جارة لها:

لا تصدقوا ما يقوله ابنها، فهو مدمن على تناول الخمر، منفعل طول الوقت، يرى أشخاصاً يظنّ أنّهم قادمون لقتله، يحلم أحلاماً ينهض من منامه بعدها مذعوراً، يأتي حضانها ليختبئ كأنّه طفل رضيع.

لم يأبه الابن لقولها، توجّه وأصحاب له على شاكلته بعد تنظيف الغرفة وتبخيرها، تناولوا الخمر على أرضيتها التي تحسبها مقدسة.

أشارت إلى أنّها حلمت بعد تكرار فعلته أنّه سيمرض، قالت إنّها حدّثته من تكرارها، لكنّه عصاها فمرض مرضاً عقلياً صار بسببه يهلوس، أهمل نفسه، ترك أصدقاءه، وتركوه هم في حالة جنون.

راحت زهرة تزور بيوتات القرية، تقصّ حلمها وجنون ولدها، اقتنع البعض بأقوالها، ذهبوا إلى الأوقاف والنجف الأشرف، لم يحظوا بالدعم الديني الكافي لإنشاء مرقد يضاف إلى ما موجود من مراقد، دون سند تاريخي، فتوجّهوا إلى جمع مبلغ بسيطٍ من المال تبرعات من أهل القرية، بنوا دكتين على شكل قبر افتراضي طول الواحد مترين، وارتفاعه متر ونصف المتر، وقبتين محيط الواحدة منهما بمحود المتر.

جعلوا من شباك الغرفة باباً على الشارع، وعلّقوا في أعلاها قطعة للدلالة، فصار مرقداً يؤمه الزوار، وتقدّم له النذور، وصارت هي أول قِيَمَةٍ عليه.



عمران الحاج خضير الخفاجي . گيم



حمزة الحاج خضير الخفاجي . گيم



عظيم حمزة الخفاجي



مرقد الامامين ائمن وأمين



لطيف شلال الربيعي . عسكري . مختار



الامامين ائمن وأمين من الداخل

من أيام محرم

اللحن الحزين، وأصوات بترددات عالية من جامع كان وحيداً في القرية، توالى بانتظام عن مقتل الإمام الحسين في واقعة الطف طوال عشرة أيام من شهر محرم الحرام، وآخرون أخذتهم غفوة هروب من ذاك الظلم وهذا القدر المقسوم، تَنَحَّوْا جانباً ولم يعودوا قادرين على التقرب من تلك الطقوس. كأنّ غالبية القوم في القرية طوال هذه العشرة أيام، يدخلون غيمة حزن فيها لوم الذات بشكل مقصود، يَحْتَم على السلوك.

قال سعيد: رجال القرية وشبابها يتظللون جميعاً بخيمة الحزن هذه في ذاك الزمان عشرة أيام فقط، لا يزيدون لها يوماً ولا ينقصون منها آخر. بدأ عدّ اليوم الأول من بعد الظهر، أعمال متفرقة يشرف عليها المؤدّن عباس، انتهت لما أتمّ جاسم كويش رشّ أرضية الجامع وفرش الحصان. حضر بعد اتمامها بقليل الشيخ محمد، القارئ الحسيني المعروف قادماً من مركز مدينة الحلة، يغطّيه سواداً من حافّة ثوبه إلى أعلى كوفية يرتديها والعقال. صلى العشاء مع فرض صلاة المغرب معاً كما هو معتاد. امتلأت باحة الجامع، رجالاً أخذوا من الصفوف الأولى بمواجهة المنبر مكاناً لهم، جلسوا على حصان هياها جاسم مكاناً للجلوس، ومن خلفهم شباب، ونصيب الصبية أماكن عند مؤخرة الصفوف، تقترب من الباب، ليضمنوا ممراً سالكاً للهروب، عندما يحدث أحدهم شوشرة بالكلام، تغضب الكبار وتدفع بعضهم إلى توجيه اللوم.

علّق الشيخ محمد عقّاله على مسمار مثبّت على الحائط، صعد المنبر، أسدل الكوفية السوداء على كتفين تدلّت من أعلاهن عباءة سوداء بدأ بالصلاة على محمد وآل محمد ثم القراءة على الإمام الحسين وما أصابه والعائلة ومناصريه في حربه ضد يزيد.

أنهى القراءة، انتظم الحاضرون جماعات متقابلة لأغراض اللطم. مشى الجميع وهم يلطمون إلى الشارع بوقع يستّمونه (السبابة)^(١). هناك، تضخّمت المجموعات، وزادت أعدادها، ربط الجميع ثيابهم على وسط أجسادهم ليظهروا الصدور عارية، مكاناً لتلقي الضربات من أيدي تُعبّر عن عمق المأساة لطماً.

وقفت النسوة فوق سطوح البيوت الممتدة إلى باب السور، آخر موقع تصله المجموعات، وأخريات أخذن من نقاط التقاء الشارع بالزقاق مكاناً للوقوف. يجهش جميعاً بالبكاء ويصرخن عويلاً على مصاب الإمام.

الشباب يزيدون من شدّة اللطم على الصدور، مع كلّ جوقة نساء تزيد من عويلها على السطوح. عباس الجاسم في الأمام يتقدّم المجموعات، بصدر عارٍ يملأه الشيب.

حضر الشيخ محمد إلى الجامع في اليوم الثاني كالمعتاد، دخل من بعده مباشرة (حسن المسجّين) كان الجامع لهذا اليوم مزدحماً فأخذ حسن مكانه في الصف الأول، لا يبتعد عن أقدام الشيخ محمد المتدلية من على المنبر إلا قليلاً.

١. السبابة، هي (التعزية) مجموعة الطقوس التي يُقسّم في ضوئها المشاركون على شكل مجموعات تؤدي كل منها دور اللطم بإيقاع خاص، وتردّد عبارات دينية، تتقدّمهم مجموعة الأطفال، وبعدها بعض التشابيه.

بدأ الشيخ، قال: صلوا على... غطّ حسن في نوبة بكاء فيها صوت نحيب عالٍ.

توقّف الشيخ عن إكمال جملته التي اعتاد ذكرها (صلوا على محمد وآل محمد) قبل الشروع بقراءة المصاب، قال: حسن لحدّ الآن لم نستفتح اعطني المجال لأقرأ، وأمامك الوقت كافٍ لأن تشبع بكاء.

ضحك الحاضرون واستمرّ الشيخ في القراءة، حتى وصل إلى فقرة يفسّر فيها عقاب المفسدين يوم القيامة، قال:

إنّ الله سبحانه وتعالى، يُحضر المسيء أمامه يوم الحساب، يضربه (سنگي^(١)) ينزله سبعة فراسخ في الأرض. ضجّت القاعة بالكلام ولغط لا يخلو من التعجّب. لم ينتظر حسن النتيجة، ومن مكانه وهو جالسٌ وبلهجته الدارجة أطلق جملته المشهورة: (اشدعوه خو يلبنجه^(٢)) بشطبة رمان ويفضها). غصّ الموجودون ضحكاً بينهم الشيخ، الذي استمرّ من بعدها في استذكار الواقعة.

.....

حلّ اليوم السابع من الأيام العشرة، خصّه الشيخ لمقتل العباس، تناول اختراق الإمام صفوف العدو في الذهاب إلى النهر بهدف جلب قربة ماء لنساء وأطفال آل الرسول. ثمّ مبارزته كبار جيش يزيد، غاراته المتوالية على الجيش، وقتله آلافاً منهم.

١. السنكي، كلمة فارسية الأصل، تعني في الاستخدام الشعبي، الحربة التي ترّكب على البنادق القديمة، يستخدمها المحاربون للطعن، عندما يكون القتال قريباً أو كما يقال بالسلاح الأبيض.

٢. عبارة تعني: لم هذه الشدة، ممكن أن يأتي بشطبة، أي غصن من شجر الرمان ويضربه بها.

عرج على قطع يده اليمين بضربة سيف من آثم، واستمر بالقتال بالقوّة ذاتها في يده شمال، ومن ثم بفم نقل اليه السيف بعد قطع اليد الشمال، مستمراً في حصد أرواح المئات من جنود يزيد.

كان الشيخ قد خصّص كلّ يوم من الأيام العشرة لمقتل أحد الأئمة الأطهار وكان اليوم الثامن

لمقتل الامام القاسم، إذ لم يأذن له الحسين بداية مبارزة العدو والقتال، لكنّه دخل وأبدع حتى قتل، وهكذا ورّع الشيخ القتلى من طرف الإمام واحداً لكلّ يوم، يتخيله السامع أنهم قتلوا تباعاً في كل يوم قتيل. بدأ اليوم العاشر في الصباح.

ظهر أول ساعات الصباح، الشمر قاتل الحسين، أو في الحقيقة من مثّل قاتل الحسين لسنوات طوال، هادي العداي، وقد خرج من بيته، واضعاً على رأسه كوفية يغلب عليها السواد، فوقها عقال، غطّى نصف جسمه العلوي رداءً يوحي وكأنّه لباس الشمر ودرعه في ذاك الزمان، وفي وسطه حزام أسود، هو الحزام الذي كان يتمنطق به قصاباً في أوقات العمل، علّق به سيفاً بلا غمدٍ، قيل إنّ صاحبه الحاج عباس لم يُسلّم الغمد يوم سلف السيف ثوباً لإحياء الواقعة.

وقف هادي أمام بيته على الشارع وسط القرية واثقاً من إجادته الدور، كيف لا، وقد تعود على أدائه كلّ عام منذ أيام الشباب. عدّل من وقفته وسأل خضير عباس كان يجري هرولة باتجاه الباب الشطاني:

- هل أنت ذاهب إلى التجريح؟

- نعم.

- استعجل حسن (النَّدَّة) جبر، لإكمال تجريح جوقتكم كأطفال، لا بدّ من إنجازها سريعاً فالوقت يمضي، ووجودها لازم جزءاً من المشهد.

ترك حسن جبر عدة عمله في (درازة)^(١) الأبنية بالاسمنت لهذا اليوم، لم يعتد تركها متخصصاً في شؤونها وحيداً في القرية من يوم دخول الدرازة سبيلاً لطلاء الحيطان المبنية من الطابوق في وقت ظهر فيه الاسمنت فجأة في القرية مادة بناء بدل النورة منتصف خمسينيات القرن العشرين.

بان حسن أمام بيته واثقاً من نفسه ومن عمل عائده أجراً سخياً يوم الحساب، وقف بقامته الطويلة وجسمه الرشيق نشطاً، أخرج من جيبه موس حلالة علامة (ناسيت) كان قد استعمله قبل دقائق من بدء التجريح لحلالة ذقنه ذي الشعر الخفيف، مسكه باليد اليمين ومسك الأطفال أنفاسهم في طابور التجريح، يودون إثبات نوع من الرجولة الممهورة بالحنن الأسود، وجرح على الذراع مشروط بنزف الدم الأحمر.

كان حسن ماهراً في هذا وكأّن بغرسه الموس في أعلى الذراع يطرّز خطوط الاسمنت على حيطان أبنية حديثة بآلته المعهودة (الجمجة)^(٢) يخطّ عليها ثلاثة جروح متناسقة ليمسك اليسرى من بعدها بالهمة ذاتها. نظر إلى ناظم مضحي وقد انتهى من فتح ستة جروح على عضديه الغضّين، أمره أن يقف جانباً، يستمرّ بالضرب على جروح يديه كي يستمر جريان الدم، إنّه دم لنصرة الحسين.

١. الدرازة، ملء الفراغات بين الطابوق المبني أو تغطيتها بالاسمنت.

٢. الجمجة، من معدات البناء تستخدم مع الاسمنت، منها أحجام بعضها صغير للدرازة، وآخر أكبر لمّد خليط الاسمنت بالرمل على الطابوق.

قدّم عباس عبد الأمير ذراعه اليسار، حال وصوله، صامداً لا يرتحف من ذاك الموس وأحدود يُشَّق، إيذاناً بخروج الدم الأحمر. خاطبه حسن: لنبدأ بذراعك اليمين، فالبدء من اليمين محبّد في الإسلام. باركّ الدم النازف، وألحقه في جوقه الحزن الأسود، ليأتي من بعده أحمد عبيد ومن بعده آخر، منهياً مهمّته أخيراً مع خضير عباس الذي وصل حاملاً توصية الشمر بالاستعجال. عندها اكتمل العدد الآتي للتجريح.

أتم حسن فعل التجريح بدقائق عشر لا غير، كان سريعاً، يتقن مهنته، ينتقل باقتدار من طفل لآخر ومن يد طفل إلى أخرى، وبعد أن وضع الموس وقطرات دم طفولي ما زالت باقية على حافّاته في الجيب الجانبي لثوب له ترابي اللون، قدّم إيجازاً عن طريقة الضرب على الجروح لإبقاء جريان الدم سارياً. ومن بعد الانتهاء من هذه المهمة.

قال: ردّدوا من بعدي، (أوجرك الله عمران، على الحسين ومكصّصات اليدين، على الحسين^(١)).

ردّد الأطفال من بعده العبارة بإتقان، كونهم قد ردّدوها ومن سبقهم في كل موسم. قلّد بعضهم في الضرب على الجرح بعضاً بطريقة تتقاطع فيها الأيدي لتكون الأصابع كافية لنكء الجرح كي لا يندمل، ونشوة فعل تتداخل فيها المشاعر بين حزن موروث وبين فرح المشاركة ولعب الدور كافية لفتح أبواب الرجولة من بعيد.

.....

١. أوجرك، كلمة جاءت من الأجر، أي الثواب، والعبارة في مجملها تعني طلب الثواب للامام عمران على مقتل الحسين، وإن جرح اليدين وخروج الدم منها، تمثيلاً لقطعها (مكصّصات) حزناً على الحسين.

أَتَجَّهَ حسن بعد إتمام ثواب التجريح، يتبعه جوق من الأطفال الذين أتم
تجريحهم صوب الجامع كأنَّه قائد كردوس في ميدان حرب، مزهوًّا بالدور
الذي مثَّله والثواب الذي ينتظره، صادفه في الطريق المعلم كريم عمران
وحذَّره من استخدام الموس ذاته لتجريح جميع الأطفال، خشية انتقال
بعض الأمراض عن طريق العدوى، ردَّ بثقة عليه ودون أن يبطئ من
مشيته: هناك ربَّ حامٍ، وأجر مضمون ينتظرنا نهاية المطاف. انسحب
على إثرها كريم من ساحة النقاش، بعد عبارة قالها بصوت خافت: لا اله
الا الله.

دخل حسن الزقاق المؤدِّي إلى الجامع ليلتحق بمجاميع تعدُّ لأغراض
اللطم وستشرع من باحته واحدة بعد أخرى، ليكون على رأس واحدة
يضبط إيقاع لطم أفرادها، يشدُّ على أزهرهم بداية المشوار. أما جوقه
التجريح فقد استمرت في سيرها وفي ترديد العبارة ذاتها سالكة الشارع
باتجاه الشمر، وهو ينتظرها عند باب البيت.

التفت الشمر صوبها حال سماع أصوات أصحابها تهدر بعداوته من
بعيد، عدَّل من وقفته منتصبًا، فصمت الأصحاب عند ظهوره برهة،
استبدلوا خلالها المشاعر وجرعة الخوف المكبوت بمقت أسود للرجل وكأنَّه
الشمر القاتل فعلاً.

انتقلت من بعده الجوقة يقودها خضير، الطفل الأكبر من بين
أصحابها، وانتقل حالها من الصمت الميؤوس إلى الاحتجاج المأمول،
والمطالبة بالانتقام من الشمر، قاتل آل الرسول.

تخيّلوه هو القاتل. وتخيّل كل طفل منهم نفسه من بين الأطفال المبعثرين في ساحة الطفّ مطعوناً بسيفه، فزادت حدة هتافهم في ساحة باتت والأذرع النازفة جزءاً من مشهدها التمثيلي للواقعة.

تحرّكت الجوقة من مكانها أمام بيت الشمر، وعبارات محدّدة على ألسنة أصحابها تتكرّر مثل شريط على آلة تسجيل، وقد امتلأت قلوبهم بالتحدي، يدندنون، يتلفّتون، يضحكون أحياناً وأحياناً يهتفون: (عباس يا مولانا هذا الشمر عادانا).

أخرج الشمر سيفه، أوماً بالقصاص، سارت الجوقة باتجاه باب السور، وهو وسطهم يلوح بالسيف حيناً ويعيده إلى الخزام الأسود حيناً آخر.

كرّروا الترنيمة ذاتها، عادوا من حيث أتوا، انتظروا وإياه مقدمة السبابة. أخذوا موقعاً لهم في مقدمتها وهو من ورائهم يلوّح بالسيف، وضعه على رأس عباس عبد الأمير مرة ومرة أخرى على كتف عزيز عمران، وثالثة على يد أحمد علي، ليعيده إلى الخزام آخر المشوار، حتى بلغوا باب السور، توقّفوا قليلاً إلى جوار بيت حمزة الداخ، أخذت مجاميع اللطم قسماً من اللطم، اتجهوا من بعدها إلى مرقد الإمام عمران على طريق تراي يمر إلى جانب بستان الملا نشمية، عبر تلال يتوسطها إلى المرقد.



كريم عمران چتان الربيعي. جيل المعلمين الأول



السياسي كامل الجادرچي مالك بساتين الجمجمة



حسن جبر الباوي



علي محمد المعموري (البصير) معلم. محامي^١



عبد الرحمن حسون الباوي



عباس عبد الأمير السلامي. جيل الجامعيين الثاني

^١. أول شخص بصير في القرية يكمل دراسته الابتدائية ومن ثم المتوسطة والثانوية، عمل معلماً، وخلالها التحق بكلية القانون في بغداد، وبعد إكمالها عمل محامياً.

العاشر من محرم

وصلت مجموعات (السباية) قريباً من الإمام عمران، جوقات لطم تتخللها مجاميع تحمل تشابه قتلى واقعة الطف نعوشاً على مصفوفات جريد، مغطاة بأقمشة يغلب عليها اللون الأخضر، راية العلويين. حُرِجت من بينهم، زينب (أم بدر^(١))، وكأَنَّها صورة ناطقة للحزن النافذ، أبطأت خطواتها الأولى، وما لبث أن استقام بها المشي متوازناً، وهي في الأصل امرأة معروفة بتوازنها، وصفت ما جرى للنسوة والأطفال في الواقعة على لسان زينب، ابنة الامام علي، اشتكت إلى ربِّها من عطش ألمٍ بأهلها، نعت أخوتها وأبناءهم يُقتلون واحداً بعد الآخر، بيّنت لوعتها على إطفال تركوا أيتاماً ونسوة أضحين أرامل. ناحت كما ناحت زينب في الواقعة عند تأبين أخيها الحسين، والنسوة من حولها يطلقن صيحات ونحيباً، ردّدت بعض عباراتها وهي تخطب في أهل الكوفة عندما أخذوها أسيرة إلى الوالي عبيد الله، قدّمت كلّ هذا بصوت خلطت في ثناياه نبرة الأسى بالفجع، تردّد رجع صدهاء أصواتاً ونحيباً ليس من النساء اللواتي طوّقن ممشاهن من جميع الجهات، بل وكذلك من الرجال، حتى إذا هدأ نسيجها وتأكدت من ارتفاع صوت العويل من حولها، رفعت وجهها المخضّب بالدموع، أخذت نفساً عميقاً، ثم ناحت بعبارة قائلة: (ما دريتوا بكريلّا إشصار من شبت النار).

١. السيدة أم بدر هي زوجة السيد هادي العداي، وقد امتازت بصوتها الشجي الحزين وطبيعتها، وقدرتها الجيدة على الحفظ وإخراج الكلمات، والسلاسة في ترديدها.

أكملت العبارة، وحال الانتهاء من آخر كلمة لها، تقدّم منها الشمر، وضع السيف على رقبته فتصاعد العويل، وكثر السباب، وتضاعف الدعاء وطلب الانتقام، لكنّها لم تستسلم، رفعت وتيرة صوتها لإثارة المشاركين بعبارات حزن أكثر قسوة في تجسيد صورة المأساة وإبقاء الرغبة للانتقام ماثلة في النفوس. ردّد أصحاب جوقة التجريح والدماء تسيل من أذرعهم، عبارة تتكرّر في كلّ سنة: (عباس يا والينا جيب الماي واسقينا).

هنا وفي هذه اللقطة من مشهد الاستنجاد بالإمام العباس لجلب الماء، أخرجت زينب من تحت عباءتها طاساً في مسعى لتمثيل إيصال ماء لأفواه أطفال صاروا يتساقطون من العطش، تقدّم منها الشمر. ضرب الطاس بسيفه المقوّس، سقط من يدها وتدرّج تحت أقدام المحيطين.

صاح القرييون غضباً: "ويحك يا كافر".

انفضت شكرية، السيدة المسنّة من قرية برنون كانت واقفة قريباً منه تتابع المشهد بكل حواسها، وقد تلبّسها الحزن، وكأّتها واحدة من المشاركين في واقعه، وكأنّ الأطفال أطفالها سيموتون من العطش حتماً. بكت شكرية بحرقّة، دنت من قبر إلى جوارها قد تهدّم وهي تولول ألماً. التقطت منه طابوقة ما زالت تحافظ على تماسكها كاملة منذ العهد البابلي. استجمعت طاقة كان قد بدّد منها الزمن كثيراً. رمت بثقلها والطابوقة على الشمر، فأصابته في كتفه إصابة مباشرة.

صاح من وجعه (آخ). ثم التفت إليها متألماً، ساخراً قال وبصوت خفيض: (اشتعل أيبجج^(١)).

.....

لملمَ الشمرُ حاله، وأعاد السيطرة على الموقف إذ اقتضى المشهد مرور العليل (الامام زين العابدين). مرَّ العليل (قاسم هادي) قريباً منه راكباً على حصان أعرج، بانث على ساقه الأمامية اليمين جروحٌ قديمة، يبدو كانت سبباً لإعفائه من مهامه في جرّ عربة نفط، احتفظ به صاحبه لهذا اليوم سعيّاً منه للظفر بقدر من الثواب.

اتّجه الشمر نحوّه، حاول طعنه بالسيف، وقفت زينب بينهما، صاحت: اقتلي دونه يا بن ذو الجوشن. تعالت عندها الأصوات تعاطفاً معه إماماً مريضاً، فتركه وتنحّى جانباً.

هنا على عتبات باب المرقد انتهت التشابيه الخاصّة بالواقعة لأهل القرية، وصلت مجاميع من قرية سنجار، وأخرى من كويرش، كانوا قد شكّلوا هم أيضاً مجاميع، نفّذوا تبعاً إلى باحة المرقد لإتمام عملية اللطم داخلها.

صعد الشيخ محمد منبراً نُصب في طرفها الشرقي، بدأ قراءة أجزاءٍ من مقتل الامام الحسين، فزاد الحماس في اللطم. اقترب الوقت من صلاة الظهر، ختم الشيخ قراءته، فتوقّفت كل أنشطة الحزن. عادت المجاميع إلى القرى التي جاءت منها مهرولة على شكل أفراد بعضهم، وبعضهم الآخر

١. اشتعل أيبجج: عبارة شتم دارجة، وهي أشبه بأمنية لرمي أب المشتوم في جهنّم، تظهر في أوقات الصدام وخلال الانفعال بالمستويات العالية.

جماعات، وكأثم يريدون أن ينسوا الحزن بجميع أشكاله، ويتفرّغوا لأُمور دنياهم من جديد، هكذا كان فهمهم للدين، إيقافاً لمشاعر الحزن نهاية ظهر اليوم العاشر.

تقدّم عزايي عبد الرضا أولئك العائدين إلى القرية مهولاً من مرقد الإمام، بات يرّد ما عنده من أهازيج، خلطها بروايات من الماضي وقسم من تاريخ القرية، وبعض أشعار يحفظها عن الواقعة. أكمل ما عنده، ثم سار وباقي الجمع عائدين باتجاه الشارع الرئيس عند باب السور، وقبل الوصول اليه أبطأوا قليلاً. تقدّم عبد الأمير حمزة وهو شاب يملأه الحماس، قال بصوت عالٍ يتناسب وضجيج المكان: ارفعوني.

تقدّم منه اثنان من الشباب حملاه على أكتافهم، بدأ مشواره بأهزوجة: (تبقى بهالسوالف دوم يا حشاش) فأدرك حاملوه أنّه يقصد الرئيس المصري جمال عبد الناصر، فأنزله على الفور، بعد إدراك سريع بأنّ السياسة قد دخلت متغيراً في وقع الحزن. لكنّهم لم يتوقفوا عندها، استمروا سيراً في الشارع، قريباً من زقاق بيت شلاش، تقدم علي، شاعر القرية، خارجاً من بيت أهله، وأشّر بكلتا يديه أن يتوقفوا، وقد اتسعت الآمال أمام عينيه الغائرتين أن يلقي شعراً. رفع يده اليمين ملوحاً، بإشارة السكوت. فسكت الجميع.

تقدّم منه اثنان من الشباب رفعاه على أكتافهم، ألقى شعراً شعبياً نصفه الأول عن الواقعة والإمام ونصفه الثاني أحابيل سياسة. أتمّ علي بشعره إنهاء مظاهر حزن دامت عشرة أيام، كأنّه أذن لعودة الحياة إلى

طبيعتها، غيّر من بعدها الشمر، هادي العداي لباس الحرب، وعاد كما كان من قبل، شخصية اجتماعية، وجيهاً من وجهاء القرية.

كان هادي يعمل في الأصل قصاباً لفترة طويلة، ومن ثم صاحب مقهى، علاقاته مع أهل القرية من جيله والجيل الذي تلاه أو سبقه جيدة، وفهمه وأبناء جيله للدين فهمٌ مبنيٌّ على التسامح وقدر من الانفتاح وعدم المغالاة بالطقوس. يحضر الأيام العشرة التي تقام فيها القراءة على الامام الحسين ليلاً في الجامع شخصية مميزة، علاقاته مع أهل القرية والجيران جيدة بمعايير ذلك الزمان، يحمل توافقاً غريباً بين الجدبة والمرح، ففي تمثيل دور الشمر كان الجد غالباً على هيئته وسلوكه، وفي مجالسه الخاصة مع أقرانه وبعض مواقف الحياة مرحاً بتلقائية لافتة للنظر.

إذ وفي اليوم التاسع من الأيام العشرة التي قرأ فيها القارئ الشيخ محمد واقعة الطف في ذلك العام، بدأ اللطم صفين متقابلين، يقف الرجل عادة في صف بمواجهة آخر في الصف المقابل، وكان في مواجهة هادي العداي في ذلك اليوم رجل يدعى (كعبور) شخصية بسيطة. لقد تحمّس الواقفون في الصفين المتقابلين واشتدّ وقع اللطم.

أخذ هادي يرفع يديه إلى الأعلى وينزلها بسرعة وقوة كمن يكون ساعياً إلى عقاب الذات بشدة، تكفيراً عن ذنب ارتكبه في عدم نصره الحسين، لكنّه يبطئ ارتطامها ب صدره العاري.

بات كعبور ينظر إليه، وكلما أعاد النظر إليه أمعن في تقليده، وزاد من شدة اللطم، حتى أدمى صدره.

توقف الشيخ محمد، وانتهت فترة اللطم.

التفت هادي إلى صديقه عباس عمران، وبلهجتة الدارجة قال:
لقد (شعلت أبوه).

.....

انتهت مظاهر الحزن، وعاد الجميع إلى حياتهم الطبيعية، الا النسوة فما زال اليوم هو الأخير في حسابهن، قراءات متسلسلة حوادثها (قرايات) تنتهي مساء اليوم بمقتل الامام الحسين، وقبل أن تنتهي توجهت ثلاثون امرأة إلى بيت الملا نشمية، جلسن على حصران فرشت على أرضية الحوش، جلست الملا في مواجهتهن على فرش عالٍ نسبياً (مندر) بهيئتها الفارعة، وجسمها النشط، وعينيها المبصرتين جيّداً، أخذت شوطاً في النعي، ثم بستات أثارت النسوة الحاضرات، فتوجهن إلى لطم الصدور، واستمرت هكذا إلى أن ختمت لأموات الحضور وباقي المسلمين بالرحمة. خرجت النسوة من البيت، وحال خروجهن من عتبة الباب جاءها كنتها أم أركان، أخبرتها أن هناك شخصاً من بيت شايع قد تعرّض إلى لدغة عقرب، وهو يصرخ، وقد يغمى عليه في الحال. أمرت بوضعه على حصير ما زال مفروشاً في الحوش.

مسكت حافات ساقه أسفل الركبة حيث البقعة المؤشرة لمكان اللدغة. عصرتها جيداً ثم أطبقت عليها بفكين قويين وأخذت في سحب السم بفمها، بعدها بدقائق قام معافي يمشي باعتدال وقد انتهى الألم. قال وهو خارج من بيتها معافي: لقد كنت واثقاً من شفائي، حال دخولي بيت الملا، لأن لديها قدرة نادرة على تقديم العلاج بهذه الطريقة، ألم تكن هي من قَبَّلَ الحجر الأسود للكعبة، وزارت المسجد الأقصى في القدس.

إنّ الملا نشمية التي تعد من جيل الملاي الأول في القرية، تعلّمت القراءة والكتابة مبكراً في بيت أهلها وهي طفلة على يد أخيها المحاسب في شركة هندية، اعتادت الإلحاح في محاولات إلزامه بتعليمها حال عودته إلى البيت، يشجعها أن تتعلّم أب تعلّم القراءة والكتابة في الكتابيب.

ختمت القرآن، وامتهنت قراءة العزاء في عاشوراء، صارت تقيمها للنسوة في بيت أهلها ثم توجّهت من بعده للذهاب إلى بيوت في القرية لإقامة وقعها، بعد أن تكاثر الطلب لإتمام العزاء على المقتل تبركاً أو إيفاءً لنذور عند تحقّقها، وهي خير من يقرأ، بتسلسل ووصف منطقي أكثر منه عاطفياً لمجرد إثارة المشاعر وإنزال الدموع، ساعدها صوتها الجميل على إجادة عملها وأسهمت شخصيتها القوية في اتمامه جيداً. حافظت على موقعها قارئة تكاد أن تكون الوحيدة في القرية لفترة من الزمن ليست قصيرة، ومن بعدها تركت إرثاً من عدّة قارئات (ملايات) تتلمذن على يدها. توصف الملا نشمية بالجرأة والشجاعة، حتى أنّها أوقفت عبد الكريم قاسم حال خروجه من باب وزارة الدفاع مرة، معاتبته إياه فقط على اعتقال ولدها البكر جهاد بتهمة الانتماء إلى الحزب الشيوعي.



عباس عمران العميدي



هادي عداي الربيعي. مثل دور الشمر لسنوات



طلاب ثانوية من القرية في سفرة مدرسية



كاظم طه السلامي. معلم من الجيل الثاني



السبايات في القرية حديثاً



الملا نشمية. الملا الأولى في القرية

يد الله فتاح الفال

أشرت يسرى بيدها إلى علامة تؤكد وصولهم إلى منطقة (ولزدن)، في الجانب الشرقي من لندن، وإلى الشارع الذي يسكن في نهايته فؤاد. نظرت إلى ساعتها كانت، الثالثة وخمس دقائق صباحاً، تحوّل النث في آخر دقيقة منها مطراً، راحت قطراته الثقيلة تتساقط بغزارة، علّق عليها سعيد بالقول، إنّ هذه الأجواء تعطي التجوال في هذا الوقت متعة خاصة.

رفعت كلتا يديها من على مقود السيارة، لتتأمل القطرات الساقطة على الزجاج الأمامي عن قرب، فارتسمت على محياها ابتسامة أمل بغد أفضل، سألت:

- هل نضب خزين ذاكرتك؟.

- فاتي ذكر يوم قصدت فيه القرية عائداً اليها ثانية بعد عام على مرور رتل الدبابات، شوقاً اليها، وإشباعاً لرغبتني في العودة إلى الزمن الجميل، وقفت على التل المقابل للمدرسة، ذلك التل الذي مرّق على حافته حسن عمران كتبه احتجاجاً، سرت منه باتجاهها عدّة خطوات، ظهرت بعض معالمها بوضوح كأني لم أشاهدها من قبل، بدت واجهتها ومدخل باب السور غريبة، شككت بأمرها بداية، بانت وكأنّ أشياء لُصِقَتْ بها بطريقة غير نظامية، حاولت النزول من على هذا التل الذي شهد جلّ أحداثها، بنفس الوتيرة التي كنت أنزل بها من على قمته أيام الصبا، أبطأت قدماي النزول، دفعنا العقل إلى مناجاة النفس قولاً وبصوت غير مسموع:

لم تكن هذه القرية الجمجمة ذاتها، التي أخذت لها مكاناً وسط بساتين نخيل غرزها الأجداد.

لم تعد هناك بساتين ولا نخيل، ولا قدرة توقف هذا التمدد المجنون باتجاه الجنوب كما كانت فاعلة لمئات من السنين.

لم يعد لها سور ولا حدود تفصلها عن المدينة تبقيها قرية، ولا أبواب يقف عندها حراس، يفتشون الداخلين عن بضع حبات تمر إبان مواسم النضج.

تهدم السور، غاب ذكر حارسه الشيتي سلمان، ذلك الرجل المعروف بطول قامته، ونصاحة جسمه المعضل، وشدة بأسه في تطبيق ضوابط التفتيش عن التمور المهربة إلى بيوت الأصحاب داخل السور، عندما تشتد الرياح وينزل الناضج من عناقيد عذوقها رطباً يجمع أحياناً بقصد التجاوز على حصة المالك عن طريق التهريب.

أخبرتنا عن شدة بأسه جدتي المحسوبة على أهل ذاك الزمان في إحدى حكاياتها، من أنه وبعد دخول البريطانيين مدينة الحلة بقليل من السنين واشتداد ضنك الحياة، بات يكثر من تواجده أمام الباب خارج السور بقصد التفتيش، كان في إحداها واقفاً ويده عصا من شجر التوت، دسّ يده بين حمل حشائش كانت على حمار عاد صاحبه تواء من بستان يعمل فيها فلاحاً، ثم دسّها ثانية في جيب ثوب الرجل الجاني، أخرج منه عشر حبات تمر كان قد وضعها فيه، خاطبه بقسوة حاكم جائر:

- أخرج ما في جعبتك من تمر، كي لا تسجل عليك مخالفة بجيابة تمر قبل تقاسمه مع الملاك.

أقسمَ الرجل أنها عشر حبات فقط، كان قد التقطها من تحت نخلة زهدي فارعة الطول خصص حملها منيحة^(١) للعلوية (عبيسة)، لحظة هزّ الريح عذوقها وأسقط الناضج من عناقيدها في الحال، ومثلها عشر أكلها وهو مشغول في جمعها من على الأرض كانت لذيدة عند تعفرها بالتراب، وربما أكل الحمار مثلها أو أكثر منها بقليل.

قَبْلَ الشّيتي اعترافه الصريح، صار في تلك اللحظة قاضياً وسلطة تنفيذ، صادر حبات التمر العشر، وضعها على حاصل المصادرة من آخرين، كما لا بأس به لهذا اليوم.

مرت من بعده سيدة تلقّب مجازاً (العومة^(٢))، امرأة مرهوبة من جهة النسوة جميعاً، نشطة، عالية الصوت، متوسطة العمر، طويلة القامة، قوية البنية، يظهر التسلُّط في مظهرها، ويشي كل سنتيم في جسمها بأنّها الحاكمة القوية في البيت.

تحرّمت بعباءتها وضعت فوق رأسها حزمة حطب من سعف نخيل يابس، جلبتها من كروود^(٣) خفاجة، أوقفها الشيتي، استفسر منها بأدب فيما إذا كانت تحمل تمرّاً، فأجابت بتحدّ سافر، وبصوت جهوري سمعه الموجودون في المكان: فتشّ إن شئت، فإنك لا تبالي بتفتيش النسوان.

١. المنيحة، كلمة جاءت من المنحة، أي الهبة، وفي عرف الفلاحين من أبناء القرية وإلى وقت قريب من خمسينيات القرن الماضي، كان الفلاح، يخص السيد، أو شخصاً معروفاً بتقواه أو مسكيناً أو علوية مثل عبيسة الخرسة بنت سيد حميد. بناتج نخلة مجددة، يقول إنّها منيحة السيد فلان بقصد الحصول على البركة في المنتج. وهذه من الأعراف التي اندثرت تدريجياً بعد حركة ١٤ تموز ١٩٥٨.

٢. عرم، اشتد وخرج عن الحد والعومة وصف للمرأة الشرسة، سليطة اللسان.

٣. كروود، وتلفظ محلياً (چرود) ومفردها (چرد) وهو واسطة للسقي، اذ يرفع الماء من البئر أو الساقية الأسفل إلى منطقة أعلى بأوعية خاصة كانت من الجلد، وعادة ما تستخدم الثيران لسحبها.

ردّ عليها وهو معروف بجراته وشدة حزمه في تطبيق الأوامر التي استلمها صارمة بتفتيش الجميع دوغما استثناء من وكيل الملاك مباشرة: استغفر الله من غضب الله، سألتك، أجيبي على قدر السؤال.

كرّرت العرمة إجابتها السابقة، فتّش، كما تشاء. ثم تمتت بكلمات غير مفهومة، وفكت حزام عباءتها.

لكنّه لم يقتنع، طلب إنزال حزمة الحطب، فتّشها فوجد تمرّاً قدره آنذاك بمقدار (حكمة)، صادره دون أن يتكلم، وأخذت هي حزمة حطبها واستمرت في سيرها إلى البيت تردّد بعض كلمات بينها: (يوم الأسود الذي جابك علينا).

كانت العرمة آخر المصادرة موجوداتهم من التمور، جمعها الشيتي فملأت حمل حماره، (سابلاً^(١)).

أغلق الباب بعد مغيب الشمس بقليل، وسار به حماراً كسولاً إلى الصومعة (الحظيرة) عند الباب الشطاني، سلّم الوكيل الوارد، ولم يخبره عن أسماء المخالفين، إذ وصفته الجدة في حكايتها أنّه وعلى الرغم من شدّته، لم يكن ميالاً لإثارة المشاكل لأبناء القرية الذي يعود بعضهم اليه، قريباً أو جاراً من قريب.

.....

أخذ سعيد استراحة قليلة، ومن بعدها قال: نظرت من مكان وقوفي إلى بستان الرهيمية، فلم أجد البستان، حولت نظري إلى بستان المومنين على

١. السابل، قطعة مستطيلة تحاك من خوص النخيل، تُربط بطريقة تبقي لها فتحة واحدة من الأعلى لتكون وعاءً بطول يقارب المتر ونصف يوضع على الحمار أو الفرس لنقل التمر أو الحبوب وغيرها.

يمينها، وجدتها قد غابت هي أيضاً ولم يبق منها بستان، تذكرت تنبؤات حايط عن مقتل النخلة وقوله: (سيأتي زمن يعز الأهل نخلتهم لندرتها، ومثله زمن لا ينفع أن تكون فيه التمور زكاةً للمسلمين، ولا يقبل لها أن تدفع أجراً لقراء الفواتح على أرواح الموتى والمساكين).

عند الصورة العقلية هذه لتنبؤات حايط، عاد سعيد إلى الشيتي، سلمان ثانية لسبب لا يعرفه. قال، تذكرت قول جدتي في مدحه، إنه كان قادراً ومصرّاً على تفتيش كل أهل القرية ومن يأتي إليها من غير أهلها، الا السيد (يد الله)، ذلك الرجل البسيط الذي يصفه رجال ذلك الزمان درويشاً، يبيع بالإضافة إلى وظيفته قارئاً على أرواح الموتى، ابر ولبان ومخايط، وحلويات (ضروگ الفار^(١)). بسيطاً حدّ السذاجة، يسرق الأطفال نصف بضاعته، يحب القرية كأنّ جذوره ممتدة إليها كنبات الحلفاء، يعاود حضورها في أيام الجمع للاستزاق، لا يعوقه مطر الشتاء وبرده، ولا تنبيه عواصف الصيف، نجا من آفات الجدري والطاعون والمجاعات والحروب، قدروا عمره عند آخر حضور له إلى القرية بعد أول جمعة أعقبت ثورة الزعيم قريباً من السبعين، عيناه على الرغم من صغرهما وانكماشهما، تنظران في ظلمة الليل، جسمه النحيل منطوٍ على ذاته النبهة، لا توجد بين جلده والعظام قطعة شحم واحدة، يمشي بتواصل لمسافات طويلة دون كلل، يوم تكون مكاسبه حملاً من الشعير يحول دون ركوبه الحمار.

اعتاد الحجيء صباحاً، والمغادرة مع حلول المغيب، يتنقل بين بيوت عوائلها المعروفة تلقائياً أو عند الطلب، وإلى جانبه حمار معروف بضخامته،

١. ضروگ الفار، حلوى على شكل كرات صغيرة الحجم ملونة.

وسرعة عدوه وقصر ذيله، وانتصاب أذنيه ونظافة فروته، كان ذاك الحمار خير رفيق له ودليلاً لتحديد البيوت التي يتوقف عندها لقراءة الفاتحة كأنّه يعرفها واحداً تلو الآخر، ولأنّه حمار من سلالة أصيلة تعود إلى الجزيرة العربية فقد أسماه (أمنان) وسعى لاستغلاله بالإضافة إلى الدلالة والتنقل في تحسين نسل الحمير، إذ يقبل تزواجه مع إتان تجلب له من أهل القرية في كثير من الأحيان، يحدّد الثمن مسبقاً كيلة شعير، تدفع حال انتهاء العملية بنجاح، واثق من نفسه ومن حمارة في النجاح، الا قليل يأبى حينها أمنان من إتمام مهمته بنجاح، فيبرّر السيد فشله بسحر مسّ صاحبها أو أنّها لم تكن عاطفاً^(١) وما تظهره من علامات بتحريك فكيتها عند اقترابه منها وهماً، تدعيه وهي بعد صغيرة لم تبلغ. ومع هذا فإنّ نسب نجاح التزويج العلني لحماره عالية جداً تتم في الغالب على أطراف بستان الرهيمية، بحضور صاحب الحمار العريس وحضور صاحب الإتان المصون، وعديد من الصبية في سن تسبق البلوغ، للمشاهدة والتمتع بقضاء الوقت واكتساب الخبرة بالطريقة التي يتم فيها التزويج، لأنّها المعرفة المتاحة وحدها عن الزواج في ذلك الزمان، لينتهي الحفل بتصفيق حادّ بإتمام العملية بنجاح.

كان أمنان رفيقاً جيداً له منذ يوم دخوله القرية قبل عشرين عاماً واستمر معه حتى غيابه عنها، يقف عادة عند الباب المقصود، ينزل السيد من على ظهره، يجلس على دكتها (العتبة) أو إلى جانبها إن لم تكون هناك دكة، فأكثر بيوت القرية توازي في ارتفاعاتها الشارع أو أقل منه، بلا دكة،

١. العاطف، هي الإتان التي ترغب بمعاشرة الحمار في فترات زمنية محددة، تنزل خلالها البويضة، وتصبح جاهزة للتلقيح من الذكر.

يخرج من جيبه مسبحة نحاسية منقوش عليها أحرف هجاء عربية، يبدأ في قراءة سورة الفاتحة على أرواح موتى ذلك الدار تسلسلاً إلى الجد الثاني، يعرفهم واحداً بعد الآخر، يذكر مناقبهم ويشيد بهم، ويضيف من عنده محاسن لمن قلّت محاسنه، ولما لم يخرج إليه أحد من أهل الدار، يخطّ خطأً بقطعة فحم على الجدار المحاذي للباب، إشارة تعني مجاميعها عدد المرات التي قرأ فيها الفاتحة ولم يستلم أجره كيلة شعير أو مقداراً من التمر. وإذا ما طلبت منه شابة تخشى عدم وقوف قطار الزواج في محطتها بعد أن سطر لها الزمن من سنين قسوته عشرين عاماً، لمعرفة طالعتها والبخت الذي يجيد ترتيب كلماته، ينتظر صوته من خلف الباب لتقول: سيدنا ممكن أن ترى بختي هذا اليوم؟.

يستجيب هو على الفور، يعيد وضعه لحال الجلوس كما كان قائماً، وهي من جانبها تبقي الباب مفتوحاً بفسحة تقل عن كف يدها الملفوف عادة بطرف عباءتها، تسلمه الأجر مسبقاً كيلة شعير، فهذا الجهد الاستثنائي وتفسير الأحلام، لا يؤجل أجره كما يفعل في الترحم على أرواح الموتى.

حال التأكد من وصول الأجر مدعوماً ببعض عبارات لا تخلو من التوسل، يمسك مسبحته، يغمض عينيه، يحرك شفاهه، وكأنّه يتكلّم مع أحد بصوت غير مسموع، يبدأ بتوزيع الأمل عريساً في الطريق أو فَرَجاً قريباً قبل انتهاء الحول، تتقبله جل الفتيات والأمهات، وقد يجزلن العطاء أكثر من كيلة شعير عندما يكون الأمل قبل انتهاء الحول.

انقطع يد الله عن المجيء إلى القرية، وانقطعت معه سبل الترحم على الموتى، بعد جمعيتين من مقتل الملك.

قال البعض عنه كان إيرانياً وعاد إلى إيران، وقال آخرون وجد مقتولاً بعد خروجه من القرية آخر مرة بعد مغيب الشمس، ودخوله التلال الأثرية في طريقه إلى قرية كويرش، لحضور دعوة عرس.

وروى سادن الامام رواية أخرى مختلفة، قال فيها، إنّ حمارة أمان، أوقعه في المصيبة، بعد أن صار معروفاً بأصالته وقدرته على تحسين نسل الحمير، في عموم المنطقة التي تتوسطها القرية، إذ إنه ولما خرج منها والليل قد حل، تصادف مروره على الطريق بين التلال القريبة من الامام عمران، مع مرور سراق (حواف) كانوا يقصدون القرية، يكمنون في التلال حتى انتصاف الليل لتنفيذ مهام السرقة، حاولوا سلبه الحمار لاستثماره في مشروع التحسين المضمون للنسل المطلوب، ومحتويات الخرج تماًراً وقدرًا كبيراً من الشعير، تمنع أولاً، ورفض الاستسلام لإرادتهم في سلبه، حاول إبعادهم بقراءة بعض التراتيل، ولما وجدها لن تنفع تنازل عنها، لكنهم لم يتركوه، وعلى الأغلب قتلوه ودفنوه في أحد التلال. وحكاية أخرى تقول إنه ترك المهنة بعد التطور الذي حصل على المجتمع الريفي وعزوف الناس عن الاستماع لقراءة الطالع وفتح الفال، واعتكف في بيته، وهو القول الأقرب إلى الصحة، إذ إن كثيراً من الأعراف قد تغيرت بعد الثورة وكذلك معالم السلوك.



منظر المدرسة من على التل المقابل



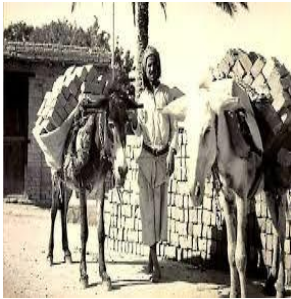
ولزدن في لندن



سقي الأرض بواسطة الكروود



معلمو المدرسة في بستان المومنين



السابل



فتاح الفال

تجديد على الطريقة التركية

أكمل سعيد روايته عن العودة إلى القرية، قال: لقد واصلت النزول من على التل وعند مدخل القرية، أجلتُ بنظري شمالاً وعميقاً، صادفني في طريق النزول شيخاً، أطلق شعر لحيته أبيض، ولم أعرفه في البداية، ولم يعرفني، تبين أنه فخري، الذي دخل عراكاً مع صاحبه على قلم رصاص إبان الدراسة الابتدائية، وتفارقنا بعد إكمالها، يوم ذهب جندياً في صنف المخابرة. بعد عناق قال:

ألم تر أنّ أصحاب البساتين تركوها تشكو الأمر إلى الله، ولأحفاد صاروا موظفين، لم يمسك أحدهم لأجل بستانه مجرفة، ولا عمره صعد من نخيل أجداده نخلة، ليقطف منها ثمرة، عادة ما تكون لذينة في أول النضج، صاروا يشترون التمر رطباً من دكاكين فتحت في القرية، زادت عن قدرة أهلها على الشراء، وأضحوا يقضون في مركز المدينة جل أوقاتهم منذ الصباح حتى مغيب الشمس، وما بعدها في بعض الأحيان.

لقد باتوا ورثتها جيلاً جديداً غير جيلنا، يعيشون زمناً غير زماننا، لا يتعاطفون مع بساتين أجدادهم، ولا يتحمسون لبقائها ذكرى آباء وأجداد، ولا خضرة لازمة لبيئة تقل في ربوعها الخضرة، ولا نفع لما بعدهم كما كسبوا ممن سبقهم، فساهموا لهذه الأسباب وأخرى غيرها بوضع مشاريع الزحف وكسر الطوق اقتناصاً لفرص وفرها قائد رتل الدبابات، فتوجهوا توجهاً محموداً إلى تقسيمها أراضي سكنية أخرجت القرية من شكلها بوصفها جزيرة أثرية تراثية ترقى لمستوى درجتها يوماً في سجلات التاريخ إلى منطقة

مبعثرة دون انتظام، هجينة لا تُحَسَّب قرية بالمعنى الصحيح، ولا تعد محلة من محال الحلة التي تددت بمقاييس الزحف الانفجاري الحاصل بعد ذاك العام، ولم تبق في ربوعها مؤشرات تاريخ. توقف سعيد عن الكلام، ثم عاوده، قال:

لقد شعرتُ لحظتها بالأسى، تذكرت نبوءة حايط يوم قال: (ستلتوي عراجين الزهدي عند شروق الشمس، وستدفن الجذوع طرية في مقابر لا ترى الشمس)، لم يفهمه أحد في حينها، فتركوه يلوك بتنبؤاته التي بات بعضها يتحقق في هذا الزمن الذي اقترب فيه العيش من النهاية.

التفت سعيد إلى يسرى وهي في طريق العودة، وأكمل حديثه بالقول، لو كان الحاج شهاب حياً هل يسمح بهذا التقسيم، واختفاء بستان ورثه عن أبيه، خدمه حتى آخر يوم في عمره؟. وهل سيرضى وهو الشيخ الثمانيني محدودب الظهر، بأن يترك ذلك البستان الرهيمية وقد اعتاد الخروج إليه كل يوم ويباشره مثل حبيبة عمر، فارق صحبته إلى جانبه من سنين؟.

كان الحاج شهاب يترك بيته وسط القرية قبل بواكير الشمس، يقصد كوخاً أعده من سعف نخيله، على مرتفع من تراب ناتج حفر متواصل لبقعة أرض ملحقة بالبستان أرادها منخفضاً (النكرة)، بدأ بجمع تراهما على هذا التل وما زاد صنع منه مادة (اللبن^(١))، أنشأ له مفخرة (الكورة^(١)) وتجاوز المنخفض لتحويله إلى طابوق، كان الأساس لبناء كثير من بيوت القرية إبان تحوّلها من عصر الطين إلى الطابوق.

١. الكورة، المعمل الذي ينتج الطابوق، يحول اللبن بعد الشوي إلى طابوق.

زرع هذا المنخفض نخلاً سقاه من ساقية الرهيمية دون واسطة، وضع في الكوخ مجرفة، وفأساً و(داكور)^(١)، يستخدمه لإزالة الحشائش من بين جذور الأشجار، ومن مجرى الماء في الساقية التي تمتد إلى ما بعد ذاك الكوخ، الذي صار مكاناً للاستراحة، في عمر كثرت في أواخره الاستراحات.

الكوخ في أعلى التل الذي أنشأه الحاج شهاب مكاناً لاستراحته، كان يقضي جل وقته جالساً فيه على حصيرة حاكها بنفسه من سعف نخيل بستانه، يروي للأحفاد قصّة لبستان الرهيمية هذا، يعرج على واقعة تجنيده من قبل العثمانيين، ذكر بعض تفاصيلها قبل انقطاعه عن الحجيء إلى الكوخ إثر مرض ألمّ به، مؤكداً:

أنّ جيلهم هو جيل الزمن الأخير للدولة العثمانية، لم يرغب بتلبية دعوات التجنيد في جيشها المعروف عنه، ذهاباً بلا عودة، وموتاً يدفن صاحبه بعيداً في الغرب، كما أنّ جيلهم والجيل الذي سبقه لم يكونا متعاطفين وعثمنة العرب، وصاروا يتهرّبون من أي تجنيد يعتقدونه خدمة لدولة عثمانية لا تعير اهتماماً للعرب.

لقد ملّ العثمانيون أساليب العرب في التهرّب من التجنيد، واتجهوا في حال سعيهم لعمل نفيّر عام (السفر برك)^(٢)، أو حشد الجهد لحملة من حملات حروبهم التي لم تنته، إلى تشكيل مفارز لجمع المجنّدين، وفي إحدى حملاتها يوم كان شاباً في مقتبل العمر، سعى الوالي إلى جمع أكبر عدد

١. الداكور، آلة تشبه المنجل إلا أنّها أصغر منه بكثير معقوفة في نهايتها، حافتها الخلفية حادة، كانت تستخدم لإزالة الشوائب من الزرع أو نبش التربة، حول الشجرة.

٢. السفر برك، كلمة تركية تعني النفيّر العام.

ممكن من المجندين، وبسببها بات شباب القرية، لا يظهرون في الأماكن العامة، وهو عن نفسه كان يقضي جل الوقت في بستان البازول، ويعود إلى بيت الأهل في القرية، ليلاً، وفي إحدى المرات، كان عائداً بعد الغروب، وصل منطقة الجوبة، وإذا بدورية عثمانية لجمع المجندين.

حاول التهرب منها بالتوجه إلى بستان (البعودة)، وأخذ الطريق المحاذي إلى النهر باتجاه القرية، لكن كميناً كان منصوباً في البستان، لم يدع مجالاً للفرار، قبض عليه وساقوه مع آخرين إلى معسكرهم في سدة الهندية، ومن هذا المعسكر بدأت قصته مع الجيش العثماني، وخلاصه من الإرسال إلى جبهة الحرب، صدفة، إذ أرسل كل مجندي الحلة إلى هناك وقوداً لم يرجع منهم أحد.

سكت في وقتها الحاج شهاب، وهو يقص وقع خلاصه، ساعياً إلى استدراج ذكرياته عن التجنيد، ترسب قسمٌ منها في القعر وصار عصياً على الاستدراج، ولما جمع منها المزيد، أكمل روايته، قال:

كان هو ضعيف البنية نسبياً، أخذ مكاناً له على الأرض مع مجندين آخرين من عموم الحلة وكربلاء وصلوا إلى المعسكر، لا أحد بينهم من أبناء القرية، بات يفكر في السبيل الذي يرسل فيه خبراً لوالده، تقدّم منه ضابطٌ برتبة تبدو عالية، وعلى هيئته ملامح قيادة، عرفه فيما بعد قدري بك قائد الفرقة، سأله عن اسمه والعشيرة التي ينتمي إليها، ولما أجابه بالتفصيل، طلب أن يتبعه، فتبعه ومن بعد سلمه إلى عسكري آخر برتبة عريف كان من ضمن طاقم خدمته كقائد في المنطقة.

هكذا بقي طوال خدمته العسكرية في الجيش العثماني حارساً شخصياً لهذا القائد الذي كان ملماً باللغة العربية، اعتاد السؤال كثيراً عن العادات والتقاليد، وتدوين الإجابات عنها في دفتر خاص بالملاحظات، ذكر أنه سيقدمها بعد انتهاء خدمته في العراق والعودة إلى إسطنبول في كتاب عن تجربة خدمته في العراق العثماني.

.....

في ليلة شهدت أجواء ربيع منعشة، خرج القائد التركي من موقع قيادته، جلس على كرسي خشبي يطوى، صادف المرور قريباً منه، وهو في نوبة حراسة اعتيادية، استوقفه ليسأل عن المهن التي تمتّ مزاولتها في القرية غير الزراعة، أجابه في وقته: لا توجد مهن غير الزراعة في عموم القرية، وإنّ ما تحتاجه من أعمال مهنية، يأتي أصحابها ليلبّوا حاجتها ويخرجوا منها قبل غلق أبواب السور. تعجّب القائد لهذه الإجابة أو إنّ لم يفهم القصد، فطلب مثلاً لأغراض التوضيح، وبقصد تزويده بالمثل المناسب، ذكر (الجراخ^(١)) الذي يأتي القرية أسبوعياً، ينصب عدته أمام أحد الأزقة، عبارة عن حجر مدور قطره نصف متر يستعمل مسناً للسكاكين، موصول بعتلة يمكن تحريكها بالقدم اليمين، وبساط من الصوف يمدّه إلى الجوار، يظهر منه جزءٌ يضع عليه بعضاً من المعدات ذات العلاقة بعمله بينها مبرد، وسكاكين، يودّ بيعها جاهزة.

١. الجراخ، كلمة فارسية الأصل، يبدو أنّها اشتقت من الجرخ، وهو العجلة والجراخ هو من يستعملها لغاية حدّ السكاكين والآلات الجارحة.

تتوالى إلى مكانه النسوة حال الوصول، معروف من قبلهن، رجل مهني، يستلم السكين من صاحبته يمسكها من القبضة بيده اليمين ويبد اليسار يمسك نصلها بزاوية ميل بسيطة تسقط حدّها على الحجر الذي يدور بتأثير القدم، وما إن يلامس حدّ الحجر الدائر، يظهر الشرار يتطاير مثل الشهب، يخفّف بعدها السرعة، يتحسّسها بإبهامه، ليتأكد من أنّها أصبحت قاطعة، يمرّر عليها بعد التحسس مبرداً خشناً، ثم آخرّاً ناعماً، ومن ثم يسلمها لصاحبته أو لطفل قد جلبها بتوصية من والدته ويستلم أجراها تمراً أو شعيراً.

كتب القائد بعض الملاحظات عن الجراح، وقد راقّت له الإجابات المفصّلة، فسأل عن عادات أهل القرية وتقاليدها وطبيعة المناكفات التي تميّز بها أهل الريف، فأجابته، وقد حبست ضحكة كادت تخرج من بين شفاهه. قال:

هناك واقعة حدثت لهم مع إحدى عشائر القرية قبل التجنيد بقليل، إذ كان لهم بستان وأرض في البازول، ولكبير تلك العشيرة أرض تجاور أرضهم، وصار خلاف بسيط حول رعي أغنام لهم كانت قد دخلت أرض جارهم، في غفلة عن راعٍ لها تأخر قليلاً في إعادتها، فأكبر الفلاحون الموضوع وصار خلاف، وفي صباح يوم أعقب الخلاف الذي تطوّر إلى تهديد ووعيد متبادل، دخل المضيف صباحاً فوجد الدلال قد انكفأت جميعها في الوجاغ. وماذا تعني، سأل القائد التركي؟.

- تعني من العار إعطاء القهوة لأحد في هذا المضيف قبل فضّ النزاع، وتعني التحدي أيضاً، وتعني كذلك الوصول إلى المضيف، مَرَبْع العشيّة، وبالتالي القدرة على الوصول إلى أكثر من ذلك.

سجّل القائد ملاحظاته عن الموضوع، وبعد اتمامه التسجيل أكمل هو بالقول، كان له ابن أخت يدعى خليل، يعيش معهم في البيت في غالب الأحيان، شاهد منظر الدلال، حاول تهدئة روعه، طلب ترك الموضوع عليه، وإمهاله يومين فقط، على أن لا يتّخذ خلالها رجال العشيرة شيئاً، تعهّد أنّه سيردّ عليهم بالطريقة ذاتها وأقسى منها.

تركه منتظراً ما سيفعل، وخرج إلى البستان، لم يفكر في أن يمنعه من أن يفعل ما يريد فعله، وإن ما فعلوه يعني الكثير في معايير العشائر التي تسود أعرافها أجواء القرية ومجتمعها الصغير، كما أنه يثق بقدرة خليل على تنفيذ ما يريد تنفيذه، لأنه شجاع بتهور.

مر يومان على حادثة المضيف.

جاء خليل في الصباح الباكر، يضحك، ولما سأله عن أسباب ضحكته قال: ذهب إلى مضيفهم بعد انتصاف الليل بساعة واحدة، أدار مفتاحاً في باب المضيف، اختاره من بين عدة مفاتيح يحملها، فانفتح دون صعوبة، استقبلته نسمة هواء من الداخل ورائحة قهوة كان يعرفها جيداً، دنا من الوجاغ، وتفرّس في واجهته وما زال وهج من الحرارة ينبعث من داخله، ودلال فيها قهوة ساخنة، أخذ فنجاناً منها شربه، ودلق ما تبقي على الأرض ثم تعوّط في القمقم وخرج.

ضحك القائد التركي. قال:

أمامكم أهل العراق سنين صعب، حتى تبلغوا ما بلغه الأتراك والعالم.
كان هذا القائد طيّب القلب حكيماً على غير عادة القادة الآخرين،
أرسل في طلبه، كما قال الحاج شهاب، بعد انتهاء اجتماع له مع الوالي
وقائد الفيلق وضباط ألمان، لتوديعه ذاهباً إلى إسطنبول لتسلّم منصب له
في قيادة الجيش.

قال بنبرة فيها حنوّ:

سيلتحق بمنصب أعلى في إسطنبول، وسيترك له الخيار في مصاحبته إلى
إسطنبول أو الانتظار هنا مع القائد الجديد حتى موعد التسريح، قال له في
حينه: إنّه وحيد أب لعائلة لم يرها منذ ثلاث سنين، يرجو السماح له
بالذهاب إليها أولاً، وسيقرّر بعد ذلك.

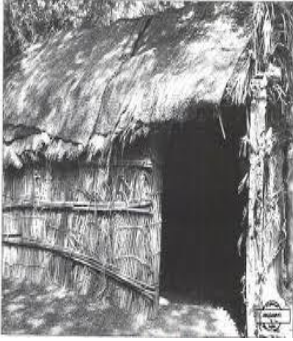
أذن له في إجازة خاصّة مدّة شهر، عاد إلى القرية، نحر والده ثوراً على
سلامة العودة، ومنعه من الرجوع إلى المعسكر العثماني الذي ضعف تأثيره
على أبناء العشائر والسكان المحليين.



الجرار



السباحة عند ناعور بستان الرهيمية



الكوخ



خليل إسماعيل الحفاجي. جيل المعلمين الثالث



تجمع جنود عثمانيون



ثكنة عسكرية عثمانية في الحلة

قصر الرئيس

استمع سعيد إلى تعليق فؤاد عن عادات الريف وتقاليده الناس، ورأيه في أن بعض القيم والتقاليد التي اختفت أو خفّت شدّتها بعد ثورة تموز، كأنّ بعضها قد عاد من جديد، بعد حرب الثماني سنوات وإحدى عشرة سنة حصار، وإدارة خاطئة للمجتمع والدولة بعد الاحتلال، وحال إكمال فؤاد تعليقه، قال سعيد:

عدت إلى القرية مرّة أخرى في الفترة التي أخلت فيها قوات الاحتلال معسكرها في بابل الأثرية، سألت نفسي وأنا أقف قريباً من المكان الذي كانوا يعسكرون فيه، لم اتخذ الأمريكيان معسكرهم على أرض بابل؟.

وبدلاً من أن يسعفني الحزين بالإجابة المناسبة، ذكرني أن البريطانيين هم أيضاً فعلوها بعد احتلالهم البلاد وتواجدوا ولو مؤقتاً في المكان، ومن قبلهم الأتراك مرّوا هم أيضاً بالمكان، فزادت حيرتي، وبزيادتها أدت وجهي دون جهد في التفكير صوب طريق السيارات النازل من تل الإمام عمران باتجاه بابل الأثرية مشياً، وجدته باقياً يتلوى بين تلال تغطي أتربتها ما بقي من آثار، لكنّه لم يعد ذاك الطريق السالك للسيارات الخشبية، ولا يتصاعد منه الغبار، لقد تحوّل واقعه، صار طريقاً خاصاً يفضي إلى تل صناعي ارتفاعه أعلى من التل الأثري الذي شيّد عليه أبناء القرية مرقداً للإمام عمران.

بنى الرئيس فوق قمّته قصراً يوم كان رئيساً.

ظنّ عند افتتاحه فخماً، أنّه قد حطّ يده على سرّ الخلود، مثله مثل حمورابي ونبوخذ نصر، كي يغيّر العالم، فغيّر بفعلته هذه وبحيرات حفرها

وقنوات ماء شققها، شكل المدينة وأثار احتجاج اليونيسف على معالم تاريخ تلاعب بأصولها الرئيس، يوم حاول إعطائها روحاً عصرية باهتة، أفضلت خططه في اكتشاف سر الخلود.

بنى الرئيس على التل قصراً من الحجر خلافاً لحضارة بابل المبنية من الطين المفخور.

زيّد من ارتفاعه عن ارتفاع الجنائن المعلقة عمداً، فأسهم في تشويه العمارة البابلية والتاريخ، أراد لقصره عمارة مزجت بين الماضي البعيد لبابل وآشور وبين الحاضر القائم لأهل العراق، كمن يريد مناداة القادمين إلى بابل، زوّاراً وآثاريين أن يتفرّجوا على إنجازاته فقط دون غيرها من معالم آثار انشغل بها العالم وما زال لآلاف السنين، فلم يجد في نهاية الأمر أحداً ينصفه من القادمين.

انتصب القصر، قصراً يشاطئ نهر الحلة، يحتضنه عاشقاً يائساً، أزال قرية كويرش من مكانها ووضع الجمجمة القرية تحت مدّ بصره نساً بجناحين مفتوحتين وعينين ثاقبتين، وصيّر من بابل عروساً فقدت عذريتهما خارج فراش الشرعية، وكأنّه أراد القول إنّ أكبر منهم جميعاً ومن نبوخذ نصر وآشور، ومثلهم سيخلده التاريخ، لكنّه فشل في تقديره هذا وذاك.

التفت سعيد إلى يسرى كأنّه يريد التأكيد من تنبّئها إلى الطريق في وقت تتضاعف فيه شدة المطر، قال:

أخذتُ طريقي في الصعود إلى أعلى التل، حيث يقيم القصر بأركانه الأربعة وإطلالته الواسعة على عموم المنطقة وأبعد منها بقليل.

تَوَقَّعْتُ عند الباب التي لم يبقَ منها سوى الفتحة والإطار، أخذتني
الرغبة إلى داخله مبهوراً، اتلمّس الممر الأبيض، وقد شوّهته كتابات عن
ذكرى لقاء بين حبيب وحبّية لم يكملها المشوار، وبيت شعر عن خضراء
الدمن سقط شطره الثاني، وطلبة مدرسة ثانوية من بغداد، جاؤوا بسفرة
تاريخية إلى المكان، خطّوا أسماءهم وعبارات جدل عن أحقية الخلافة في
الاسلام.

تابعت نقوشاً مغربية طالتها أيدي الغلّ ونفت فيها العث سمومه، وأموراً
أخرى تنفرق بين الجدران. توقفت ثانية في باحة القصر الداخلية لأرى
شيئاً مختلفاً ونقشاً مختلفاً، وخدشاً متعمّداً، وباباً مخلوعاً، وكومة أسلاك
شائكة وضعت على السلام النافذة إلى الطابق العلوي، أريد لها أن تمنع
الصعود إمعانا بالنهب والتخريب، يتبيّن من طريقة وضعها وكأنّ صاحب
الفكرة أو منقذها عسكري خاض حروباً تقليدية، بقيت في ذاكرته منها،
سبل استخدام الأسلاك الشائكة في تحصين المواضع الدفاعية.

صنابير المياه والمغاسل الخزفية المذهبة اقتلعت معاً، ومن أبي منها
الاستجابة لمعول الهدم حصل على ضربة بمفك حديدي ضخم حولها إلى
أشلاء. لم أقوَ على الاستمرار في داخل قصر كان قصراً قد تشوّه، خلافاً
لرغبة صاحبه في الخلود.

خرجتُ وفي نفسي خواء لم أعهده، وجدت أنابيب السقي بالتنقيط قد
تقطعت أوصالها، وأشجار منتقاة استوردت خصيصاً للقصر باتت ميتة
وأخرى تنتظر الموت، وشوارع غطاها التراب تتصدّع بالتدريج، كأنّها تتسابق
مع الزمن في سعي محموم لأن تعود إلى سابق عهدها ترابية تتخللها الحفر،

وحدات غناء ارتفعت فيها الحشائش عن المألوف، خلافاً لما كانت عليه الجنائن المعلقة دون حشائش وبقايا تراب.

تأوه سعيد وأكمل قوله:

كل شيء في هذا القصر تعرّض إلى التخريب إلا ما كان بعيداً عن المنال، أو عصياً على القلع، ومن كان كذلك قُذِفَ بحجرٍ محتجٍ على الدولة أو عاتب على الوطن أو بدوي نهاب حطّم بعضه ليحصل على البعض، ولربّما محتج على مسّ كرامة التاريخ ببناء هذا الصرح الحديث. توقّف سعيد عن الكلام متألماً، ثم عاد بألم أشدّ وقال:

لقد أخذتني الحيرة بعيداً، عند خروجي من البوابة مبتسماً، ولمدارات ذاتي الكئيبة، يَمُمْتُ وجهي صوب معبد الإله، قصدت البئر التي كاد الملكان هاروت وماروت يحتجزان جدي داخلها قبل عقود، جلست على حافتها المدوّرة، يضج عقلي في زحام من المخاوف والذكريات، نظرت إلى داخلها من الأعلى، هبط عليّ إعياء غريب مفاجئ وأنا جالس أحدّق، تمنّيت دخولها، ليس للتأكد من احتمالات بقائهما داخلها إلى هذا اليوم، بل لتقديم شكوى لمقامهما عمّا أصاب مدينتهما، عساهما التدخل بطريقتهما السحرية، للحفاظ على ما تبقى من تاريخها والتراث.

.....

شعرت وأنا أجلس على حافة البئر، كأنّ في داخلي مسّاً وأنا مشدود اليه، قال سعيد، ثم تفرّد به الصمت فترة ليست قصيرة، وأضاف:

لم أكن أرغب بمفارقة البئر في تلك اللحظات، أحسست بخليط عجيب من القوة والضعف، حاولت الوقوف، وحال نجاحي، رفعتُ يديَّ ثانية إلى أعلى لأعوّض أمنية الدخول إلى البئر بسؤال عابر، ولما بلغت عتبة السؤال، نبّهني شاب أنيق الملبس، جريء النظرة، يبدو وكأنّه من أهل القرية، قال: إن كنت تطلب شيئاً، فالله من يعطي الأشياء، والوجهة الأصوب نحو السماء.

لكني لم أرفع يديّ لأطلب شيئاً.

لم رفعتها إذن؟.

رفعتها لأسأل.

هناك في الواجهة إمامٌ تعوّدنا السؤال في حضرته حتى وإن تأخر الجواب.

تركت له الكلام عن بابل والقصر الذي طعن التاريخ في خاصرته، راح بعيداً في الحديث ونزل معي مشياً، وفي طريق التجوال، عزّف عن نفسه من أهل القرية الجمجمة.

وأنا منها أيضاً.

لا علم لي ولم أرك من قبل.

كنت منها.

حاول تقديم نفسه، ليسهل عليّ مشوار المعرفة، قلت:

لا تتعب نفسك، فجيلكم لم تُخزن صوره في الذاكرة، والأفضل أن تخبرني عن جدك شيئاً، عندها فقط سأعرفك في الحال.

عن جدّه قال: بدأ فلاحاً مثل أبناء جيله، ترك الزراعة والقرية، جرب أكثر من عمل حتى استقر شرطياً في الجمارك، وصف بأنّه صاحب وجه دقيق القسمات أسمى، جاد في العمل، عيناه غائرتان ورثهما هكذا عن أبيه وجدّه، وجنتاه بارزتان وفمه مطبق طول الوقت، كان أمياً، ذاكرته قوية، ومعرفته لتسلسل النجوم وأماكنها واحدة بعد أخرى، تحسب فريدة، كان عند السير ليلاً في صحاري البلاد يعدّ دليلاً لشرطة جماركها، كأنّه يقرأ خرائطها، يحدّد مواقع تلاها وآبار الماء ومسالك سير السيارات والابل، في عمومها الممتد بمحاذاة سوريا والأردن والسعودية حتى الكويت. انسجم مع مهنة الدليل في الصحراء، صار وكأَنّه واحدٌ من بدوها، عرفهم وعرف أنسابهم، بات يتنقّل مثلهم على الجمال، اشترى منهم ناقة لتنقله ومتابعة أثر المهريين باستخدام الجمال، أسماها (وضحة).

كانت وضحة ناقة أصيلة من سلالة شقحاء، يقيها تسرح عند بدو من قبيلة عنزة، يتنقّلون بها وإبلهم في البادية الممتدة بين العراق والسعودية. قاطعته بالقول مبتسماً: لا تكمل إنّه جدك عباس الجبر. خرجنا من مدار القصر والآثار وسرنا معاً باتجاه القرية، أخبرته أيّ أعاني صداً قوياً.

ما زال المستوصف موجوداً في مكانه، مفتوحٌ بابه إلى ما بعد الظهر. قصدنا المستوصف الذي أخذ من دار بنيت إلى جوار المدرسة مع دور أخرى لسكن المعلمين، مكاناً له، خصّ غرفة من غرفه لفحص المرضى وصيدلية لصرف الدواء، وقف وسطها رجل، يعطي شعره الأبيض، انطباعاً

عن عمر يزيد قليلاً على الستين ويرتدي صدرية بيضاء، حسن المظهر،
اقترب منه، صرخت من هول المفاجأة:

أبا عامر، ما زلت صامداً في هذا الصرح الطبي أربعة عقود.

ترك هو مريضاً كان يعاينه واقترب مسرعاً، عانقني بشوق. سأل:

أين أنت يا رجل، كنت أسأل عنك بين الحين والآخر، لا أحد يجيب،
حتى توقفت عن السؤال خشية الاتهام بالعلاقة معك وأنت متهم بعيد.

حاول تغيير وجهة الحديث سأل ثانية:

- ما الذي أتى بك في هذا الوقت؟.

أشكو صداً ألمّ بيّ بعد مشاهدتي الخراب الذي عمّ قصر الرئيس.

توجّه إلى دولاب، أخرج قارورة، بلون يقترب من الأحمر البني، فتحتها،
أخذ ست حبات، مدوّرة على شكل أقراص بيضاء، وضعها في ظرف
مخروطي ملفوف، يشبه قمعاً لصبّ الزيت، عزل واحدة، ثم سدّ الطرف،
ناولني إياها، وأفرد من دورق إلى جانبه قليلاً من الماء في قدح يجاورها،
قال: خذ واحدة وفي المساء قبل النوم أخرى.

ركّز في وجهي وأنا أضحك ثم سأل:

- لم تضحك؟. أجبت:

أضحك على قمع الدواء، لقد تغيّر الكون مراراً طوال السنين التي غبتها
عن القرية، والقمع باقٍ كما هو لم يتغيّر.

ضحك كعادته بأدب، وردّ السبب إلى الحكومة.

هممت بالخروج من غرفته، دخل إليها تَوّاً صبيّ، ينزف دمّاً بشدّة من جرح أسفل قدمه، كانت قد تسبّبت به قطعة زجاج نابتة على مقربة من سطح الأرض، شقّت كعب قدمه الشمال، وهو يلعب الكرة حافي القدمين.

مدّه على أريكة في غرفة المعاينة، أخرج ملقطاً من عدّة طبيّة كانت موجودة على رفّ معدني إلى جانبه، بدأ بالتقاط الشظايا من بقايا الزجاج. نظّف الجرح بمادة اليود، خاطه بغرزتين دون استخدام البنج، والصبي صامد، وقد احمرّ ألماً دون أن تدمع عيناه.



نقوش سقوف القصر لم يصلها العبث



قصر الرئيس على تلة وسط آثار بابل



العبث الشعبي بالقصر من الداخل



العبث في القصر من الخارج



دورية لشرطة الهجانة في الصحراء



عباس جبر الخفاجي. شرطي من الهجانة

صاحبة العيون العسلية

غادرتُ غرفة المضمّد أبي عامر، مع قمع دواء ورقّي أثار الضحك،
لأخرى كانت مخصّصة للانتظار في طريقي إلى الخروج، قال سعيد،
وأضاف: أن شابة بانّت في منتصف العمر، لون شعرها أسود كأنّه الليل،
لم يخلّ الحجاب دون ظهوره منسكباً يتهدّل حتى منتصف الظهر، جميلة
بوجه حنطي مدوّر، أنوثتها ونظارة سوداء تغطي نصف وجهها، تجلب
الانتباه، عطرها الفواح ذكرني بأول عطر شممته من فتاة مرت وعائلتها
البغدادية سائحة في بابل وأنا بعمر الأربعة عشر عاماً أطالع دروسي مشياً
إلى هناك.

وقفتُ أنتظر مرورها إلى غرفة التضميد، وكأن شيئاً فيها شدّني إلى
الوقوف، ظننت جمالها المفرط سبباً، وظننت أشياء أخرى.

وقفتُ هي في الجهة المقابلة تنتظر، فالمضمّد ما زال مشغولاً بإكمال
خياطة جرح الصبي. تعمّدت النظر إلى وجهها محدّقاً، رأيت فيه الحزن
أكواماً، ورأيت رغبةً عارمةً بإخفاء هذه الأكوام.

ألقيتُ التحية ورعة أنيقة، ردّت بصوت يعلوه قدراً من الاهتمام. سألتها:

- هل هناك مانع؟.

وقبل إكمال الشطر الثاني من السؤال ردّت: تبعاً لطبيعة المانع.

شجعتني إجابتها الجامعة على الاستمرار في الكلام. سألتها بصيغة

استفسار عابر:

- كَأَنَّكَ لست من أهل القرية؟.

قالت ولم تلبث أن أعادت الكلام إلى داخلها الساخن في تردّد حائر: بلى إنّها من بنات القرية، أبوها وَجَدَهَا ومن قبلهم أجداد جميعهم من أبناء القرية، أمضت جل طفولتها في المدينة، بحكم وظيفة الأب في الدولة، عادت إليها بعد فصله من الوظيفة، لا لذنب ارتكبه، بل لأنّه قريب لأحد مسؤولي الدولة، عاقبهُ الرئيس سجنًا، وشمل أقرابه من الدرجة الأولى بالعقاب طردًا، وقبل أن يَضِيع الأب في لجة العيش دون معاش، عاد إلى داره والعائلة في القرية، ليبدأ وإياهم حياةً من الصفر، قرب نهايتها حسب اعتقادها في أن تكون بمحدود الصفر، ثم حَرَكْتُ حافة نظارتها بأطراف أصابعها النحيفة، لتستر دمعة حاولت التسلل من تحت إطار يحجبها، بانّت عينها ملوّنة، بلون غريب يقرب من لون العسل.

قلت بدهشة:

هاتان العينان كانت تملكهما في ذاك الزمان واحدة من بنات القرية، ظلّ لوّحها ووجهها القروي الجميل ماثلاً في رفوف ذاكرتي القرية، لم يدفنها الزمن بعيداً كغيرها من الذكريات. أعدتُ النظر إليها بإمعان أكثر، أدركت أنّها تريد سماع المزيد عن موضوع مثير قد فُتح، فواصلت الكلام: كانت صاحبة العينين العسليتين والشعر الحريري الفاحم قد زاملت طفولتي طوال المدرسة الابتدائية، هي من أولى بنات القرية التي اقتحمت المدرسة في ذاك الزمان عنوة، لفرط طموحها والرغبة في أن تكسر قيوداً تفرضها أعراف القرية، وهي من فتحت الطريق لبنات أخريات أن يواصلن الدراسة من بعدها. لعبت معنا طفلة،

وجلست بيننا صبية، وتفوّقت علينا ست سنين، افترقت عنا بنتاً كأثما نضجت بعد نجاحها الأولى في السادس الابتدائي، هي....

تدخلت بسرعة لإيقاف تدرّج كلماتي عند هذا الحد، وكأثما لا تريد أن تنهي موضوعاً مثيراً بهذه السرعة، ولربما كانت مدفوعة بالحاجة إلى سماع باقي القصة. أكدت بصوت هادئ مخنوق، هي والدتها، ثم عاودت مداراة عينيها بمنديل ورقي أبقته ثابتاً بين أصابع يدها الشمال.

سعت للتعرف منها على خمسين عاماً فُقدت من فصول القصة، كنت قد غبت طواها عن القرية، لكنّ دفاعاتها العقلية كانت قوية كوالدتها، أصرت على سماع الخمسين من جهتي لكامل القصة.

قلت: طوال سني المدرسة المتوسطة، كنت أخصّها بمادة الدراسة، أسلمها كتي لتبقيها عندها وتحسّر على انقطاعها عن المدرسة امتثالاً لرغبة والدها، وفي سني الثانوية، ارتبطنا بعهد زواج أبدي، صرنا نرى بعضنا من على سطوح بيوت مفتوحة كلّما سنحت فرصة في أوقات القيلولة. أسمع بين الحين والآخر مشروع خطبة، وأسمع منها رفضاً لكلّ ارتباط بالغير، وظلّت هكذا ترفض، حتى هدّدها الوالد بالتدخل قسراً.

كنت وقتها طالباً في السنة الأولى كلية، وفي خميس جئت به القرية، رحلت ليلاً إلى والدها المعروف بتعنته وإصراره على الرأي الذي يتبنّاه، طلبت يدها، وتعهّدت بالزواج منها اليوم أو في اليوم الذي يحدّده هو، واستعدادي لتقبّل كل الشروط التي يضعها. رفض بشدّة، وبقسوة، قال:

هي لابن عمها وأنت غريب عنا.

لكيّ لم أياس، صحبت والدي في اليوم الثاني واقتحمنا مكان سمره بأدب، لكنّه أصرّ على الرّفص وطلب الكفّ عن الطلب.

في الأسبوع الذي تلا، أعلنت خطبتها لابن عمها، لم تظهر بعدها في السطح، ولم أعد أنا أصدع، فالتقاليد بعد الخطبة تحتمّ قطع الأمل. شعرت يومها أنّ القرية ليست عالمي، ولا يمكنني البقاء فيها قريباً من بيت تتواجد فيه مع غيري، ولما أكملت دراستي صرت أنقطع عن القرية أشهراً، زادت سنيناً، واكتملت عقوداً في الغربة.

.....

أخرجت منديلاً آخر من حقيبة يدها. نَشَفْتُ دموعاً كانت لا تنقطع، قالت: أَحْسَسْتُ يوماً كانت الوالدة قد عَزَلْتُ نفسها وهي تبكي بحرقه، أن وراء بكائها قصة، صارت من بعد تلك العزلة، تنوه بمناسبة أو بدونها عن واحد من أهل القرية كان زميل طفولتها، ترك القرية فجأة، تزوج امرأة بغدادية تحسدها، سكن العاصمة بغداد، وسمعتها ثانية وثالثة تنوه عن أن ذاك الذي ترك القرية فجأة، ترك العراق كذلك فجأة ليعيش بعيداً في الغربة، وسمعت منها في إحدى زياراتها التي باتت تحصل بعد الزواج، إن ذاك الجمجماي الذي نوهت عنه قد عاد إلى القرية، بعد الاحتلال وتغيير نظام حكم الدولة، ومن أوصاف ذكّرتها وأصول للعائلة تطرقت إليها، ولقطات في التلفاز تظهر فيها، وكانت من جانبها تتسمر في المكان تتابع لقاء أو مقابلة، أنك هو المقصود سعيد، وكانت الفرصة غريبة أن يكون اللقاء في هذا المستوصف بالصدفة.

عَيَّرْتُ مجرى الحديث، حَوَّلْتُهُ إلى صيغة سؤال سألته:

- أتعلم ومنذ اليوم الذي سمعت على لسان الوالدة نصف القصة، صارت تمني نفسها بترك العيش في القرية، لأن الشعور في داخلها قد تضخم ضيقاً بالمكان بعد إقحامها غصباً بمشروع زواج من ابن عمها كان نسخة من زواج والدتها؟.

تفاجأت من صراحتها، وسعة معلوماتها. أحسست أن في داخلها الكثير تريد إفراغه، عن حياة ارتبطت بمسيرة لا تريدها شبيهاً لوالدتها، فتركته لها المجال أن تتكلم، طالعني بهمهمة ناقصة تشبه الإجابة، قالت:

كان عمرها أربعة عشر عاماً، وكانت في دراستها المتوسطة متفوقة، تدفعها الوالدة أن تتفوق، أعجبت بها شاب جامعي من أهل المدينة، وأعجبت به على نفس القدر وأكثر، وقبل بدء امتحانات آخر السنة، حضر لخطبتها ابن العم، حاولت الرفض، هددوا الوالد بسجنها في الغرفة، وكأنّ الزمن في موضوع القسر أعاد نفسه، فقصدت الوالدة في عرينها، شكّت حالها، بكت على صدرها وكأَنَّ طفلة عادت من تيهها. ومن جانبها بكت الوالدة أيضاً ومدت يدها تداعب شعرها الناعس، قبّلتها من عينيها اللتين تشبهان عينيها، قالت سبحان ربي الابنة على سرّ والدتها، وأكملت أن لا مفر من هذه القسمة.

تنفّست ثم نوهت بأنّها لم تفهم في ذلك الوقت ماذا كان القصد. قامت من المكان وهي تبكي، تركت لها الوالدة الخيار في تحديد المستقبل، وبالحصلة استسلمت لطلب الوالد مكرهة وهي لم تفهم حقاً معنى الزواج، كانت تتخيله، مجرد لبس بدلة عرس بيضاء، ووضع الأحمر على الشفاه. في أيامها تلك لم تفهم البنت المراهقة سبل الزواج، ولم تجرؤ الأم على

مناقشة ابنتها العروسة عن أصول الزواج. كانت تُقحم العروس ليلتها مخدع الزواج، فتكره من بعدها الزواج.

تنبّهت لخطأ التعميم في الرأي وعادت إلى القول، بالأحرى هي من كره الزواج، إذ لم تدخل معها الجدة لإفهامها معنى الزواج، ولم يساعدها ابن عمها الذي يكبرها عمراً بخمسة عشر عاماً على فهم الزواج. توقفت عن الكلام، وقد أطبقت فكّيها بإحكام، كأنها تمنع موجة صراخ تعربد في داخلها بتأثير من حزمة عذاب قد استثيرت من ذكريات ماضٍ لأكثر من عقدين من الزواج. أخرجت منديل ورق ثالثاً، رفعت قليلاً نظارتها، مسحت ما تسرّب من دموعها، وأحسّت بالخرج. قلت كي أقلل شدة الحرج: عيناك العسليتان جميلتان، أرجو أن لا تفهميها غزلاً، إنّها الحقيقة، وأنا بعمر قد جاوز الدوافع الغريزية للغزل.

ردّت بحياء: العمر، لا يقاس بعدد السنين. لو كان المقاس هكذا لتعطلت الحياة، ولما شاخت وهي في ريعان الشباب.

زادت دموعها غزارة، تركت أثراً على وجنتيها الحمراءوين، وكأنّ كلامي أو وجودي في طريقها قد نكأ جرحاً كان مندماً لسنين. ولما زاد عدد المرات التي تمسح بها عينيها بالمنديل. قلت: كفى.

ردّت بحرقّة واضحة:

دع عنك هذا علّها تفرّغ خزين همومها المليء بمشاعر اليأس، كي لا تنفجر، لا سيما أنّها وجدت في الشخص الواقف أمامها فرصة تفريغ، وكأنّها تعرفه من قبل.

ضحكت، فتعكّر مزاجها.

- لم الضحك؟.

أجبت، وما زلت أضحك: لو كان جدّك يرحمه الله قد وافق على الزواج من الوالدة لتغيّر كل شيء، لسكنت القرية، وربما بقيت فيها لم أتغرب.

قالت: هل تعلم، أنّ الوالدة ولما تتفاخر بجمالها، قبل نحول جسمها وفراق الحياة بأشهر، تقول إنّها عاشت من عمرها قاعة سعيدة فقط سنتين قبل الزواج، وأنّها حُطبت لشخص أحبّها بجنون، وصفته بالشاب الذي تتمناه بنات القرية، لكن والدها رفض طلبه، ليس لعيب فيه، بل إيفاء لتقاليد حق ابن العم في الزواج من ابنة عمه غصباً.

تمهلْتُ قليلاً ثم أكملت قائلة: هكذا كانت النتيجة؛ عاشت غير سعيدة طوال حياتها، وخلفت من وراء بؤسها عشرة أبناء، ليس فيهم واحدٌ ينعم بالسعادة.

.....

حاولتُ صاحبة العيون العسلية الجميلة أن تتجاوز موضوع والدتها الصادم وألم إرغامها على الزواج من ابن عمها، بالعودة إلى يوم زفافها فقالت إنّها توسّلت في تلك الليلة التعيسة، وهي البنت المراهقة، أن يعطيها فرصة قبوله عارياً إلى جانبها، وبدلاً من أن يعطيها الفرصة، بات يتحسّس جسمها بيدين خشنتين، يصدر أوامر متتالية لتقييد حركة إنسحابها، وكأنّه مكلف بمهمة يريد إنجازها ليخرج منتصراً في معركة وهمية مع عدو تمثله زوجة هي في الأصل ابنة عم. لقد رفض توسلات دموعها، وحشرجة آهاتها، ولما فعل فعلة يريدّها، تركها في فراش العرس مخضبة بدم لا تفهم

طبيعته، خرج منتشياً، ولم يغلق الباب من بعده، كأنه تركها عمداً لدخول والدته لتفحص أنوثتها، وتهنئ العشيرة بخروج الدم المسفوح.

سألها والألم يتلبس حواسي كلها:

- هل يمكنني معرفة الاسم وهذه المرأة التي تزيد على حدود المؤلف، إن لم يكن هناك مانع؟.

- لم المانع فالجميع هنا وهناك مُعَرَّفُونَ بأسماء، واسمها حسب ما مكتوب في أوراقها الثبوتية رشا. ثم عاودت النظر اليّ بحسرة عمر جاوز منتصف الأربعين، قالت: لم تخبرها الوالدة أنها كانت طرفاً في موضوع الغربة. قلت بحسرة:

لها الحق أن تكتنم، فأعراف القرية لا ترحم، والمرأة في ذاك الزمان لا تقوى.

وهي في هذا الزمان كذلك لا تقوى، قالت رشا، وأعطت مثلاً على رأيها هذا بزواج لها، استمرت تفتش ما بعد حصوله عن سبيل للهروب كي تغرب بعيداً أو أن لا تعاد القصة. تنهدت، ومسحت دموعها بقوة كأنها تعاقب نفسها وأكملت، أن لديها بنتاً شابة، تخاف أن تتكرر معها القصة، مثلما حصلت لها ومن قبلها لوالدتها الضحية الأولى، ويصبحون نسوة من نسل واحد مصابات بلعنة الزواج من أبناء العمومة. تنهدت ثانية، تنهيدة خرج منها صوت ألم غريب وأكملت: بيني وبينك أفكر كثيراً بالهجرة لأكسر هذه اللعنة.

- لا أتفق معك في وضع هذا مبرراً للهروب، إن الغربة وحش لا يرحم. للعيش في أوربا سيديتي بعض النفع، لكن ضررها أكثر، وابنتك التي تخافين

أن يغضبها الاب هنا على زواج لا تريده، لا تستطيعين هناك منعها من معاشرة شاب بعمرها مراهق دون وعد بالزواج. الغربة باستثناء الحرية والعدالة هي للكبار عزلة، وحياة صعب اعتيادها، وجري من الصباح حتى المساء لا يرحم. دعيني أصارحك، أنه لو يعود بي الزمن ثانية، وأخير بعد هذه التجربة الطويلة بين البقاء هنا في القرية وبين الغربة في لندن، لبقيت هنا أو قريباً من هنا أتمتع.

سَرَحْتُ قليلاً، كأنها ذهبت في التفكير بعيداً، رَدَّت بالقول: لكنّها هنا وبين أهلها ومعارفها تحسّ نوعاً من الغربة، باتت حائرة من أمرها، زاد الطين بلة، رمي الزوج ابن عمها المصون المسؤولية كاملة على كتفها، اضطرت العمل في وظيفة، وما زالت تعمل، تصرف من عندها على البيت وعلى أطفال بات أكبرهم رجلاً، تحسّه زوجاً ينظر وينتظر نضج ابنتهما ليزوجها من ابن عمها. لذلك لم تقتنع بالمقارنة التي قيلت.

وضعت النظارة السوداء على عينيها العسليتين الجميلتين بعد أن نشف الدمع، وهَمَّت بالذهاب. أوقفبتها بعبرة؛ مهلاً لم العجلة، فبعض جوانب القصة لم تكتمل. رَدَّت:

إلى هذا الحد يكفي، ستعود إلى أشياء لوالدتها كانت قد وضعتها أمانة عندها قبل الوفاة، ستنبش فيها بإمعان ولهفة، عساها تجد شيئاً. قلت: لا تتعبني حالك، لم نترك شيئاً، كان مجرد وعد، أماتته تقاليد الزمن، أنصحك أن تكوني قوية، وتكسري دورة الزمن هنا في القرية كي لا تحل على ابنتك ومثيلاها اللعنة، وتسير على خطى والدتها والجدّة. قالت:

إنّھا لم تفقد الأمل في التغرب يوماً وإن بقيّ من عمرها يوم، ستجد فرصة ومن يدري قد يكون مآل الفرصة قريباً من المكان الذي تعرّبت فيه، وعدت أنّها ستزعر في محيط المكان المأمول نبتة لبلاب على روح الوالدة، كانت تحبها، وكانت تقول إنّ روح المحبين تحوم من حولها، عسى أن تكون العودة حوماً فوق محبيها، تحرّهم من قيد أتعبها وتحس بوجودهم قريبين من بعضهم، فتنتهي من روحها الحسرة.

نظرت يسرى إلى ساعتها وهي تستدير بالسيارة شمالاً كي تدخل مرآب العمارة من مدخل ضيق نسبياً يحتاج إلى انتباه عالٍ، وجدتها وقد اقتربت من الرابعة صباحاً.

ركنت السيارة تحت شجرة البلوط الممتدة بعض غصونها آخذة حصّة لها من المرآب.

أطفأت المحرك، ململت أشياءها ووضعتها في حقيبة يدها، وهي في الطريق إلى مصعد البناية الكهربائي، عبّرت عن رأيها بالسهرة؛ إنّها كانت سهرة جميلة.

أجاب سعيد وقد مسك يدها وهو يمشي إلى جانبها، لقد تمتّعت حقاً بهذه السهرة الجميلة مع فريدة، أعادت لي ذكريات كادت تحتفي، أحسست في هذا العيد وبهذا العمر كأني عدت إلى القرية التي أحببت.



فتاة الأحلام في ذلك الزمان رسم عدوية كريم الربيعي

حياة المؤلف

- ولد في قرية الجمجمة من محافظة بابل عام ١٩٤٦.
- تخرج من الكلية العسكرية العراقية، الدورة (٤٣) عام ١٩٦٦. واحيل على التقاعد في ٢٠١٤/١/٣١، برتبة فريق.
- حصل على البكالوريوس آداب من الجامعة المستنصرية كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية عام ١٩٧٦.
- أكمل دراسة الدبلوم العام والخاص في التربية من جامعة عين شمس/ مصر عام ١٩٧٩.
- حصل على شهادة الطيران التجاري من مؤسسة الطيران المدني العراقية عام ١٩٨٧.
- نال شهادة الدكتوراه في علم النفس السريري من جامعة بغداد عام ١٩٩١.
- خدم كضابط في الجيش العراقي لخمسین عاماً، تدرج فيها من آمر فصیل وسرية ومساعد آمر فوج، ثم مدير شعبة الإستخبارات النفسية، ومدير البحوث والخدمات النفسية، ومدير عام التخطيط والمتابعة في وزارة الداخلية، ومستشار وزير الدفاع، وملحق عسكري في باريس، ومستشار في مكتب القائد العام، وخبيراً للعمليات النفسية في مستشارية الأمن الوطني.
- عمل مدرسا لمادة علم النفس والصحة النفسية في كلية المأمون الجامعة، والجامعة المستنصرية في بغداد، وجامعة الفاتح في ليبيا منذ العام ١٩٩٦

حتى عام ٢٠٠٠، وباحثاً في علم النفس والسياسة، وكاتباً لعمود في الصحافة العراقية.

- مدير مركز الشرق للبحوث والاستشارات.

- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.

إصدارات للمؤلف

١. مقدمة في علم النفس العسكري (مع مؤلفين آخرين) مديرية التدريب العسكري، بغداد، ١٩٨٣
٢. المعنويات بعد الحرب، مديرية التوجيه المعنوي، ١٩٨٩
٣. المخالفة في الحياة العسكرية، عواملها النفسية وأسس التعامل معها، مديرية التوجيه المعنوي، بغداد ١٩٩٠.
٤. نوايا وحروب. دار العارف، بيروت ٢٠٠٣.
٥. أزمة المجتمع العراقي. دار الكنوز، بيروت ٢٠٠٣.
٦. دوامات المحنة. الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠٠٧.
٧. المعنويات في الميدان، نظرة في التقويم والقياس. مطبعة الرشيد، بغداد ٢٠١١.
٨. حصاد العاصفة، الجزء الاول، (ثقافة التضاد في عراق بين زمنين) دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠١١.
٩. جراح الغابة، "رواية" فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ٢٠١٢.
١٠. وأد البطل، نهاية جيش وملحمة وطن، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١٣.
١١. سيكولوجية المخالفة، دار الجواهري، بغداد، ٢٠١٣.
١٢. تلك هي "رواية" دار الجواهري، بغداد، ٢٠١٣.

١٣. الاجهاد القتالي في ظروف مكافحة الارهاب، وزارة الدفاع، ٢٠١٣.
١٤. حصاد العاصفة، الجزء الثاني (التداعيات الادارية والامنية لعاصفة التغيير في العراق)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠١٤.
١٥. الضغوط النفسية للحرب، مركز الشرق للبحوث والاستشارات، بغداد ٢٠١٥.
١٦. حفل رئاسي "رواية" منشورات ضفاف، بيروت ٢٠١٥.
١٧. الشجاعة والخوف في المعركة، مركز الشرق للبحوث والاستشارات، بغداد، ٢٠١٥.
١٨. تيه الجنوب "رواية" دار الجواهري للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ٢٠١٦،
١٩. سيكولوجية الضبط، دار ضفاف للنشر، الشارقة - بغداد، ٢٠١٩.
٢٠. حچاية التنگال، دار ضفاف للنشر، الشارقة - بغداد. ٢٠١٩.

المحتويات

أصل الفكرة.....	٧
يوم مشاهدة التلفاز.....	١١
العيد في يومه الأول.....	٢١
ثاني يوم العيد.....	٢٩
حفلة مقام في لندن.....	٤٠
الغجرية الشقراء.....	٥٠
البعثة الألمانية.....	٦٢
بئر المعبد.....	٦٩
واقعة (دكة) عاكف.....	٨٠
بغلة الانجليز.....	٨٨
هجوم بريطاني على القرية.....	٩٧
طنطل وشجرة السدر.....	١٠٦
العودة من فلسطين.....	١١٨
أقفاص التدجين.....	١٢٦
راقصة وشاعر.....	١٣٤
شاعر القرية علي.....	١٤٥
مقهى على الله.....	١٥٥
حكايات من داخل المقهى.....	١٦٤
العشق المسموح.....	١٧٣
حفلة شواء ليلية.....	١٨١
شهادة فقر رسمية.....	١٨٩

١٩٩.....	مقتل الملك.....
٢٠٨.....	هستيريا السحل.....
٢١٩.....	مظاهرة تأييد.....
٢٢٩.....	نهوة عرس.....
٢٤٠.....	جني محصول التمر.....
٢٤٩.....	يوم دخول المذيا ع.....
٢٦٠.....	عميد القرية شعيب.....
٢٦٨.....	تتبع الأثر.....
٢٧٦.....	القديس حنتوش.....
٢٨٦.....	الزاهد علي.....
٢٩٣.....	عمران، مدرسة القرية.....
٣٠١.....	قسوة معلم.....
٣١٠.....	شجرة السدر المقدسة.....
٣١٨.....	ظهور الإمامين.....
٣٢٨.....	من أيام محرم.....
٣٣٧.....	العاشر من محرم.....
٣٤٥.....	يد الله فتاح الفال.....
٣٥٤.....	تجنيد على الطريقة التركية.....
٣٦٣.....	قصر الرئيس.....
٣٧٢.....	صاحبة العيون العسلية.....

